

د. تويس عوض

أفرا

حلم الشرق والغرب





تصدر في أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجاء



دار المعارف بمصر



د. لويس عوض

رحلة الشرق والغرب

اقرأ ٣٥٤

دار المعارف بمصر

اقرا ٣٥٤ - يونيو سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

الباب الأول

رحلاتي الروسية

الفصل الأول

١٠ أيام في يوجوسلافيا عتبة أوروبا الاشتراكية

كان قدراً أن أكون آخر من زار روسيا من الأدباء المصريين المعروفين . وقد بدأ الروس يستقبلون في بلادهم أدباء مصر منذ سنة ١٩٥٥ ، وكان المرحوم الدكتور محمد مندور رئيس أول وفد من الأدباء المصريين يزور الاتحاد السوفيتي . منذ ذلك التاريخ سافرت وفود وفود بدعوة من اتحاد الكتاب في روسيا ، وعقدت مؤتمرات ومؤتمرات في الاتحاد السوفيتي ، وكانت تأتي الأنباء بين الحين والحين أن اتحاد الكتاب قد وجه إلى دعوة بالاسم ، ثم يشبت أن هذا غير صحيح ، أو أن الدعوة لم تصلني ، وكنت أحس إحساساً واضحاً بأن في ثقافتى فجوة عميقة . كنت كالكثيرين أعرف الكثير عن الأدب الروسى من بوشكين إلى جوركى عبر تولستوى ودوستويفسكى وجوجل وتورجنيف وتشخوف ، وكنت كالكثيرين أحاول أن أعرف شيئاً عن الأدب الروسى منذ الثورة البلشفية في سنة ١٩١٧ من يسنين إلى يفتوشنكو عبر ماياكوفسكى وباسترناك وإهرينبورج . . إلخ . .

وكنت أعرف الكثير عن الفكر الماركسى والنظام الشيوعى نظرياً

وعملياً، ما لهما وما عليهما، من قراءتي في ماركس وإنجلز ولينين وبلخيخانوف وبوخارين وروزا لكسمبورج وستالين وتروتسكى وماكس إيستمان وسيدنى وبياتريس ويب وشارل بتلهاييم، ثم ما استجد من اجتهادات في الثلاثينيات (هولدين وبرنال وهوجبن) والأربعينيات والخمسينيات والستينيات، فقد كنت دائماً ولا أزال من هواة الفكر الاجتماعى والسياسى. وكنت أقرأ المعارضين والمنقحين والمراجعين والمنحرفين بنفس الحماس من كاوتسكى إلى جيمس بيرنهام ومن سيلونى وكيسلر إلى جورج أورويل. وما زلت أقرأ اجتهادات لوكاتش وجارودى وألتوسير بنفس الحماس. ولكن ليس من رأى كمن سمع. ولهذا كنت دائماً أحس بأن أى حكم يطلق على المجتمع الاشتراكى السوفيتى أو الفكرة الاشتراكية السوفيتية هو بغير قيمة حقيقية ما لم ير المرء كل هذه الأفكار وتطبيقها على الطبيعة. ومنذ عام زارنى في «الأهرام» الرفيق سوفرونوف رئيس تحرير مجلة «أوجانيوك» ودعانى لزيارة روسيا على نفقة مجلته، فأبدت له تحفظى من قبول الضيافة وأضفت: «لكل شىء أوان، وأنا لست متعجلاً، ولكن» عندى يقيناً بأنى سأزور الاتحاد السوفيتى فى يوم من الأيام. على كل حال قبل أن أموت»، فضحك الرجل السمين لتوجسى ضحكة سميئة.

ولم أكن أعلم أن هذا اليوم قريب. وقد جاء اليوم فجأة ودون ترتيب. فقد زارنى فى مكتبى بالأهرام منذ شهرين أو ثلاثة مسيو بتكوفيتش المستشار الثقافى للسفارة اليوجوسلافية وتفضل بدعوتى لزيارة بلاده بمناسبة

حاول مهرجان الفنون السنوى فى دبروفنيك خلال يوليو وأغسطس ١٩٧٠
 فقبلت الدعوة شاكراً دون تردد . ثم عجبت لقبولى الفورى برغم أنى ،
 بمنتهى الصراحة ، لم أكن متحمساً بصفة خاصة للتجربة اليوجوسلافية فى
 الاشتراكية ، ولم أكن بصفة خاصة من هواة الثقافة اليوجوسلافية ، ولم
 يكن فى يوجوسلافيا — بلداً أو شعباً — شىء يلهم خيالى أو يسحر
 وجدانى حتى يلهينى عن مبدأ رفض كل ضيافة . وبعد أن استعرضت
 الموقف فى هدوء زال عجبى . . لقد كنت دائماً أتخشى الأغنياء وأتوجس
 من الأقوياء ولا أقبل جميلاً إلا ممن هم فى طبقى . ولم يكن فى اليوجوسلاف
 شىء يخيفنى كمصرى ، فنحن شعبان صغيران ناميان ، وإذا كان لهم
 فضل الحداثة فلنا أيضاً فضل القدم . ووافقنى الأستاذ هيكلى على أن
 تكون رحلتى اليوجوسلافية بداية مناسبة لرحلتى الروسية على نفقة الأهرام .
 وما دمتنا مع الاشتراكيين فلننظر إلى الاشتراكية فى كل مكان ،
 لا أقول فلندرس وإنما أقول فلننظر فكل هذا لا يمكن أن يدرس فى شهر
 واحد . وقررت أن أبدأ بيوجوسلافيا ثم أدخل إلى روسيا ثم أزور بولندا
 ثم أعرج على ألمانيا الشرقية ومنها إلى تشيكوسلوفاكيا ثم أعود .

وفى ١٥ يوليو وجدتنى فى مطار بلجراد أنتظر من ينتظرنى . فقد
 كان من المقرر أن ينتظرنى فى المطار مرافق موفد من وزارة الثقافة
 اليوجوسلافية أو من الإدارة المنظمة لمهرجان دوبروفنيك ، ولكن أحداً
 لم يظهر ، قيل فيما بعد لأن شركة الطيران العربية المتحدة أجلت موعد
 سفر طائرتى ٢٤ ساعة . وكنت أتميز غيظاً وأضطرب قلقاً . أكلم الناس

بالانجليزية فلا يفهمون". وأجرب الفرنسية فلا يفهمون ، ووجدت نفسى فجأة فى عالم غريب لا أعرف فيه أحداً أو شيئاً أو عنواناً، وجميع أدوات الإرسال والاستقبال بيى وبين العالم معطلة فيما خلا لغة الإشارة . وأخيراً وضعت نفسى فى تاكسى وقلت « هوتيل » ففهم السائق وحملنى إلى هوتيل سلافيا . وما إن وضعت حقائبى حتى انطلقت بتاكسى آخر إلى السفارة المصرية ببلجراد لأستعين بها على المجهول اليوجوسلافى ، أى لتصلنى السفارة بوزارة الثقافة اليوجوسلافية أو بمنظمى مهرجان دوبروفنيك فوجدت سفارتنا خاوية على عروشها تحفها السقايل والملاط وصفائح البوية من كل جهة ومن داخل الحجرات والدهاليز والقاعات ، فقد كانت بها « عمرة » شاملة ولم أجد بها إلا سكرتيرة يوجوسلافية شابة تعرف الإنجليزية ولا تريد أن تحرك ساكناً . وعرفت أن أمور السفارة تصرف مؤقتاً من بيت السفير . فعدت إلى الفندق وبحث بين أوراقى عن خيط يصلنى بالعالم الخارجى فوجدت رقم تليفون الزميل فريد كامل مراسل ا.ش.ا. فى بلجراد .

ونخف إلى فريد كامل على عجل ، وفى أقل من ساعة خرجت من هذه الورطة الغريبة . فى أقل من ساعة خف إلى المرافق المترجم المعين لمساعدتى واتفقنا على برنامج الرحلة .

وخرجت أتجول فى مدينة بلجراد فوجدتها مدينة جديدة نظيفة باهتة بلا شخصية ، بها بعض العماثر الأثرية القليلة ، ولكن طابعها العام حديث ، وأبرز ما فيها عساكر المرور الذين ينظمون المرور فى

ميادينها الفسيحة كأن كلا منهم يقود أوركسترا من السيارات ، كذلك أبرز ما فيها أن يوم العمل بها يبدأ في الساعة السابعة صباحاً فإذا نظرت من نافذتك بالفندق في السادسة صباحاً رأيت الشوارع مكتظة بالسيارات وبالمارة ، كل يسعى لعمله وكأنك في الساعة التاسعة في أحد ميادين القاهرة الكبرى . وسرعان ما أدركت برغم عوائق اللغة أنى وسط شعب معقد التكوين ، لأنه متعدد القوميات ، متعدد اللغات ، متعدد الثقافات ، متعدد الأبجديات ، متعدد الأديان ، ففى يوجوسلافيا ٢٠ مليون نسمة ينقسمون إلى ستة شعوب مختلفة يضمها إطار سياسى واحد ، وهذه الشعوب هى الصرب (نحو ٨ ملايين) والكروات (نحو ٤,٥ ملايين) وسكان سلوفينيا (نحو ١,٧ مليون) والبوسنة والهرسك (نحو ٣,٥ ملايين) ومونتنيغرو أى الجبل الأسود (نحو نصف مليون) ومقدونيا (نحو ١,٥ مليون) . وهناك قومية إسلامية قوامها نحو مليون مسلم إلى جانب المسلمين المندرجين تحت القوميات الأخرى . هذا بالإضافة إلى الأقليات القومية الأخرى التى تعيش فى يوجوسلافيا كالأتراك (نحو ربع مليون) ، والمجر (نحو نصف مليون) ، والغجر (نحو ٤٠ ألفاً) والألبان وغيرهم وهم يمثلون نحو عشر سكان البلاد ، وقد سمعت أن الغجر فى يوجوسلافيا قد رفعوا شعار : « يا غجر العالم اتحدوا » وأنهم يطالبون بوطن قومى للغجر وبجمهورية غجرية داخل الإطار السياسى اليوجوسلافى . والقوميات الرئيسية فى يوجوسلافيا تعيش فى جمهوريات شبه مستقلة داخل إطار الجمهورية اليوجوسلافية التى يرأسها الرئيس تيتو . فإذا عرفت

أن يوجوسلافيا في مجموعها لم تولد كدولة إلا عام ١٩١٨ بموجب معاهدة فرساي التي قننت تجميع كل هذه الأشتات في دولة واحدة ، ذهلت أن تجد هذه الدولة الملفقة التي كانت مقسمة بين تركيا واليونان والنمسا والمجر تسعى نحو وجود سياسى واحد ونحو هدف قومى واحد . وفي اعتقادى أنها لم تنجح في تحقيق هذه الوحدة السياسية إلا بفضل اعترافها بالشخصيات القومية المختلفة وبالثقافات القومية المختلفة التي يتألف منها الاتحاد . فلو أن الكروات حاولوا طمس ثقافة الصرب أو أن الصرب حاولوا طمس ثقافة المقدونيين . . إلخ . لتمزقت يوجوسلافيا وتفسخت قبلما تقوم لها قائمة .

ولأن يوجوسلافيا دولة جديدة فعاصمتها بلجراد عاصمة جديدة أيضاً . . واسم يوجوسلافيا اسم حديث لا معنى له إلا « بلاد السلاف الجنوبيين » تمييزاً لهم من سلاف الشمال ممن تجدهم في روسيا وغيرها ، فالعنصر الغالب في يوجوسلافيا إذن هو الجنس السلافي ، ومن هنا كان اليوجوسلاف بوجه عام ثقال العظام كالروس ولكن بيئتهم الجبلية جعلتهم أكثر خشونة وغلظة وأقل وسامة وأطول ألواحاً من الروس ومن كافة السلافين في تشيكوسلوفاكيا وغيرها . وقبلما تجد بينهم رجلاً أو امرأة يتميز بالدقة أو الرشاقة في التكوين الجسماني ، ولكن الجميلات من نسائهم جمعن بين الجمال والجسم الرياضي الذي لم تتلفه المدنية بعد . وإحساسى أن تكوينهم الجسماني الجبلى ينعكس أيضاً في سلوكهم وسيرهم وحركتهم بوجه عام .

أما بلجراد نفسها ، فرغم أنها عاصمة جديدة ، صغيرة التعداد نسبيًا (نحو مليون نسمة) ، فيقال لك إنها مدينة عمرها ألفا عام أو يزيد ، ومعناها « المدينة » [جراد] البيضاء [بيو] أو إن شئت أن تقربها للعربية فهي « المدينة البلقاء » والأبيض والأبلى شىء واحد . وعرفت من آثار بلجراد أن أساس هذه المدينة وضع في القرن الرابع ق.م. أيام فتح قبائل الكلت لهذه المنطقة من البلقان وكان اسمها يومئذ سنجدن ، أى قلعة السنج ، كما أن لندن معناها قلعة اللون ، فكلمة « دون » تعنى قلعة أو حصناً فى لغة قبائل الكلت ، فهي إذن بدأت كتحصينات حربية ، وقد أدرك الترك قيمتها العسكرية فيما بعد وأنشأوا فيها تحصينات تعرف حتى الآن باسم كلاميجدان ، وهى كلمة تركية يقول من رأيهم من المصريين أنها تحريف لعبارة « قلعة الميدان » العربية أما مرافق اليوجوسلافي فيصر على أن الكلمة تركية صميمة معناها الحرفى « معسكر القتال » أو كما نقول نحن « ميدان القتال » ، والله أعلم . وعلى كل فإنخوانا المصريون قد تعودوا منذ سنوات قريبة أن يروا العرب ولغتهم وراء كل أكمة وخلف كل شجرة من بلاد الصنوبر إلى بلاد البنجوين . وقد حدثنى السيدة المشرفة على مهرجان دوبروفنيك ، قالت إن شاباً مصرياً فسر لها أصل اسم دوبروفنيك بأنه مادامت « دوبرو » فى اللغة اليوجوسلافية معناها « الغابات » وما دام العرب قد عرفوا « البندقية » فاسم دوبروفنيك إذن مأخوذ من العربية ، ومعناها إذن « بندقية الغابات » [بدلا من مدينة البندقية البحرية] ، فضحكت وقلت لها : ربما ،

ولكن إذا كان هذا اشتقاق اسم بلدتك ، فالرومان المتأخرون أو الايطاليون الأوائل لم يكونوا بحاجة إلى العرب ليعلموهم أن بلدتهم فينيسيا كان اسمها فنديكيا ، فقد كان هذا اسمها اللاتيني قبل أن يخرج العرب إلى الأمصار برّاً وبحراً . وعلى كل فلا داعى للخجل ، فهذه الفهلاوة المصرية قد لمست نظيراً لها في الفهلاوة اليوجوسلافية .

كنت قد طلبت لقاء أديبهم الكبير ايفو اندريتش وسواه من الأدباء المعروفين ، فوجدته في مصحة ووجدت أكثرهم في الأرياف وعلى الشواطئ وفي خارج البلاد . قال محدثى - وهو المقابل اليوجوسلافى للدكتور مجدى وهبة فى إدارة العلاقات الثقافية الخارجية - إن ايفو اندريتش يسبب لنا حرجاً شديداً . فمنذ أن ماتت زوجته منذ سنوات وهو فى حالة كتابة مستمرة ، وقد زهد فى الكتابة والحياة ، يدخل المصحات بمعدل مرتين سنوياً وتأتينا الدعوات له من اليابان أو السويد أو غيرها ، فيجيب بأنه قبلها ، وحين يحين موعد رحلته نبحث عنه فى كل مكان فنجده معتكفا فى مصحة عازفاً عن لقاء الناس . لقد قال لى مرة إنه منذ وفاة زوجته لا يعرف لماذا يعيش . لقد كف عن الكتابة تماماً . أجبت : لقد لاحظت عليه شيئاً من ذلك . فقد عرفته فى القاهرة أيام أن استقبله الدكتور ثروت عكاشة ، ثم تركنا فجأة وطار إلى يوجوسلافيا . قال إنه مريض ، ولكن يبدو أن نوبة الكتابة أدركته .

وركزت على دراسة حالة المسرح فى يوجوسلافيا لعلى أجد فى تجربتهم المسرحية شيئاً يمكن أن ننتفع منه فى مصر ، فتعرفت على المخرج

الناقد الموهوب تشيريلوف وفي أكثر من لقاء حصلت منه على صورة دقيقة للحياة الفنية في يوجوسلافيا .

عرفت منه أن في يوجوسلافيا نحو خمسين مسرحاً محترفاً ، كلها تابعة للدولة ، وليس لديهم مسرح خاص واحد ، وكل هذه المسارح معانة من الدولة ولكن المهيمن على المسارح في يوجوسلافيا ليس وزارة الثقافة وإنما المجالس البلدية في كل 'جمهورية من جمهوريات يوجوسلافيا الفيدرالية الشعبية . أما في بلجراد نفسها ففيها سبعة مسارح هي :

١ - المسرح القومي وعمره ١٠٠ عام ، وهو ليس مختصاً بالدراما وحدها وإنما يضم فرقة للتمثيل المسرحي وفرقة للأوبرا وفرقة للباليه ، وله حالياً مسرحان ، أو خشبتان ، ويبني له الآن مسرح ثالث ، وهو يقدم سنوياً نحو سبع مسرحيات جديدة وثلاث أوبرات جديدة بالإضافة إلى الإعادات [الريبراتور] ، أما فرقة المسرحية فأعضاؤها نحو خمسين ممثلاً وممثلة .

٢ - مسرح الدراما اليوجوسلافية ، وقد تأسس في ١٩٤٨ وله خشبتان في بلجراد ، مسرح يتسع لسبعمئة متفرج ومسرح يتسع لأربعمئة ، وفرقة المسرحية تضم ٧٢ ممثلاً وممثلة يقدمون على الخشبتين بين ١٠ مسرحيات و ١٢ مسرحية جديدة سنوياً .

٣ - المسرح الحديث أو المعاصر وله خشبتان ، وهو يقدم الأوبريتات والكوميديا الموسيقية كما يقدم العروض الدرامية ، وحصيلته السنوية من ١٠ إلى ١٢ عرضاً جديداً على الخشبتين وبه نحو ١٠٠ فنان وفنانة منهم ٧٠ للتمثيل المسرحي و ٣٠ للغناء .

٤ - مسرح الأتلييه ٢١٢ وقد أنشئ عام ١٩٥٦ ويضم ٢٢ ممثلاً وممثلة وله خشبتان الكبرى سعتها ٤٠٠ متفرج والأخرى صغيرة كمسرح الجيب .

٥ - مسرح الأطفال [إتلييه بوشكويوسا] .

٦ - المسرح الشعري وهو مخصص للدراما الشعرية والقراءات .

٧ - مسرح الدراما القومية وهو مخصص لعرض إنتاج الأدباء اليوجوسلافيين وتنمية المواهب الجديدة .

أما بالنسبة لتكاليف إنتاج المسرحيات فقد عرفت من المخرج الناقد الشاعر تشيرياوف [وهو أيضاً مدير مسرح اتلييه ٢١٢] ان متوسط الحد الأقصى وتكاليف أكبر عرض عرفه المسرح اليوجوسلافي هي ٣٠٠ ألف دينار يوجوسلافي أى ما يساوى نحو عشرة آلاف جنيه مصرى بخلاف مرتبات الممثلين والإدارة ، وإن إنتاج مسرحية من مسرحيات شكسبير يكلف ما بين ٧٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ جنيه خارج مرتبات الممثلين والإدارة (أى بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف دينار) ، وأن متوسط الحد الأدنى لتكاليف المسرحيات البسيطة هو ٥٠ ألف دينار أى نحو ١٧٠٠ جنيه . أما المسرحيات العادية فينفق عليها نحو ٥٠٠٠ جنيه (١٥٠ ألف دينار) بخلاف مرتبات الممثلين والإدارة . وقد ذكر لى تشيرياوف أن « فى انتظار جودو » وما هو فى حكمها قد كلفتهم ١٠٠ ألف دينار (أى نحو ٣٣٠٠ جنيه) .

كل هذا النشاط المسرحى يشرف عليه فى بلجراد هيئة تسمى « مجلس

الشئون الثقافية » . وكل المسارح يعينها المجلس البلدى باستثناء المسرح القومى الذى يعينه مجلس بلدية بلجراد كما تعينه جمهورية الصرب .

أما الإعانة التى تتلقاها المسارح فى يوجوسلافيا فليست رقماً أصم كل سنة كميزانية الإنتاج والخدمات المسرحية فى هيئة المسرح عندنا ولكنها مرتبطة بحجم جمهور المسرح الذى يدخل طرفاً فى تحديد الإعانة . فالمجلس البلدى يدفع لكل مسرح إعانة مساوية لدخله من شباك التذاكر طوال العام ، فإذا كان متوسط ثمن التذكرة المباعة فعلاً ١٠ دنانير وعدد رواد المسرح ١٠٠ ألف شخص دفعت البلدية إعانة قدرها مليون دينار وتشجيعاً للتأليف المسرحى القومى ترفع الإعانة بنسبة ٥٠ ٪ بالنسبة لعرض أعمال المؤلفين اليوجوسلافيين ، كما تدفع البلدية إعانة ابتدائية إضافية قدرها ٥٠٠٠ دينار (نحو ١٧٠ جنيها) عن كل مسرحية جديدة تخرج لمؤلف يوجوسلافى بشرط أن يستمر عرضها عشر حفلات ، وهو مبلغ رمزى ، ولكنهم يعتبرونه حافزاً لإنتاج المؤلفات المسرحية القومية إلى جانب الخمسين فى المائة الإضافية التى تدفع فوق الإعانة المساوية لحصيلة شباك التذاكر . ولكن لكى لا تتسابق الفرق فى بلجراد على استرضاء الجمهور بعرض المسرحيات الرخيصة طمعاً فى شباك تذاكر ضخمة وإعانة حكومية ضخمة ، يخصص المجلس البلدى سنوياً إعانة قدرها مليون دينار (نحو ٣٣ ألف جنيه) بصفة جوائز لأحسن أعمال مسرحية تعرض من حيث القيمة الفنية خلال العام بناء على قرار هيئة تحكم بصرف النظر عن عدد الرواد لكل مسرحية ، وهذا المبلغ قد يعطى

كجائزة واحدة أو جائزتين أو ثلاث جوائز وقد يصل العدد إلى عشر جوائز .
 أما حق المؤلف المسرحي فمحدد على الوجه التالي : ١٠ آلاف دينار
 (نحو ٣٣٠ جنيها) مكافأة يضاف إليها ١٢٪ من حصيلة شباك التذاكر
 عن كل حفلة يعرض فيها أعماله سواء في موسمها الأول أو في الإعادات .
 والدولة تنتظر مقابل هذه الإعانات من كل مسرح إنتاجاً كمياً
 متوسطه خمس إلى ست مسرحيات جديدة كل عام بالإضافة إلى ما بين
 ١٥ إلى ٢٠ إعادة من مسرحيات الريبوتوار . والمقصود بالمسرحيات
 الجديدة لا المسرحيات الحديثة التأليف ولكن المسرحيات التي لم يسبق
 تقديمها على هذا المسرح بالذات ولو كانت من اليونان أو من شكسبير
 أو راسين أو من المحدثين .

والممثلون يتقاضون في يوجوسلافيا بوجه عام نفس المرتبات التي
 يتقاضاها المخرجون ويعاملون نفس المعاملة المالية من جميع الوجوه ، إلا في
 جمهورية سلوفينيا ، وهي أرقى جمهوريات يوجوسلافيا من الناحية الفنية
 والحضارية ، فإن مرتبات الممثلين فيها تقل عن مرتبات المخرجين بنسبة
 ٢٠ ٪ ، والمخرج الضيف يتقاضى في يوجوسلافيا ما بين ٥٠٠٠ و ١٠,٠٠٠
 دينار على كل مسرحية يخرجها بحسب مكانته أى ما بين نحو ١٧٠ جنيها
 و ٣٣٠ جنيها ، وجدول المرتبات محدد كالتالي : ١٠٠٠ دينار شهرياً
 للفنان المبتدئ (ممثلاً كان أو مخرجاً) أى نحو ٣٣ جنيها و ٢٠٠٠ دينار
 (٦٦ جنيها) للفنان المتوسط و ٣٠٠٠ دينار (١٠٠ جنيها) للفنان الكبير
 وهذه المرتبات تعادل على وجه التقريب ما يتقاضاه أساتذة الجامعات

في يوجوسلافيا ، ولكن للفنانين عادة دخل إضافي من التليفزيون يعادل ضعف دخلهم من عملهم الأصلي ، وقد يصل إلى ثلاثة أمثاله . وجدول مرتبات فناني التليفزيون مطابق لجدول مرتبات فناني المسرح . أما المخرج السينمائي فيتقاضى ١٠٠ ألف دينار عن كل فيلم يخرج (نحو ٣٣٠٠ جنيه) تدخل فيها مكافأة الحوار .

ومقابل المرتب الذي يتقاضاه يشترط على المخرج أن يخرج مسرحيتين سنوياً في مسرحه على وجه الإلزام ويجوز له أن يتجاوز هذا النصاب بالإخراج للمسارح الأخرى أو في مسرحه بمكافأة مستقلة .

وميزانية المسرح القومي ٤ ملايين دينار سنوياً أي نحو ١٣٣ ألف جنيه تمثل إيرادات الشباك منها ٢٠ ٪ وتمثل إعانة البلدية منها ٨٠ ٪ أما مسرح الاتلييه ٢١٢ فميزانيته السنوية مليون دينار فقط (نحو ٣٣ ألف جنيه) ٣٠ ٪ منها من إيرادات الشباك و ٧٠ ٪ من إعانة المجلس البلدي ، هذا بالرغم من أن المسرح القومي به ١١٠٠ كرسي بينما مسرح الاتلييه به ٤٠٠ كرسي (متوسط المسارح الأخرى نحو ٥٠٠ كرسي) . .

وهذه الإعانة التي تصل إلى ٨٠ ٪ من ميزانية بعض المسارح ناتجة من أن مرتبات الفنانين والاداريين والفنيين والإضاءة والصيانة إلخ مع نفقات الإنتاج المسرحي تساوي أربعة أمثال دخل الشباك . ولكن تشير ياوف أوضح لي أنه بوجه عام تغطي الإعانة المرتبات ويغطي إيرادات الشباك نفقات الإنتاج . وميزانية كل مسرح تنفق بنسبة ١ للفنانين : ٢ لغير الفنانين (الاداريين والفنيين إلخ . .) وهذا في رأيه هو العرف

المستقر في أوروبا كلها منذ مائة عام في مسارح الريبيرتوار ، أما في مسارح البولفار (التجارية) فالفنانون ليسوا موظفين ولكن يعملون بالقطعة . . وكل زيادة في حصيلة الشباك في المسارح اليوجوسلافية تؤول للمسرح ويمكن إنفاقها في نهاية كل عام ، إما على الفنانين كحوافز وإما على مزيد من الإنتاج المسرحي بحسب ما يقرره مجلس إدارة المسرح . أما متوسط ثمن التذكرة فهو ١٠ دنانير (نحو ٣٣ قرشا) . وأرخص تذكرة ثمنها ديناران (سبعة قروش) وأعلى تذكرة ثمنها ٢٥ ديناراً (٨٥ قرشاً) بلاضريبة ملاءة . ولكل مسرح في بلجراد مجموعة من المخرجين مرتبطين به يتراوح عددها بين ٢ و ٤ مخرجين ، وكل مسرح له استقلاله الذاتي ويديره مجلس إدارة وعلى رأسه مدير المسرح ، وهذا المدير قد يكون فناناً أو إدارياً أو سياسياً ، بحسب ما يقرره مجلس التعيينات ، والأغلب في يوجوسلافيا أن مديري المسارح من الأدباء ، ولا سيما في المسرح القومي الذي بلغت نسبة مديريه من كتاب المسرح أو النقاد خلال مائة عام ٩٠ ٪ ، أما مجلس إدارة المسرح فيتكون ثلثاه من رجال الفن والإدارة التابعين للمسرح وثلثه من ممثلي البلدية دافعة الإعانة ، ولكل مسرح مستشار أدبي ، أما وظيفة المدير فهي بالاعلان ، وهي لمدة ثلاث سنوات .

ونسبة المترجمات إلى المؤلفات في مسارح بلجراد هي ٥٠ ٪ للمترجمات و ٥٠ ٪ للمؤلفات ، وهو عرف مستقر دون أن يكون عليه نص . أما المؤلفات فتحصل المسارح عليها إما بالتكليف المباشر وإما بفحص المؤلفات المعروضة عليها ، وهي عادة تعرض عند اختيارها على الخشبة

التجريبية الصغيرة قبل أن تعرض على المسرح الكبير . والمسرح القومى يتبع نفس المنهج . ولكن تشير ياوف لم يخف عنى امتعاضه من مستوى التأليف المسرحى القومى فى بلاده .

أما الجهة المنوطة . راقبة المسارح المعانة من حيث سلامة الإنفاق فهى البلدية . ويمكن للبلدية أن تتدخل لإيقاف عرض مسرحية إذا ألبت المسرحية إحدى قوميات يوجوسلافيا على قومياتها الأخرى أو إذا هاجمت دولة صديقة . وفيما عدا هذا فليس هناك رقابة على المسرح وإيقاف المسرحيات لا يكون إلا بحكم محكمة ، ولم يحدث أبداً أن صادرت المحاكم مسرحية ما ، ولكن حدث منذ ١٨ سنة أن أوقفت مسرحية « مرقص اللصوص » لجان أنوى بقرار وزارى بحجة الانحلال أيام الاستالينية ثم لم تتكرر هذه السابقة . ومع ذلك فقد أوقفت مسرحية واحدة أيام استحكام الخلاف بين تيتو وستالين فى ١٩٤٨ وهى مسرحية « عندما يزهر القرع » لأنها عرضت بالبوليس اليوجوسلافى واتهمته بالنازية لاعتقاله عدداً من الشيوعيين الستالينيين فى يوجوسلافيا . . . والذى أوقف المسرحية هو إدارة المسرح الذى كان يعرضها ، أوقفها بسبب الحملة التى شنتها الصحافة عليها ، أما الحكومة فلم تتدخل .

هذه صورة المسرح اليوجوسلافى كما استخلصتها من حديث الناقد المخرج تشير ياوف ، وقد أوردتها بتفاصيلها عسى أن ينتفع بها المسئولون ورجال المسرح عندنا . وأهم الحقائق فى هذه الصورة بالنسبة لوزارة الثقافة ووزارة الخزانة معاً هى أن الدولة فى يوجوسلافيا تعين المسارح

بنسبة ٨٠ ٪ من ميزانيتها ، وأن مرتبات الفنانين تمثل ٥٠ ٪ من مرتبات الإداريين والفنيين وعمال المسرح ، وأن إعانة الدولة للمسارح مربوطة بعدد روادها . وقد توخيت أثناء إقامتي في روسيا وفي ألمانيا الشرقية أن أجرى دراسة مشابهة لحالة المسرح من الناحية التنظيمية هنا وهناك ، فربما ساعدتنا هذه الدراسة المقارنة على إعادة تنظيم حياتنا المسرحية داخل البناء الاشتراكي .



الفصل الثانى

التجربة اليوجوسلافية

سلبيات وإيجابيات

دخلت يوجوسلافيا وخرجت منها دون أن أحس أنى فى بلد اشتراكى ، فالاشتراكية تقترن عادة فى أذهان الناس بالبيروقراطية والإحساس بالحكومة (التى يسمونها خطأ بالدولة) فى كل خطوة يخطوها الإنسان ، وبكثرة القيود والممنوعات واللوائح والقوانين ، وبالعين المراقبة التى تتجول فى محافظتك لتعرف كم دولاراً تحمل وفى عقلك لتعرف فيم تفكر وكيف تحس ، وبكثرة الشعارات والكليشيات فى الكلام وفى وحدة الممصقات من صور الزعماء والتوجيهات العامة . فلما نزلت يوجوسلافيا لم أحس بشىء من هذا بل أحسست على نقيض ذلك بأنى فى مجتمع مفتوح لا يكاد يختلف كثيراً عما ألفته فى بعض بلاد الغرب التى زرتها . ومع ذلك فى يوجوسلافيا بلد اشتراكى أو شبه اشتراكى ، فيه كل المصانع والمتاجر والفنادق والعمائر والشركات وكافة وسائل الإنتاج والخدمات الكبيرة مؤمنة ، والملكية الزراعية فيه محدودة بحدود ومقيدة بقيود (بحد أقصى نحو ٢٠ فداناً للفرد الواحد) . وانتهيت إلى أن يوجوسلافيا بلد شبه اشتراكى بعد أن عرفت أن اقتصادها

اقتصاد مختلط فيه مكان للقطاع الخاص والنشاط الفردي ، ففي استطاعتك أن تملك مصنعاً أو متجرّاً أو عمارة أو فندقاً أو مشروعاً مادمت تديره بنفسك ولا تستخدم فيه أكثر من كذا عامل وتنفذ أحكام القانون والضمان الاجتماعى بشأنهم .

والزائر لا يجد من يتفحصه من رأسه إلى أخمص قدميه ويتمعن في أوراقه أكثر من اللازم أو يسأله لماذا جئت وأين تقيم ومتى تمضى . وربما لم يجد الزائر كثيراً من أصول الاتيكيت وآداب السلوك التى تثقف بها الناس في حضارة الغرب عبر مئات من السنين ، ولكنه يجد ما يطلبه أو يحتاج إليه منفذاً بلا تراخ ، في بداوة ولكن بلا تراخ ، في بساطة وبلا احتفال ولكن بلا تراخ ، فكل الناس تعمل بجد من الساعة صباحاً إلى الثالثة بعد الظهر (منها ساعة للغداء) رغم أنهم جميعاً موظفون في القطاع العام . وحين يصبح الجرسون أو عامل المصعد أو موظف الشركة ق.ع . يجب أن تتوجس خوفاً من آثار الاشتراكية . ولكن لا . في يوجوسلافيا كل مافى الدولار يتحولك بلا تراخ . التليفونات تعمل بدقة . التلغرافات ، المواصلات ، الطائرات ، البنوك ، الحنفيات ، الكهرباء ، المطاعم ، المتاجر ، الشوارع ، تعمل بدقة رغم أنها ق.ع . وبكرامة أيضاً . لا أحد ينتظر البقشيش . إن جئت به فكلمة شكر وإن لم تجد فلا أحد ينتظر منك شيئاً . وأهم من هذا وذاك فأنت لا تحس بوجود « الحكومة » « في أية خطوة تخطوها . عشرة أيام لم أسمع فيها كلمة « بعدين » أو « غدا » أو « عند الأفندى الثانى » أو « المختص غير موجود »

رغم أنها كانت من أيام يوليو وفي قيظ دونه قيظ القاهرة ، كل يؤدي عمله وكأنه رئيس نفسه . لا أحد يعطل عملاً بحجة الرجوع إلى الرؤساء ، رغم أنهم لا شك يرجعون ، ولكن مكالمة تليفونية تكفي لحل الإشكال في دقيقة . لقد نجحت الاشتراكية في يوجوسلافيا لأنك لا تحس بوجودها وهذا ما يسمونه التسيير الذاتي .

ومع ذلك فربما كانت هذه نظرة من الخارج ، فإذا اقتربت من الصورة قليلاً بدأت تتكشف لك عورات كتلك التي تركتها في مصر . ذهبت لأشترى بعض قطع غيار سيارة فباع لي المحل جزءاً منها بعد حديث طويل متقطع بينه وبين مترجمي لم أفهم منه حرفاً ، ولكني أحسست من لغة النظرات وهن تغيير درجات الصوت وكأنني أشترى ممنوعات أو مهربات . ثم أحالنا الرجل إلى الأجانس الرئيسي الذي يستورد قطع غيار أو بل لحساب الدولة فوجدت الطواير التي تركتها في مصر والباعة ، يقاون للزبائن « مافيش » « مش موجود » « بعد شهرين » . وقالت نظرات البائع لنا « مش موجود » قبل أن يفتح أحد فيه ، فلما فتح صاحبي فيه جاءه الجواب « مش موجود » . وأحسست أنني في مصر . فحيث يتجاوز القطاع الخاص مع القطاع العام تتسرب السلع من العام إلى الخاص وتباع بسعر السوق السوداء ، وتكون بصورة آلية عصابات من الموظفين الموميين ، إداريين وفنيين ، للتجار في سلع القطاع العام أو الارتشاء فيها والسمسة عليها مع التجار . وتصورت هذا المرض ضارباً في كل السلع الاستهلاكية المستوردة وفي كل السلع ذات الندرة ،

ربما كان هذا ثمن « تبسيط » الاشتراكية ، ثمن إلغاء البيروقراطية وحضور الدولة المستثمر : نهب القطاع الخاص للقطاع العام وخلق طبقة من السماسرة بدرجة مدير عام ، وبدخل صاحب كازينو في شارع الهرم . شيئان أحلاهما مر . فما العمل ؟ يبدو أن طريق الاشتراكية طويل كطريق الديمقراطية . وكما انتظرت إنجلترا أو فرنسا مئات السنين قبل أن تتجاوز فيهما الأخلاق الديمقراطية وبعض المبادئ العامة التي ذهبت مذهب المقدسات ، يجب أن تنتظر بعض البلاد قرناً كاملاً قبل أن يتجاوز فيها الإنسان الاشتراكي .

وفي يوجوسلافيا حركة قومية لجمع الدولار والعملات الصعبة بوجه عام ، تتجلى في انفتاح البلاد للسياح والخدمات السياحية التي بلغ حجم إيراداتها في العام الماضي (١٩٦٩) ٣٢٠ مليون دولار وارتفاع حجم الصادرات إلى نحو ٥١ بليون (ألف مليون) دولار (أى ثلاثة أمثال قيمة صادرات مصر) منها ٨٢٪ من المنتجات الصناعية و ١٨٪ من المنتجات الزراعية . ومع ذلك فهذه الأرقام ليست شيئاً مذكوراً في التجارة العالمية لأن صادرات يوجوسلافيا لا تمثل أكثر من ١٪ من التجارة العالمية . وقد كانت تجارة يوجوسلافيا الخارجية بعد الحرب مباشرة تقوم أساساً (بنسبة ٨٠٪) على اتفاقيات الدفع بالمقايضة مع دول الكتلة الشرقية ولكنها منذ ١٩٤٨ أى منذ اختلفت مع الاتحاد السوفييتي أخذت نحو التصدير بالعملات الحرة حتى استردت استقلالها الاقتصادي عن الكتلة الشرقية ، وقد سمعت أنها عدلت منذ يوليو الماضي عن التعامل — على الأقل في بعض

القطاعات — بالجنيه الحسابى وهو التعبير المصرفى لنظام المقايضة وقررت ألا تتعامل إلا بالعملات الحرة . وما تعجز يوجوسلافيا عن تحصيله من الدولارات عن طريق التصدير تحاول أن تستكمله عن طريق الخدمات السياحية . فحامل الدولار هناك ملك .

ويكفى أن تذكر أن إيرادات السياحة من العملة الأجنبية تعادل نحو ربع أو خمس إيرادات يوجوسلافيا من صادراتها لتعرف مكانة السياحة فى تلك البلاد . وفى يوجوسلافيا الآن نحو نصف مليون سرير لا استقبال السياح فى الفنادق والبنسيونات والبيوت الخاصة ، وبها مطاعم يمكن أن تطعم مليوناً ونصف مليون شخص فى وقت واحد . وفى كل مكان محلات تجارية مخصصة للبيع بالعملات الحرة بأسعار مغرية لا صطياد الدولارات من السياح ، وعلى ساحل الأدرياتيك مستعمرات عراة ، قليل إنها لتنشيط السياحة ! (لا شك قد كتب عليها : ممنوع اللبس !) . وقد كان من نتائج ذلك كله أن مركز الدينار اليوجوسلافى قد قوى حتى كاد أن يصبح فى ثبات العملات الحرة .

وحين جاء وقت الرحيل إلى دوبروفنيك للاشتراك فى مهرجانها الحادى والعشرين تصفحت الكتالوج فوجدتهم يقدمون باليوجوسلافية مسرحيات « يوليوس قيصر » لشكسبير و « أوديب ملكاً » لسوفوكليس و « طرطوف » لموليير وثلاث مسرحيات يوجوسلافية هى « العشاق » لمؤلف مجهول و « العم مارويا » لدرجيتش و « البخيل » لدرجيتش كذلك و « ثلاثية دوبروفنيك » لفوينوفيتش ، وهى أسماء لا تعنى شيئاً للقارئ

العربي لأننا لا نعرف شيئاً عن الأدب اليوجوسلافي . أما في باب الموسيقى والغناء والباليه فقد كان البرنامج أكثر خصوبة فقد كانوا يقدمون : « صلاة المساء للقديسة العذراء » لاونفيردى ، وكوكيتيل من سكارلاتي وبيتهوفن وبروكوفييف وليست و « جان دارك على المحرقة » لونييجر وأوبرا « فيديليو » لبيتهوفن و « بحيرة البجع » لتشايكوفسكى و « الخليقة » لهايدن و « المسيح » لماندل و « روميو وجولييت » لبرليوز وكوكيتيلات من باخ وفيفالدى وبريتن وفورشاك وروسيني وشوبرت وشتراوس . إلخ . الخ . ثم جملة فرق للرقص الشعبي اليوجوسلافي .

وفي مطار دوبرفنيك تكررت نفس المهزلة التي جرت في مطار بلجراد أكد لي مرافقي في بلجراد أنى بمجرد نزولي من الطائرة في دوبرفنيك سأجد فيها مرافقاً آخر في انتظارى يلازمى خلال المهرجان . ولم أجد أحداً في المطار .

وفكرت في العودة من حيث جئت واكنى ضغطت على نفسى وقررت أن أعتمد على نفسى واو بلغة الإشارة . وبعد أن بلغت المدينة نزلت في فندق بشارع الماريشال تيتو ثم اتجهت إلى مكتب المهرجان . قالت لي إحدى المنظمات معذرة : « لقد انتظرتك ساعتين هذا الصباح في المطار . يبدو أن خطأ ما حدث » . فلم أعاق . وحين خرجت مع مرافقى لأتعرف على المدينة قال المرافق معذراً : « قيل لنا إنك ستصل بطائرة بعد الظهر ولهذا لم أنتظرك في المطار » .

ولم أعلق ، ولكنى تحققت من أن هؤلاء القوم يحلون الأخطاء بالفهولة

بدلاً من المواجهة - شىء مأووف لنا فى مصر - وهو أمر يندر أن تجده فى إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا، حتى بين طبقات أقل استنارة وأقل شأنًا، قلت لمسئول يوجوسلافى : يبدو أنكم لستم خيراً منا فى الفوضى وقلة التنظيم . فأجاب : ربما، ولكنى أعتقد أن هذه الفوضى مقصودة ، ومقصود كل ما صادفت من متاعب وكذلك أوكاندات الدرجة الثانية التى حجزوها لك واختفاء المرافقين أكثر اليوم بحجة المشغولية . لقد كانت تعليمات إدارة المهرجان أن تستقبل كما يستقبل ايفو اندريتش فى مصر . هذه الفوضى رتبها مدير يهودى يوجوسلافى فى العلاقات الثقافية اسمه اوتودينتش للإساءة بين البلدين . لقد فعل نفس الشىء مع الفنان سيف وانلى حين نزل يوجوسلافيا ، وهو يرتب كل شىء من خلال الغير فلا تستطيع أن تؤاخذه شخصياً . حتى عدم ترتيب لقاءات بينك وبين كبار الكتاب مقصود ومدرّوس ، فقد كان كثيرون منهم على بعد خطوتين منك فى بلجراد وفى دوبروفنيك . حتى مستوى المرافقين : كان ينبغى أن يخصصوا لصحبتك أحد الأدباء المعروفين لا مجرد موظفين .

فليكن . هذه إذن دوبروفنيك عروس الأدرياتيكا الثانية بعد فينسيا ، وأجمل بلد فى يوجوسلافيا . وأخذ مرافقى الشاب يشرح لى تاريخ المدينة . قلت : أعرفه . لقد كان اسمها راجوزا أيام اليونان والرومان . قرأت عنها فى كتاب جييون عن « تصدع الإمبراطورية الرومانية وانهارها » فقد زارها الإمبراطور القاسى المتعالى دقلديانوس ، الذى تنازل عن عرشه فى أوج مجده ، ثم حكمها بيزنطة ، وفى العصور الوسطى حكمها البندقية

ثم الحجر ، وأخيراً حكمها الباب العالي حتى ١٨٠٨ حين استولى عليها نابليون وضمها إلى الليريا ، وبعد سقوط نابليون في ١٨١٤ آلت هذه المدينة التاريخية إلى حكم الإمبراطورية النمساوية طوال القرن التاسع عشر وبعض القرن العشرين حتى ولدت جمهورية يوجوسلافيا . وقد كانت دوبروفنيك أو راجوزا القديمة طوال العصور الوسطى « جمهورية » أو مدينة دولة على غرار المدن التجارية الشهيرة في ذلك الزمان كالبنديقية وفلورنسا وفيرارا وفيرونا ، واحتفظت بكيانها الجمهوري سواء في عهود استقلالها أو تبعيتها . ولكن دوبروفنيك كانت أكثر من جمهورية أو دويلة تجارية ، فهي موقع حربي خطير ، أو مجموعة من الحصون والاستحكامات البحرية أقيمت تحت جبل محصن على مساحة لا تتجاوز خمسة كيلومترات مربعة ، والمدينة ذاتها بنيت داخل هذه الاستحكامات والحصون .

وحيث مر دقلديانوس ذو المذابح الكثيرة ، العبد الذي أصبح إمبراطوراً للرومان ونقل عاصمة إمبراطوريتهم إلى المشرق ، وقفت ساهماً أستعرض ما قرأته في جيوبون عن هذه الشخصية الملمغة في تاريخ الرومان وهو الذي روى عنه الرواة أنه استعلى ليهر وأنه كان أول من استحدث في بلاط الرومان فخامة ملاوك الشرق ، فاشتهر بطيالسس الموشاة بالذهب والفضة وبنعاله المرصعة بكريم الجواهر ، وكان المثل بين يديه يزداد مشقة مع الأيام ، بعد أن ملأ بلاطه بالحجاب وبطقوس البروتوكول وملأ شعاب قصره بالحرس الإمبراطوري ومقاصير حريمه بالخصيان

الرابضين كالفهود ، فإن مثل بين يديه واحد من رعيته مهما علا قدره ألزم بالسجود أمام حضرته وكأنه في حضرة إله . ثم ترك دقلديانوس كل ذلك المجد العظيم باختياره واعتزل العرش والملا وهو في التاسعة والخمسين من عمره بعد أن جلس إحدى وعشرين سنة ، فلم يعرف له التاريخ صنوا غير الإمبراطور شرلكان . وكان في معتكفه يتأمل جرائمه العديدة ويردد نادماً أو شبه نادم : « ما أكثر ما يحدث أن يلتقى أربعة أو خمسة وزراء في المصالحة فيتنفقوا على خداع مليكهم ! فلأنه يعيش في عزلة عن البشر بحكم هيئته الرفيعة ، تراهم يخفون عنه الحقيقة ، فهو لا يرى إلا بديونهم ولا يسمع إلا أضاليلهم . ولذا فهو يمنح أسمى الوظائف لأهل الرذيلة والضعف ، وهو ينكل بأشرف رعاياه وأعظمهم استحقاقاً . وهكذا يتردى أكرم الملوكة وأرجحهم عقلاً بسبب فساد بلاطهم وأشعبية حاشيتهم » .

وسألت صاحبي عن زاردوبروفنيك من الأدباء والفنانين في عصرها الحديث ، أى منذ بدأ مهرجانها السنوى في ١٩٥٠ ، فأجهد ذاكرته كثيراً ولم يذكر لى إلا هربرت فون كارايان وباربيروللى وماريو روسى وإيزاك شتيرن ثم كتيبة لا بأس بها من فناني الصف الثانى . أما الفرق الموسيقية العالمية فلم يذكر لى منها إلا أوركسترا برلين السيمفونى وفيهارمونية موسكو . ولم أكن أسأل صاحبي ومنظمى المهرجان هذه الأسئلة اعتباطاً ، فقد لاحظت رغم النشاط الفنى والأدبى الشديد كل ليلة أن مئات الآلاف من الزوار الوافدين من أطراف الأرض المتجولين نهائراً وليلاً في أردية المصطافين

قد أعطوا للمكان شخصية المصيف وطبعوا كل شيء بطابع السياح .
 لقد أحسست في لحظات أن كل هذا « التياترو » المنصوب وسط الآثار
 باسم مهرجان الفنون ليس إلا وسيلة لتنشيط السياحة ، وهو طبعاً
 وسيلة نبيلة لغرض مشروع ، مثل حكاية مهرجان بعلميك ، وتمنيت
 أن يكون للإسكندرية والأقصر ، مثل هذا المهرجان السنوى صيفاً
 وشتاء . غير أن نوعية ضيوف المهرجان والمشاركين فيه يجب أن تعد رأياً فيه
 وحكما عليه من الفنانين والأدباء . بقعة من أجمل ما سوت يد الطبيعة
 كان يمكن أن تكون عكاظ العالم ، ومع ذلك تحولت إلى كان أو نيس
 أوميامي فلوريدا .

وعرضاً عرفت أن حدثاً جليلاً جرى في دوبروفنيك . قالوا لي إن أول
 اجتماع عقده أدباء العالم لمناهضة النازية عقده نادى القلم الدولى فى
 دوبروفنيك عام ١٩٣٤ ، وكان هـ . ج . ويلز بين الأدباء المشتركين .
 قالوها باستخفاف وكأنها لا تعنى شيئاً ، أو كأن النازية التى حصدت
 فى بلادهم مليون قتيل غدت فى أرض تيتو المناضل العظيم شيئاً من
 أشياء الماضى البعيد لم تبق منه حتى الذكريات . وأنا ممن يعتقدون أن
 النازية لم تمت ولن تموت حثيثاً ، لأن لها أرواحاً سبعة وأقنعة سبعة ولذا
 ينبغى أن نضع وروداً لا تدبل على كل شاهد لضحاياها أينما نزلت
 دماؤهم عبرة وادكاراً .

قلت : أليكم سجل أو محاضر أو ثبت من أى نوع كان يدون



هذا الحادث الخطير ؟ قالوا : لا شيء لدينا . قالت : من حضر هذا المؤتمر وماذا قالوا ؟ هل مشى هنا أراجون أو توماس مان أو شباب الأدب الإنجليزي الحديث في الثلاثينيات ، أودن وسبندر وكريستوفر ايشروود ، وكل من زار بصوت راعد في وجه البربرية النازية قبل أن تكون النازية شيئاً مذكور ؟ قالوا لا علم لنا بشيء من هذا . مدينة كان على صدرها وسام شرف عظيم فخلعته وألقت به في سلال المهملات . قلت وأنى لي أن أجمع هذه الوثائق المنسية ؟ قال مرافقي : أستاذي الذي علمني الأدب المقارن في جامعة زغرب ، واسمه هرجيشيتش ، كان حاضراً في المؤتمر وربما أعطاك بعض الخيوط . وطلبنا هرجيشيتش العجوز في زغرب بالتليفون وكأني أكلم شبحاً من وراء القرون . ووعدني الرجل أن يرسل لي على عنواني « بالأهرام » خطاباً بذكرياته عن كل ما كان . ولا زلت أنتظر الخطاب .

وأخذت أتردد كل مساء على حفلات المهرجان ، وكان درساً لي أن أراقب المايسترو اليوجوسلافي الكبير لافروفون باشاشيتش وهو يجري حتى الثانية صباحاً تدريبات أوبرا « فيديليو » لبيتهوفن في حيوية ابن الثلاثين رغم أنه قارب السبعين . وكان بلا جدوى أن أشهد المسرحيات باليوجوسلافية بلحلي باللغة فاكتفيت « بطرطوف » مولير . وأنصت لقراءات بالألمانية من أدب بريخت في الدعوة للسلام قدمتها هيلين فايجل ، أرملة بريخت ، واثنان من ممثلي مسرح « البزليز انسامبل » ، وتواعدت معها على لقاء في برلين ، وركزت على عروض الرقص الفولكلوري

اليوجوسلافي الذي قدمته فرقة « تانتز » . وكنت قد رأيته في نيويورك ثم في القاهرة من بعد فوجدت أنها لم تضاف جديداً .

وحين التقيت بتوماليوف مدير فرقة « تانتز » للارتص الشعبي اليوجوسلافي — وهي تقابل فرقة رضا عندنا — وجدها مناسبة لأن أناقشه في المبادئ التي تقوم عليها حركة الفولكلور في يوجوسلافيا ولا سيما أنه من كبار المنظمين والمستغلين لهذه الحركة في بلاده وخارج بلاده . فقد سبق أن شاهدت عروض فرقة « تانتز » مرتين . مرة في نيويورك سنة ١٩٥٥ أو ١٩٥٦ لا أذكر بالتحديد في قاعة كارنيجي الشهيرة التي كان الأمريكيون لا يعطونها عادة إلا للحفلات « الكلاسيك » ثم تنازوا وأعطوها للمطربة الفرنسية الكبيرة إيديت بياف ثم لفرقة « تانتز » هذه . وكان للفرقة دوى شديد . ثم مرة منذ سنتين في أوبرا القاهرة ، وكان انطباعي واحداً في الحالين : إن هذا اللون من الفن الشعبي سوف يدخل حتماً في طريق مسدود لأنه محدود في تقاليده . محدود في إمكانياته الفنية ، مالم يتم التلاحم الحقيقي بين العبقرية الفردية وروح الجماعة . ولا أستبعد أن بعض الروس يتوهمون أن هذا حدث بالفعل في بلادهم : ولكني بعد أن رأيت عروض فرقة موسييف للرقص الشعبي خرجت بنفس الانطباع ، وتيقنت من أن حركة الرقص الفلكوري في العالم ، أي تحويل التعبير التلقائي الجماعي عن النفس إلى فن موضوعي يعرض على الغير ، لا يزال وليداً يجهو ، وبالذات لأنه وليد يجهو فهو عالي الصراخ والضجيج .

وعرفت من توما ليوف أن الرقص الفولكلوري اليوجوسلافي بدأ
 كحركة استعراضية منظمة في ١٩٤٥ بعد الحرب مباشرة كاتجاه لإحياء
 التاريخ والجغرافيا عند السلافين الجنوبيين ، وخرج منه كوكبيل من
 القومية التي تتمثل في تمجيد الروح السلافية الجنوبية ومن الاشتراكية
 التي تتمثل في تمجيد التعبير الشعبي الجماعي في فن الرقص . وقد كان
 هناك بعض الحتمية في هذه الحركة لأن يوجوسلافيا كما اعترف ليوف بلد
 صغير حديث لا يملك تراثاً كلاسيكياً كبيراً يمكن استلهامه . ولذلك
 كان استلهام الفنون الشعبية هو البديل الطبيعي لا سنلهم التراث . ونظراً
 لتعدد القوميات داخل يوجوسلافيا لم يكن بد من أن تحتفي حركة الرقص
 الشعبي بالرقص الشعبي في مختلف القوميات اليوجوسلافية . وقد كان
 السؤال الطبيعي في هذا المجال : ألا يؤدي التعدد في التعبير الفني الإقليمي
 كتعدد اللغات والثقافات . إلى إيذاء القومية اليوجوسلافية ، لأنه يؤكد
 الفوارق في الثقافة والتعبير الفني بين المتدوليين مثلاً والدرب والكروات
 إلخ . . ولكن توما ليوف أجاب على هذا بقوله : إن الشخصية السلافية
 تجمعنا جميعاً واختلاف الإيقاع لا يضر بل ينفع لأنه يزيد معرفتنا المقدوني
 بالصربي والكرواتي بأبناء البوسنة والهرسك ويزيد احترام هذه الثقافات
 بعضها للبعض الآخر . إنما الضرر في اضطهاد إحدى الثقافات القومية
 غيرها من الثقافات القومية . قامت : المشكلة عندي هي أن الكلاسيكية قد
 تكون مرضاً طبقيّاً والفولكلور قد يكون مرضاً قومياً ، فتمجيد التراث قد
 يقترن أحياناً بتمجيد « الصفوة » القادرة عليه المنتجة والمستهلكة له ،

٣٧

وتمجيد « روح الجماعة » قد يؤدي إلى تقديس الجنس في ذاته وتأليه قدراته الفطرية بنقض النظر عن مستواه الحضارى . واعترف ليوف بذلك ، ولكن حجته كانت أن الكلاسيكية تقتل النقائبة والحساسية الطبيعية وتنتهى بفقدان الشخصية باسم العالمية وباسم الحفاظ على تراث الإنسانية . وهو يعترف حقاً بأن التعبير الشعبي خليط من النبل ومن الانحطاط ومن الحكمة الفطرية ومن الجهالات الفطرية ومن التعبير العميق ومن السفسف والسخافات ، ولكن الأمل عنده هو في العبقرية الفردية عند الكوريوجراف (مصمم الرقص ومبدعه) أو عند الموسيقار الذى يستلهم الوجدان الشعبي ويصنفى تهره من ترابه ويصوغ منه فناً عظيماً ، فسقراط يونانى ولكن ليس كل اليونان سقراطاً . ونهبت توماليوف أنه بهذا الكلام يعود إلى المأزق الذى حاول أن يخرج منه . فإن الاعتماد على عبقرية المبدع الفرد سوف تخرج الفولكاور عن فولكاوريته وتذيب روح الجماعة في روح الفرد وتسعى بنا إلى كلاسيكية جديدة هي في حقيقتها من صنع الصفوة لا من صنع الشعب . واعترف ليوف بذلك ولكنه أجاب : الأمل إذن هو أن يصبح الشعب نفسه موضوعاً لعبقرية المبدع الفرد ، وأن يصبح الشعب بطل هذه الكلاسيكية الجديدة بدلاً من الأبطال الأفراد .

كان كل هذا الكلام كلاماً جميلاً في حدود المناقشة النظرية ، ولكن ملاحظتي عليه في التطبيق هي أنه رغم مرور ٣٥ سنة على هذه الاندفاع نحو تمجيد الرقص الفولكاورى وتحويله إلى فن استهلاكي بعد أن

كان مجرد فن تعبيري ، فإن الرقص الفولكلورى قد تجدد ولم يتجدد
سواء فى يوجوسلافيا أو فى غيرها من البلاد لأن شيئاً ما فى روح الجماعة
قد هزم المبدع الفرد ، فلعبة السيف المقدونية لا تزال بعد ثلاثين عاماً
هى لعبة السيف المقدونية وطقوس الفرح الجماعى فى احتفالات
الحصاد أو فى احتفالات الزواج لم تتغير على المسرح كثيراً رغم مرور
السنين لأنها لم تتغير فى الحياة ، وكل ما حدث هو أن الرقص الفولكلورى
اليوجوسلافى قد غدا سلعة سياحية عظيمة تصدرها يوجوسلافيا إلى عواصم
العالم فى أزيائه الوطنية أو تستقدم العالم لرؤيته فى دوبروفنيك ، وحيث
السياحة يوضع الفن فى خدمة الدولار .

أربعة أيام قضيتها فى دوبروفنيك، أخذت فيها شيئاً من جمال الفن
وشيثاً من جمال الطبيعة ، وعدت أدراجى إلى بلجراد لأتأهب لرحلتى
الروسية .



الفصل الثالث

مأساة يوجوسلافية

وملهاة روسية

حدثني سفيرنا في بلغراد ، يحيى عبد القادر ، قال : « لا تحكم على اليوجوسلافيين بما تراه في بلغراد وحدها ، فأكثر السكان هنا من الصرب ، ولكل قومية يوجوسلافية مستواها الحضارى الذى يميزها عن غيرها ، فأرقى اليوجوسلاف هم أهل سلوفينيا فى الشمال ، ويليههم فى الرقى أهل كرواتيا ويليههم أهل صربيا . . إلخ ، ومن أكثرهم تخلفا أهل البوسنة والهرسك ومقدونيا والجبل الأسود . وربما كان الألبان فى المؤخرة . قاعدة عامة تحكم التقدم والتخلف بين قوميات يوجوسلافيا : المناطق التى حكمتها الإمبراطورية النمساوية أو المجرية هى المناطق المتقدمة ، والمناطق التى حكمتها الإمبراطورية العثمانية هى المناطق المتخلفة ، وكأما كانت التبعية للترك أقوى وأطول كان التخلف أعظم وأوضح » .

وبعد العشاء انصرفت أفكر فى تاريخ هذا الشعب الغريب ، سلاف الجنوب ، الذى فقد استقلاله وسقطت كل معاقله فى يد الترك قبل^١

عام ١٤٠٠ ولم يجمع أشتاته الممزقة ويسترد وحدته إلا منذ ١٩١٨ .
 وكلما استفسرت أو تطلعت في وجوه الناس وتأملت حديثهم وساوكتهم
 تأكدت من معنى واحد وهو أن جذوة الوطنية ظلت متقدة فيهم تحت
 الرماد طوال هذه المأساة التي استغرقت خمسة قرون . وحين جاءني
 ملحمتهم الوطنية واسمها « ماركو » . وهي موال قصصي نظمها شاعر
 مجهول في نحو منتصف القرن الرابع عشر ، وترجمته لى بالإنجليزية الشاعرة
 الكرواتية فيسناكرييوتيتش ، أحسست بروح الشعب اليوجوسلافي
 تتجول حزينة وقوية من وراء القرون ، على لسان المنشد ذي الرابة
 يتجول بين القرى في الجبال والوديان يذكر بني قومه بقصة ضياعهم
 العظيم بعد مجدهم العظيم .

فقد كانت لهم دولة كبرى قبل أن يجيء الترك ، دولة تضم أكثر البلقان ،
 تساليا وابير وس وألبانيا ومقدونيا والصرب والبوسنة . وكان لهم إمبراطور عظيم
 حكيم اسمه دوشان ، كان قيصر زمانه ومشرع عصره وأوانه . فلما توفي
 الملك دوشان لم يكن ولده الأمير الشاب أورش قد بلغ الثامنة عشرة
 بعد . وتنازع إخوته الثلاثة فيمن يخلفه في عرشه ، فطعنوا في نسب الأمير
 الصغير أورش ، وادعى كل الحق لنفسه :

أربع خيام التقت

على سهل كوسوفو الجميل

بجوار كنيسة سانودريا البيضاء :

فى الخيمة الأولى كان الملك فوكاشين
 وفى الخيمة الثانية كان السلطان أوجليشا
 وفى الخيمة الثالثة كان الدوق جويكو
 أما الرابعة فكانت خيمة الأمير الصغير اوروش .
 أربعة ملوك اقتتلوا على المملكة كل يريد الفتك بأخيه
 بنحجر ذهبى يطعنه .

لا يعرفون من صاحب الصولجان .

كان الأمير الصغير يسمع ويتعجب لأنه ولى العهد الشرعى .
 وفى الخفاء أوفد كل رسوله الخاص إلى مدينة بريزرين . حيث يقيم البطريق ،
 ليفتى لهم من منهم صاحب الصولجان . وكان البطريق شيخاً صالحاً عارفاً
 بالأنساب وبكتب القدماء ، وبأغ الرسل الأربعة المدينة فى الصباح .
 ووجدوا البطريق يقيم القداس فى الكنيسة . فلم يترجأوا بل اقتحموا
 بنحيلهم حرم الكنيسة وضربوا البطريق بالسياط وأمرؤه أن يصحبهم
 إلى كوسوفوليحسم الأمر وفقاً لأوصية الملك الراحل دوشان ، وجرت دموع
 البطريق على خديه واستمهلهم حتى يفرغ من واجبه نحو به . وحين
 فرغ من الصلاة تقدم نحوهم قائلاً إنه لم يسأل الملك دوشان وهو
 يناوله الأسرار المقدسة على فراش الموت لمن يكون الملك من
 بعده ، ولكن سأله ماذا كانت ذنوبه ومعاصيه عند الله . وأوفدهم
 البطريق إلى مدينة بريابوب حيث قلعة الأمير البطل ماركو ذى البأس
 العظيم ، تابع الملك الأمين الذى لا يقول إلا الحق ولا يخاف إلا الله ،

رغم أنه ابن أحد الملوك المتنازعين ، وهو الملك فوكاشين ليدعوه إلى كوسوفو فيحسم الأمر بين الملوك الأربعة . ويتجه الرسل الأربعة إلى مدينة بريابوب ويعرفون الأمير ماركو بمسماهم ، وحين يطالع الأمير ماركو أمه الجلييلة بفروسيا على ماجرى وما يجرى تهيب الأم الجلييلة بولدهما قائلة :

أى ماركو ، يا ولد أملك الوحيد !
 إياك أن تجعل جرحى لعنة عليك
 ولكن يا بنى لا تنطق بكلمة ضلال
 لا تستمع لحق الأبوة ولا لحق العمومة
 بل لصوت العدل ، عادل الله رب الحق .
 إياك يا ولدى أن تفقد روحك

فأخبر أن يفقد المرء رأسه من أن يجر على روحه الخطيئة .

ويخرج الأمير ماركو على صهوة جواده إلى كوسوفو حاملا كتاب أنساب الملوك وحين يقترب من الخيام الأربع يراه أبوه الملك فوكاشين ، فيتهلل الأب فرحاً حاسباً أن ولده قد جاء لينحاز له ويسلمه تاج المملكة . ولكن الأمير ماركو يتخطى خيمة أبيه دون أن يلتفت إليه . وحين يمر ماركو على عميه ، يحاول كل منهما إفساد ضميره ، ولكن ماركو يزور عنهما حتى يبلغ خيمة الأمير الصغير أورش ولى العهد ابن الملك الراحل دوشان ويقضى اليوم فى خيمته . وفى اليوم التالى - يوم التحكيم - يجتمع الأمراء والنبلاء والفرسان ويتوجهون للصلاة فى الكنيسة ثم يخرجون المأدبة العظيمة ويشربون البراندى فى انتظار القرار الأخير . ويقف

ماركو بينهم خطيباً وفي يده كتاب الأنساب ، ويؤنب أباه وعميه على جشعهم العظيم ، فلكل منهم ولايته وهو يجمع في ما في يده الغير . ويلقى عليهم لعنته أن تصير ديارهم خراباً يباباً جزاء لحيم على جشعهم ، ويعلن أن التاج تاج الأمير أورش ، بحق النسب المقدس .

وعندما سمع ذلك الملك فوكاشين

دب واقفاً على قدميه

واستل خنجره الذهبى

ليطعن ولده ماركو حتى الموت

وجرى ماركو ليتحاشى أباه

لأنه لا يحق يا رفيقى

أن يقتل ابن مع أبيه

واندفع ماركو إلى الكنيسة وأبوه يطارده شاهراً خنجره . وسمع ماركو نداء من الكنيسة يقول : « ادخل الحرم أيها الأمير ماركو ! لسوف تهلك اليوم ، تهلك بيد أبيك ، تهلك فى سبيل العدل ، عدل رب الحق » وانفتحت أبواب الكنيسة ، ودخل ماركو ، وانغلقت من ورائه الأبواب . وهجم الملك فوكاشين على الباب وطعنه بخنجره ، فإذا دماء انهمرت من الواحه مدراً . وأدرك الأب أنه قتل ولده ، فذهب ينوح فى ندم ، ولكن صوتاً جاءه من الداخل يقول : « اسمع أيها الملك فوكاشين ! أنت ما قتلت ولدك ولكنك قتلت ملاك الله ! »

وهكذا حلت اللعنة على هذه المملكة العظيمة فصارت خراباً يباباً

غزتها جحافل الترك في كل مكان وأشاعت فيها النار والدمار . وفي ١٣٨٩ على سهول كوسوفو سقط زهرة فرسان الصرب ونبلاتها ، سقطوا عن بكرة أبيهم . وفي هذه المعركة الفاصلة سقط أيضاً السلطان مراد الأول ، وكان أورووش آخر ملوك الصرب الذين فقدوا استقلالهم أكثر من خمسة قرون جزاء لهم على انقسامهم وتمزقهم .

وهكذا كانت مأساة أمة محاربة محبة للحرية كما دونتها أشعار الشعراء المجهولين . قصة اختلاط فيها الرمز بالحقيقة والخيال بالتاريخ ، وعبر خمسة قرون غناها الشعراء الجوالون البسطاء على أنغام الربابة فأذكوا بها حب الوطن في قلوب الصربيين . والدرس الذي تعلمه جميع اليوجوسلاف هو أن التفرق لا جزاء له إلا العبودية والضياع والآن ننتقل من المأساة اليوجوسلافية إلى الملهمة الروسية .

* * *

قبل أن أبدأ رحلتي الروسية بأسبوعين أو ثلاثة أبرق الرفيق كوميساروف الملقق الثقافي للسفارة السوفيتية بالقاهرة إلى وزارة الخارجية بموسكو يطلب لي تأشيرة دخول للاتحاد السوفيتي راجيا إرسال الإذن بالتأشيرة إلى السفارة السوفيتية بالقاهرة حتى ١٥ يوليو أو إرساله إلى السفارة السوفيتية بلجراد في الأيام العشرة التالية وفقاً لبرنامج رحلتي .

ولم يرد الإذن بالتأشيرة الروسية حتى تاريخ سفري من القاهرة . وما إن نزلت بلجراد حتى اتصلت بالسفارة السوفيتية هناك لأستفسر

عن التأشيرة فعرفت أنها لم ترد بعد . وتعرفت على الرفيق أنا تولى ستيبانيوك
قنصل روسيا في بلجراد ، فوجدته رجلاً ربعة ذكياً مرححاً متدققاً لبقاً
يشبه في خلقته وفي طباعه الروائي الإنجليزي الكبير لورانس داريل
صاحب « رباعية الإسكندرية » فكأنهما توأمان. وسخا ستيبانيوك
في الترحيب بي وكأنه يرحب بجريدة « الأهرام » نفسها وأعجب ما في
الأمر أنني وجدت نفسي بعد عدة يقيقتين أحادثه وكأنني أعرفه من عشر سنوات ،
واستوقف انتباهي أنه ، رغم عمله في بلجراد ورغم أنه لم يقيم في القاهرة ،
كان يعرف مدير مدرسة خبير . . لم يكن يتحدث عن هرم خوفو أو
متاحف مصر أو نخان الخليل أو الموقف المصري - الإسرائيلي أو أى
شئ . يمكن أن يعرفه المرء من الكتب أو من الصحف الأجنبية ، ولكن
كان يحدثني عن الاتحاد الاشتراكي ، ويدكر أسماء شخصيات في المناصب
العامة وما جرى عليها من تغييرات . قال ستيبانيوك لا شك أن التأشيرة
ستأتي غداً .

ولم تأت التأشيرة غداً . . قال ستيبانيوك : إذن ستأتي غداً بغير شك
سأستعجلها بتأشيرات لوزارة الخارجية . . ولم تأت التأشيرة بعد غد . قلت
لاستيبانيوك : سأسافر إلى دوبروفنيك وسأصل بك من هناك بعد أيام .
وبعد أربعة أيام اتصلت من دوبروفنيك بالسفارة الروسية في بلجراد .
وعرفت من استيبانيوك أن التأشيرة لم تصل بعد . وبدأت أتخوف ، وقررت
أن أقطع إقامتي في دوبروفنيك وأعود فوراً إلى بلجراد لمواجهة الموقف
الجليد . لقد استنفدت زيارتي اليوجوسلافية أغراضها أو أوشكت ،

وبعد ستة أيام أحسست بأنى لن أحصل بسهولة من يوجوسلافيا أكثر كثيراً مما حصلت وأن كل بقاء فيها أطول من الأيام العشرة المقررة سوف يكون مضيعة للوقت .

وفى اليوم السابع اتصلت بالسفارة الروسية من جديد . لا خبر عن التأشيرة .. قلت للقنصل : اسمع يا صديقى الطيب . أنا لم آت إلى أوروبا لأصيف ، وإنما جئت فى عمل « للأهرام » ولمدة شهر فقط . جئت لأجمع مادة لقرائى . وإذا لم أستطع جمعها من روسيا فسأبحث عن هذه المادة فى غيرها من البلاد . إذا لم تحصل التأشيرة غداً صباحاً فسأغير وجهتى وأسافر إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا بدلاً من روسيا . فمن غير المفعول أن أقطع رحلتى أو أن أقول لقرائى بعد شهر : آسف ، أنا لم أر شيئاً فى رحلتى هذه المرة لأنى كنت أنتظر التأشيرة الروسية فى صالون فندق سلافيا .

وبدا الحرج الشديد على أنا تولى ستيبانويك . وعاد يؤكد لى أن التأشيرة ستحصل لا محالة . وأبدى معنى استغرابه من تأخر التأشيرة ثلاثة أسابيع رغم تكرر البرقيات من القاهرة وبلغراد ، وأضاف : لا بد أنهم يعدون العدة لاستقبالك رسمياً فى اتحاد الكتاب وأن هذا سبب التأخير .. قلت : أنا لا أريد أن أستقبل رسمياً فى اتحاد الكتاب . أنا لست مدعوّاً من أحد ولن أنزل ضيفاً على أحد . إن « الأهرام » أعطانى من الدولارات ما يكفى لإقامتى فى موسكو ولننجراد وأعطانى أيضاً تذاكر الطائرة . افترض يا أخى أنى سائح . هل روسيا مفتوحة أو مغلقة فى وجه السياح ؟

٤٧

قال استيبانيوك : مفتوحه طبعاً . لو أنك قات ذلك منذ البداية لأعطيتك التأشيرة في عشر دقائق ، قلت : ولماذا لا تعطيني إياها الآن . قال : يجب أن تحجز غرفة في لوكاندة أولاً . وبعد هذا لن تكون هناك عقبات ، قلت : غدا صباحاً ، إذا لم تصل التأشيرة ، فسأجرى هذه الترتيبات . قال : اتفقنا .

وفي اليوم التالي (الثامن) اتصلت بالسفارة الروسية . لاخبر عن التأشيرة وخرجت لفورى إلى مكتب السياحة اليوجوسلافى المركزى الذى يرتب مثل هذه الأمور . وحجزت غرفة في أحد فنادق الدرجة الأولى . دفعت الدولارات المطلوبة . وأعطونى إيصالاً . سألت : وما اسم الفندق ؟ قالوا لا نعرف بعد : ربما روسيا أو مينسك أو المتروبول أو أوكرايينا أو لننجراد سكايا . عندما تنزل في مطار موسكو تقدم هذا الإيصال إلى مكتب السياحة السوفييتى ، واسمه أنتوريست ، وهذا المكتب هو الذى يجد لك المكان الحالى في الفندق . إنه الهيئة السياحية التابعة للدولة وهو الذى يحدد لكل سائح الفندق الذى سيستقبله بحسب الغرف الشاغرة .

وذهبت فرحاً إلى القنصل الروسى . وقالت : هات التأشيرة . هذا هو الإيصال الذى طلبته وهو يشبه أنى حجزت مكاناً في أحد فنادق موسكو فأخذ استيبانيوك منى الإيصال وأخذ يتمعنه ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب مكتب السياحة اليوجوسلافى المركزى . وبعد مناقشة دامت دقائق لم أفهم منها حرفاً التفت إلى وقال : متأسف ، ولكن لا بد من انتظار الرد من هيئة السياحة بموسكو (الانتوريست) على برقية هيئة السياحة المركزية .

(سنتر وتوريست) ببلاجراد ، ردًّا يفيد أنهم وجدوا لك غرفة خالية في أحد فنادق موسكو . لن تنتظر أكثر من ٢٤ أو ٤٨ ساعة .
 وخرجت آسفًا . وقد عقدت العزم على العدول عن رسالتى الروسية .
 وقصدت إلى هيئة السياحة اليوجوسلافية لألغى الحجز وأسترد دولاراى .
 وكانوا كرامًا . فأخذوا إيصالهم وسلموني الدولارات فى ثلاث دقائق .
 وحين سألتهم كم من الوقت يستغرق الرد عادة على برقيات الحجز ،
 أجابوا : أنت وحظك من ٢٤ ساعة إلى ثلاثة أسابيع .

وخرجت على عجل إلى السفارة الإيطالية فحصلت منها على تأشيرة دخول إيطالية فى خمس دقائق . ثم توجهت إلى السفارة البريطانية ،
 وفى خمس دقائق أخذت التأشيرة البريطانية وقد اسم التوصل البريطانى
 فى بلاجراد أن يستقبلنى ويأخو منى نحو نصف ساعة درسيًا ، وعرفت منه
 أنه كان أحد الضباط الذين نزاوا بور سعيد أيام العدوان الثلاثى فى سنة
 ١٩٥٦ . قال : فى الواقع أنا مدين بحياتى لنائب محافظ بورسعيد ، فقد
 وقعت فى يد الجماهير وكادت أن تفتك بى . ولولا نائب المحافظ
 لكنت الآن فى خبر كان . لكم تمنيت أن أشكره على هذا الصنيع .
 وجرنا هذا إلى الكلام فى السياسة المصرية الإنجليزية وكان يرى أن إنجلترا
 حاولت أن تفعل بعض الخير فى مصر . قالت : نحن المصريين كان
 يسوعنا فى إنجلترا ، وهى بلاد الديمقراطية . أنها كانت دائماً تعرقل نمو
 الديمقراطية المصرية بانحيازها الدائم إلى الملك والباشوات والحكومات
 الدكتاتورية ، بحجة أن الديمقراطية الإنجليزية غير قابلة للتصدير .

قال القنصل البريطاني : هذه سنة الحياة وهذه مسؤولية كل بلدنا شيء تحرر حديثاً . إنه شيء كالأموه . إن المرأة حين تنجب طفلها الأول تجد نفسها في مواجهة هذا الوليد بغير عون ولا تلقين إلا ما توحى به غريزتها وما تتعامله بالممارسة . تجربة شاقة أن يعلم الإنسان نفسه ولكن لا مفر منها . ووجدت نوعاً من الحكمة في ذلك على إطلاقه . ولكني عدت فذكرته بأن الاستعمار كالغول المتربص ليلتهم كل وليد . أجاب القنصل الحكيم : وهذا أيضاً جزء من التجربة . أن تلهم فطرة الأمومة الأم أن تحمي أولادها من الغيلان . ثم عرجت على السفارة الفرنسية وحصلت على التأشيرة الفرنسية في خمس دقائق .

وبعد أن فرغت من جمع التأشيرات الغربية على جواز سفرى قصدت إلى شركة الطيران العربية المتحدة . وأعانى مديرها الاستاذ مصطفى عبد الله على استبدال تذكرة سفرى الروسية إلى روما ولندن وباريس ثم أبرقت إلى الأستاذ هيكل عن طريق ا. ش . الأبلغة بتغيير برنامج رحلتى وأبرقت إلى معارفى فى غرب أوروبا بقدمى . وهكذا انتهى كل شيء فى يوم واحد . انهارت أحلامى الروسية وأنا موزع بين الأسف والامتعاض والتوجس والحزن على فرصة العمر

ولكن بقيت فى ضميمى بعض الألباز التى حرت فى فهمها . فنحن والروس أصدقاء تربطنا اليوم آصرة كفاح عظيم ، ولم أفهم أن يختار الروس هذا الوقت بالذات ليؤجوا تأشيرتى . وكنت أعرف عدداً لا يحصى من زملائى فى القلم ومن رجالات مصر ومن غيرهم يتجولون كل

يوم بين القاهرة وموسكو وكأنهم يتنقلون بين القاهرة والاسكندرية .
فلماذا أنا بالذات يحال بيني وبين هذه التجربة الكبرى . ثم إنى أقرأ
كل يوم أن الاتحاد السوفيتي منذ انقشاع الاستالينية قد فتح حدوده لكل
الزائرين حتى من بلاد أعدائه .

وزاد من حيرتى أنى شخصياً ، ولنتكلم بصراحة ، بغض النظر عن
معتقداتى الشخصية ، لاقيت فى بلادى وفى غير بلادى فى مراحل
عديدة ومتعاقبة ، على امتداد عشرين عاماً ، عنثاً شديداً كلفنى آنا لقمة
عيشى وأنا حريتى وأمنى ، بل وما هو أخطر من هذا غير طريقتى فى
الحياة وحولنى من أستاذ يعيش بين «أطلال» سبنسر ويتجول فى «فردوس»
ميلتون المفقود ويستمع مع شلى إلى زمزمة الرياح الغربية ويسكن عاجى
الأبراج مع فرسان كيتس وسيدة شالوت إلى أديب صحنى يضيع وقته
ووقت قرائه على أشياء علم الله أن أكثرها هباء وزبد يذهب جفاء .
كل هذا حدث لى لاعتقاد الكثيرين أنى شيوعى خطير وهو شرف لى
أدعيه وتهمه لا أنكرها . ولا شك أن الروس كغيرهم قد سمعوا بذلك .
ولم يبق أمامى إلا أن أتصور أن لى ملفاً سيئاً عند هؤلاء القوم جعلهم
يترددون طويلاً أمام اسمى لا يعرفون أيتسمون أم يتجهون .

وعلى كل فقد بقى اللغز عندى بغير حل ، ولا يزال . وكان مصدر
راحة لى أن أستعرض تجاربى وتجارب الغير المسلية وغير المسلية مع حفاظ
الحدود فى كل بلاد العالم . ذكرت ماحدث لصديقى الدكتور على الجريتلى
حين نزل مطار نيويورك لأول مرة عام ١٩٤٦ فى طريقه إلى مؤتمر

بريتون وودز ، فقد استوقفه ضابط الجوازات وسأله هذا السؤال الغريب :
« هل جئت إلى أمريكا لاغتيال رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ؟ »
(وكانوا قبل ذلك بشهرين قد عثروا على قنبلة في البيت الأبيض دسها
شاب من كوستاريكا) . وذكرت ما قاله لى ضابط الجوازات في ميناء
نيويورك عندما وطئت أرض أمريكا لأول مرة عام ١٩٥١ في طريقى
إلى جامعة بريستون ، قال وهو يتفحص جواز سفرى « عملك محاضر في
جامعة القاهرة . هل جئت لتحاضر في الشيوعية بجامعة برنستون ؟ »
دعابات ثقيلة أكرم منها المنع الشامل ، فلاحير أن يرد الضيف كريماً
من أن يلقاك رب الدار في جهامة واسترابة .

ثم حدثت مفاجأة . في الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ،
فوجئت بدق شديد متوالى الضربات على باب غرفتى بفندق سلافيا ،
فهرعت وكنت لا أزال فى بيجامتى ، إلى الباب لأعرف من الطارق
وما الخبر . وإذا بى وجهها لوجه أمام قنصل روسيا فى بلجراد . وصاح
أنا تولى ستيمانيوك عبر الباب قائلاً فى بشر عظيم : « يادكتور عوض .
لقد وصلت تأشيرتك » . قلت : أولاً تفضل ثم قل لى ما الخبر . ودخل
استيمانيوك الحجرة قائلاً : « ناولنى جواز سفرك . جاءتنا من موسكو
أمس مساء برقية تقول إن اتحاد الكتاب فى انتظارك . هات الباسبور
لأعطيك الفيزا ثم اتبعنى إلى السفارة . » قلت فى ارتباك : « ولكنى غيرت
كل شىء ، غيرت التذاكر وحصلت أمس على التأشيرات لروما ولندن
وباريس . . بل وأبرقت لرئيس تحرير الأهرام بأنى غيرت نخط سيرى

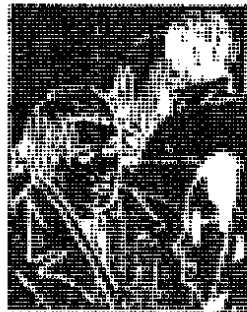
وفتح الباب القنصلى وأدخاني ثم أغلقه. وجالست أمامه أرقبه وهو يتم — إن هذا غير ممكن، فلنترك رحلتى الروسية إلى فرصة أخرى» قال وقد بدا عليه حزن شديد: «لا. لا. سوف يحزنون فى اتحاد الكتاب إذا لم تزر الاتحاد السوفييتى. إنهم أعدوا كل شىء لكى تزور ما تريد، لا بد أنها كانت غلطة من موظف صغير فى وزارة الخارجية أو فى اتحاد الكتاب أهمل البرقيات أو لم يقدر من تكون. إننى أعتذر بحرارة.»

وكان استيبانوك طبعاً يعتذر «للأهرام» لالى. فهو صديق قديم ويعرف معنى «الأهرام» ولعلنا عندما التقينا لم يكن سمع باسمى، ولكن صفتى كمحرر أدبى لجريدة «الأهرام» كانت مصداقاً لادوارتها كاتبة السابقة. وكان لا بد من اتخاذ قرار فوري. وحسبها بسرعة البرق: إن رفضى دخول الاتحاد السوفييتى بعد أن جاءتني التأشيرة سوف يؤول على أنه موقف، وأنا جئت لأتعلم لا لأتخذ مواقف. ثم إنى لست وحدى فى هذا، فهناك أيضاً جريدتى.

وسلمته جواز سفرى فى استسلام. وهرول به إلى السفارة الروسية التى كانت على مسيرة خمس دقائق. وفى دقيقتين كنت فى بدلتى. وفى لحظة صهيانية أصيبت برعب شديد على جواز سفرى أن يحدث له شىء، فأنت خارج بلادك بلا جواز سفر رجل فقد دليل وجوده. وبلغت للسفارة فوجدتها لا تزال مغلقة. لقد كانت الساعة السابعة والربع. ودرت حول السور فرأيت من خلال زجاج النافذة صاحبى أنا تولى ستيبانوك مكتباً على مكتبه. ونقرت له زجاج النافذة، فرأنى ونهض

٥٣

الاجراءات مع زملائه وصوت الآلة الكاتبة يدق عنيفاً أعنف من التيكروز
وسألني أين تريد أن تذهب ؟ قلت : موسكو ولننجراد . فقط ؟
نعم ، فقط . وكتبت الآلة : موسكو ولننجراد . كم تحب أن تبقى
قلت : أسبوعين . قال : فقط ؟ نعم ، فقط . هذا قليل . خذ شهراً .
وكتبت الآلة شهراً . ثم بعض التوقيعات وبعض الأختام ، وانتهى كل شيء .
ولم يتركني أنا تولى : اتصل أولاً بشركة الطيران الروسية وحجز لي مكاناً
في طائرة الغد ثم قال : هيا إلى شركة الطيران العربية المتحدة نبدل تذكر
السفر . وكانت هذه أشق مرحلة في الموضوع . بالأمس فقط أزعجتهم
لتغيير تذكرى إلى الغرب وهأنذا أزعجتهم اليوم من جديد لتغييرها
إلى الشرق . وفي الشركة شرحت لهم الموضوع . وأدرك الرجل الذكى
مصطفى عبد الله دقة الموقف فأولى الأمر عنايته الشخصية . ولم يتركني
أنا تولى استيبانيوك إلا وأنا على جناح الطائرة الروسى الميمون ، وكأنى وديعة
يخاف أن تضيق فى الطريق .
ولم أنس قبل سئرى أن أبرق لجريدى بالعدول عن العدول .



الفصل الرابع

موسكو

مدينة القباب والأخلاق الناضجة

عندما نزلت مطار موسكو كانت منوياتي مرتفعة إلى درجة النمام، كنت أولاً فرحاً بتحقيق حلمي الكبير . وهو زيارة الاتحاد السوفيتي . وكانت تجربتي اليوجوسلافية المرهقة ثانياً قد أعدتني نفسياً لقبول أى شيء يأتيني به القدر بصدور واسع . وكان اليوم عصر السبت ، وهو يقابل عصر الخميس عندنا ، أى بداية عطلة نهاية الأسبوع ، ولم أكن أعرف إن كان اتحاد الكتاب السوفيت قد تسلم برقية القفص الروسي في بلجراد ؟ وعد وصول أم لا . ولم يعد يخيفني ألا أجد من ينتظرنى في مطار أو أن أجد نفسى وسط قوم أكلهم بمفرادت عالمية تكملها لغة الإشارة . بعد عشرة أيام من الإقامة بين سلاف الجنوب كنت على تمام الأهبة لمواجهة سلاف الشمال .

وفي مطار موسكو ركبت تاكسى . وقلت : « هوتيل » . ونزلت في فندق مينسكى . لا مكان .. وبحثت لى الموظفة عن مكان في الفنادق الأخرى .. لا مكان في فندق روسيا . لا مكان في متروبول .

لا مكان في أوكرانيا . لا مكان في الناشيونال . قلت ضاحكاً :
يبدو أني سأنام في الشارع . قالت السيدة ضاحكة : هذا ممنوع في
الاتحاد السوفيتي . قلت ضاحكاً : إذن سأقام في قسم البوليس . قالت :
لا أظن أننا سنتركك تنام في قسم البوليس . واختفت دقيقتين ثم عادت
وقالت : حجرتك رقمها ١٠١٥ ، وسيقرضك الفندق ٢٥ روبل لتجاسب
التاكسي حتى تبدل دولاراتك غداً من البنك . وحمل السائق الصبور
أمتعتي داخل الفندق وهو لا يكف عن الابتسام ، وكأنه شريك
في هذه اللعبة المسلية .

وهكذا تجاوزنا الأزمة بالابتسام . وكان كل شيء في موسكو
يشع بالدفع ، دفع القلوب ، من المطار إلى حجرتي . من موظف
الجمرك إلى عامل المصعد . فمن لم يبتسم لك بشفتيه ابتسم بعينه . ولم
أضيع وقتاً . استبدلت ملابسى ونزلت أتجول في شارع جوركي ، وسرت
أتمسك من ميدان مايا كوفسكى إلى ميدان بوشكين ومن ميدان بوشكين
إلى الميدان الأحمر وقبابه الذهبية في ظلال الكرملين . وشارع جوركي
الفسيح مشرق بالنهار حتى بعد الغروب . وذهبت أتمتع تماثيل موسكو
العظيمة الواقفة في قوة وشموخ من قوة الإنسان وشموخه ، لا تأله فيها ولا
تعظم كذلك الواقف هادمه في السحاب في ميدان الطرف الأغر بلندن ،
ولا صقل ولا جمال ولا واقعية كتلك الواقفة في متناول الكف في
ميادين مدينة النور ، وإنما اعتزاز من عزة الإنسان الذى يحمل على
كاهليه عبء مصير الإنسان . وعلى تمثال بوشكين قرأت

أشعاره على قاعدته تقول :

« لسوف يسمعون بي في كل أركان روسيا العظيمة ولسوف يلهج كل لسان :

أنا سليل السلاف الطموح سليل الفين والتونج المتبربرين حتى الآن
سليل الكالميك ، أصحاب السهوب » .

« ولسوف يخبنى قوى طويلا لأن قيثارتي هزت جميل المشاعر ،
ولأني أنشدت للحرية الأناشيد في زمي العاني ، وناديت بالرحمة
على المقهورين » .

فأجد أن بوشكين قال شيئاً أكثر من قول المتنبي : « إذا قلت
شعراً أصبح الدهر منشداً » وأكثر مما قال هوارس في قصيدته الشهيرة :
« لقد بنيت أثراً أكثر شموخاً من الهرم . . إلخ » لأن بوشكين لم يذكر
نفسه فحسب وإنما ذكر حرية الأحرار وشقاء العبيد .

ثم أعود القهقري من ميدان بوشكين إلى ميدان ما يا كوفسكى
فأقرأ شعره يقول على قاعدة تمثاله :

« وأغنى أوطنى وجمهورية ، فغنأى لربيع الإنسانية يولد من الكدح
والقتال » .

فأقول هذه رؤيا شاعر عاصر صراع البلاشفة العظيم وحلم بالعالم
الجديد الموعود يخرج من العالم القديم الشقي كما تخرج تباشير الربيع
من أحشاء الشتاء الحزين . والشوارع كلها فسيحة جداً كأنك في
روما منتظمة تماماً ، كأنك في نيويورك كلها عمارات رازحة شهباء بنوافذها

الصغيرة الكثيرة وكأنها ألواح حجرية جسيمة مقلمة تملأ وجه السماء ،
 فللمدينة طابع خاص وشخصية خاصة ، والمدينة حديثة التخطيط
 رغم أن عمرها من العصور الوسطى . ولا مكان فيها للفيل أو للبيت
 الصغير لأنه لا مكان فيها لفرد مستقل عن الجماعة يبنى لنفسه بيتاً
 مستقلاً عن الجماعة . وكنت من قبل أتوهم موسكو في خيالي مدينة
 قاسية عابسة مظلمة كلها قباب كقباب الكرملين تراكت عليها الغيوم
 الثقيلة المطيرة السوداء ، فإذا هي مدينة عصرية سمحة ودود تحب
 الزائرين وتعطيهم ما عندها بقلب سخى . قالوا تلك صورة موسكو ،
 بقيت لك مما قرأت من روايات دوستويفسكى أو نوادر عن إيمان الرهيب .
 أما موسكو الجديدة فهي بنت المجتمع الاشتراكى . وأحببت هذه المدينة
 منذ اليوم الأول رغم أنها لم تكن « جميلة » كروما أو باريس .

ثم بدأت أستكشف أشياء عن مدينتى . عضنى الجوع نحو العاشرة
 مساء فخرجت أبحث عن زاد فوجدت الشوارع مقنرة أو شبه مقنرة .
 قالوا لى فى الفندق إذا لم تسرع فسوف تنام على الطوى ، لأن كل
 المطاعم تظنى أنوارها وتغلق أبوابها فى الحادية عشرة . قلت : ألا تسهرون
 فى موسكو ؟ فضحكوا ضحكة فيها تغامز وقالوا : كل السياح يسألون
 هذا السؤال . تقصد هل لدينا كاباريهات ؟ عندنا نكتة تقول : استوقف
 سائح رجلاً من موسكو وسأله : أين أقرب كاباريه ، فأجابه الرجل :
 فى هلسنكى . (وهلسنكى هذه عاصمة فنلندا !) ها ! ها ! ولكن هيا
 عجل . ستجد مطعماً قرب الميدان الأحمر . ومشيت نحو ربع ساعة

لا عمل لى إلا قراءة اللافتات التى لم أفهم منها شيئاً ، لأنها مكتوبة بالأبجدية السيريلية وليس بالأبجدية اللاتينية . وأخيراً قرأت لافتة تقول : ПЕТОПАН (الروس ينطقونها « رستوان » ويكتبونها « بكتوباه » بأبجديتهم) . وصعدت فى عمارة جسيمة وفى القاعة العظيمة وجدت نحو خمسمائة طاعم يأكلون ومغنية تغنى على نغمات أوركسترا رقصات أمريكية كلها شبيهة بالتويست ، وما هى بالتويست ، والراقصون كلهم من الروس ، كانت المغنية « تجود » التويست الأمريكى بمقاطع أوبرالية ثم تعود إلى الإيقاع السريع المنتظم ! وكان لهذا وقع غريب فى نفسى أحسست بأن الروس يريدون أن ينفنحوا للجاز الغربى ، ولكن منهج حياتهم الاجتماعية وبيئتهم النفسية الخاصة وربما طول عزلتهم لا تمكنهم من التعبير عن مشاعرهم باغة الجاز .

وهكذا اكتشفت منذ ليلتى الأولى فى موسكو أن حياة الليل لا وجود لها فى موسكو ، وقس على ذلك بقية مدن الاتحاد السوفيتى . وليس فى موسكو كلها إلا بار واحد صغير بجوار الميدان الأحمر أعد للأمريكان وأضرابهم من السياح ، يسهر حتى الخامسة صباحاً ، وليس فيه طعام ولا موسيقى وإنما فيه الشراب حتى الصباح ولا تقبل فيه عملة إلا الدولار ، وهذا يضمّنون عام تردد الروس عليه . ولعلها مجاملة من الحكومة الروسية لرجال الأعمال الأجانب الذين اعتادوا فى بلادهم السهر خارج بيوتهم . أما الروس فيشربون فى بيوتهم ، ويندر أن ترى روسياً خارج داره بعد منتصف الليل ، فإذا رأى روسى يترنح من الشراب فى الطريق العام اعتبروا

عمله هذا مجلبة للعار على المجتمع الشيوعي . وفضحه . وذكروا لي أن أستاذاً في جامعة موسكو ضبط في حالة سكر بين ، فبعد إجراء اللازم نحوه في قسم البوليس (الدوش وغسيل الأمعاء) . التقطوا صورته وعلقوها في الأوتوبيسات بأمر الحزب لينعظ الكافة بنفسيته . وفي موسكو الأوتوبيسات بلا كسارية ، وكل راكب يقطع تذكرته بنفسه بعد الركوب ، فإن ضبطوا راكباً بالسفلة صوروه وعلقوا صورته في كل وسائل المواصلات وعلى الجدران . وهكذا يفعاون مع كل الجرائم الصغيرة التي لا يعاقب عليها القانون ، أو الانحرافات الخلقية التي ينفع فيها الردع الاجتماعي ولا تدخل تحت طائلة قانون العقوبات . كطالب يسرق أشياء زملائه أو عامل يهمل في عمله وغير ذلك ، ومعنى هذا أن الحزب يقوم بدور « المطوعين » ، بطريقة أقل إيذاء لشخص الإنسان ، ولكن أكثر خدشاً لكرامته . وهذا عندهم وسيلة ناجحة لتربية « الضمير » الاجتماعي ، وفي الغرب يسمون هذا « الخوف » الاجتماعي ولا يعلقون في الأماكن العامة إلا صور عتاة المجرمين المطاوب التبخس عليهم . وسواء سميت هذا تربية للضمير أو تربية للخوف فقد رأيت النتيجة ملموسة خلال أسبوعين من إقامتي في أكبر مدينتين في الاتحاد السوفييتي : موسكو ولنينجراد . كل الناس تقريباً في بيوتهم قبل منتصف الليل . لا سكارى في الطرقات العام إلا ما ندر . كل الناس كسارية نفسها في وسائل النقل الخ .

وأنا من المدرسة التي لا ترادف الضمير بالخوف ، بل أعتقد أن الضمير لا يصبح ضميراً حقيقياً إلا إذا صنف من كل شائبة من شوائب

الخوف كحال القادر على الظالم ثم لا يظلم أو القادر على السرقة أو الزنا أو أى خطأ كان ثم لا يسرق ولا يزنى ولا يخطئ . أما الإرهاب الخلقى فلا يشمر الضمير وإنما يشمر العقد النفسية وقد جربه البيوريتان وجماعات الميثوديست فى الغرب من غلاة التطهر الدينى ، فكان القس حين يجتمع برعيته فى الكنيسة يوم الأحد يزأر وسط المصلين : « وأنت يامسز كذا ماذا كنت تفعلين فى حديقة جارك فلان بعد منتصف الليل » فترجف المرأة المسكينة تحت النظرات النارية المسددة إليها من كل جانب وتنهأ وتنتحب وتعرف بذنبها أو « تنقد ذاتها » كما يقولون بلغة اليوم . ومع ذلك فقد انتابنى إحساس واضح بأن هذا ليس بالضبط ما يجرى فى الاتحاد السوفييتى . انتابنى الإحساس بأنى أقيم فى مجتمع « باتريستى » أو « أبوى » كبير لا يقوم على إرهاب السلطة للشعب ، ولكن يقوم على علاقة تشبه وصاية الأب أو الأم على الأبناء القصر

فكما تقول الأم اولدها : الساعة الآن التاسعة ، اشرب لبنك ونم فينصاع الولد لنصائحها بشعور غير شعور الخوف من الزجر أو بشعور مضاف إلى شعور الخوف من الزجر ، ودو شعور مزيج من الحب والولاء والثقة فى حكمة الأم وحرصها عليه ، وكما يقول الأب لابنه : لا تذهب هذا المساء إلى السينما أو إياك أن تعاكس بنت الجيران فينصاع الابن لأوصاياه ، كذلك أحسست بأن استجابة الناس لتوجيهات أولى الأمر منهم شبيهة بطاعة البنين للآباء ، أساسها ليس مجرد الخوف من التأديب ولكن عواطف عديدة مركبة مضافة إلى ذلك . وربما كان

هذا مصدر خطأ الغرب في فهم منابع السلوك الاجتماعي الروسي والطريقة الروسية في التماسك الاجتماعي والسياسي بل ومنهج الروس في التفكير الاجتماعي . فالغرب يعزو كل ما يراه من طاعة وانصياع وتماثل أو « كونهورية » في الفكر الروسي والسلوك الروسي إلى مجرد عامل الخوف من السلطة ، والأرجح عندي أن الشعور بأبوة السلطة هو الأساس الأقوى ، حتى في عهد الإرهاب الاستاليني . ومن الآباء من يربط أولاده في عمود السرير ولا يتركهم إلا بعد أن تتحطم العصا على ظهورهم بدافع الأبوة وبقصد التنشئة الصالحة .

والذي هداني إلى هذا التفكير هو ما لا حظته في مناقشاتي مع عشرات من الروس الذين التقيت بهم ، من أنه لا أثر للتعزيم الأخلاقي بالمعنى الفكتوري أو البيوريتاني عندهم ، ولا أثر لتأصيل الفضيلة في الدين ، فالماركسية قد جعلتهم علمانيين مائة في المائة وصفقتهم من الإيمان بالغيبات التقليدية . فاستقامتهم إذن ليس منبعها نوازع الدين أو أوامره أو نواهيه ، وهم قد تخففوا في نظرهم للجنس أو الشهوات عامة من فكرة « المحرمات » أو فكرة « الخطيئة » التي تغرسها المسيحية وكل أديان التوحيد في نفوس المؤمنين . والماركسية ذاتها ليس فيها مجموعة من القوانين الأخلاقية يمكن أن تحل محل الأخلاق الدينية . فالذي ظهر محل الأخلاق الدينية في روسيا بعد « الهوجة » الشيوعية الأولى هو لا ئمة غير مكتوبة بالحقوق والواجبات الاجتماعية التي ترسبت في وجدان الروس فاتخذت قوة القوانين الأخلاقية . وقد كان لستالين رغم

عيوبه الكثيرة فضل كبير في إقامة مجتمعه على الأخلاق الجديدة ،
وأساسها تقديس العمل وتقديس الوطن وتقديس المجتمع .

ولم أجد أحداً يتماثل من نظام « بيتك . . بيتك » قبل الساعة
العاشرة . بل على العكس من ذلك كنت أجد دفاعاً منطقيّاً هادئاً
من كل من حدثهم في هذا الموضوع . والمنطق بسيط وواضح :
من يسهر في الليل يترأخى في النهار . ونحن نريد أن نكون مجتمعاً منتجاً ،
ولذا فنحن لا نسهر في الليل . كان هذا الكلام يقال لى فأجده
مقنعاً وغير مقنع ، وكنت أجده يذكر بنصائح الآباء للأبناء . ولكنى
كنت أتساءل : وما بال شعوب الغرب تسهر في الليل وتعمل في النهار ؟
بيكاديلى ومونمارتر شعلة من ضياء في الثانية صباحاً ورغم ذلك لا
أحسب الإنجليز أو الفرنسيين أقل إنتاجاً من الروس . ووجدت تفسيراً
آخر : حياة الليل معناها حياة المتعة ، وحياة المتعة مهما كانت بريئة
معناها الإنفاق عن سعة . وفتح عيون الناس على المتعة يدفعهم إلى البحث
عن الدخول الواسع بالمشروع وبغير المشروع أو يدفعهم إلى القلق والسخط
إذا لم يجدوا إليه سبيلاً . فليغلق إذن هذا الباب بإلغاء حياة الليل . وهذه
هى الفضائل الاقتصادية . ليس فيها جديد ، فهى الفضائل الممارسة
في كل أسرة من الأسر البورجوازية الصغيرة التى تندد بكل متعة تبدد
دخل الأسرة المتقشفة على الاستهلاك بدل الاستثمار . وقد كانت هذه
هى الفضائل اللازمة للشعب الروسى الجاهل الفقير المستعبد تحت
القيصرية اللاهية السفيهة لكى يتحول إلى شعب متعلم يعيش حياة مستورة

محررة من ذل الفقراء وخنوع الجياع .

وكان على أن أواجه يومى التالى (الأحد) فى موسكو وحيداً قبل أن أتمكن من الاتصال باتحاد الكتاب فى يوم الاثنين ليرسلوا إلى مترجماً أو مرافقاً، وما أدراك ما يوم الأحد فى بلاد لا تعرف لغتها ولا أسماء معالمها . وتنبأت بأحد مقفر ضائع أقضيه وحدى فى غرفتى لا أرى شيئاً ، فإن خرجت فلهخطوات حتى لا أتوه . ولكن حظى كان خيراً مما توقعت .

دق جرس تليفونى وبدأ هذا الحوار الغريب . امرأة تقول بالروسية أى كلام، افترضاً « خراشوخراشو خراشو » . وأجبت بالفرنسية أنا كذا واسمى كذا وصفى كذا . أتفهمين الفرنسية ؟ .. أجابت بفرنسية متعثرة : « قليلا . . أنا أسأل عن صديقتى . سونيا » قلت : « آسف ياسيدتى لا بد أنها رحلت قبل مجيئى » ، قالت : « خسارة . كنا اتفقنا مع صديقتى لوس أن نخرج بالأطفال للجنائن » . ثم ضحكت . قلت : « آسف ياسيدتى ، ولكن صاحبته غير موجودة » ثم لمع فى عقلى خاطر عملى غريب . مادامت هناك سيدة تريد أن تتسكع يوم الأحد فلماذا لا تتسكع معى فى المتاحف بدلا من الجنائن . قلت : « اسمعى . مادمت تريدين النزهة فأنا غريب هنا وأريد أن أزور المتاحف ولا أجد من يساعدنى على لغتكم . فهل تستطيعين مساعدتى ؟ » وضحكت ضحكة طويلة كأنما كلامى دغدغها . قالت : « توريست ؟ » (أى سائح) ؟ ولم أجد داعياً لتفسير الأمور فقلت : « نعم سائح مصرى » وعادت إلى ضحكاتها فقد كان الموقف مسلياً . قالت : « كم عمرك ؟ » قلت : « ٥٦ » . قالت :

« هل أنت أبيض أو أسود ؟ » وبدأت أتوجس . قلت : « متوسط » .
 قالت : « هل أنت طويل أو قصير ؟ » وضحكنا معاً . وقلت :
 « متوسط » قالت : « آتى مع صديقتى لوس والأطفال » . قلت :
 « عظيم . متى ؟ » أجابت : « الساعة الواحدة . أنا إسمى أوبلجا » .
 قلت : « تعالى فى الواحدة واطلبنى من صالون الحوتيل بالتليفون
 أنزل فوراً » . قالت : « كلا ، سننتظر خارج اللوكاندة » قلت :
 « كما تريدن . ولكنى لا أعرف شكلك » فضحكت وقالت ، « أنا
 ألبس بلوزة زرقاء . وستعرفن بالأطفال » قلت : « اتفقنا » . وانتهت هذه
 المكالمة الغريبة . وخف إلى صباح الأحد الكاتب رومانسييف الموظف
 باتحاد الكتاب . قصصت عليه قصة أوبلجا وحديثها التليفونى . فضحك
 وقال : « بداية لا بأس بها . » ويبدو أن ذهنه انصرف إلى أشياء أخرى
 وهو معذور فى ذلك . قلت : « هيا بنا ننتظر خارج الفندق فالساعة
 الآن الواحدة إلا دقيقتين » .

وخرجنا ووجدنا سيدتين متوسطتين فى الجمال فى نحو الخامسة
 والثلاثين . ومعهم ثلاث بنات بين السابعة والعاشرة وعرفت أوبلجا من
 بلوزتها الزرقاء . . وتعارفنا فى لحظة .

ودعوت الجميع للغداء معى فى مطعم فندق منسك ، قبل أن نبدأ
 التجوال . وعرفت أن أوبلجا مهندسة بناء سفن وأن صاحبها خبيرة اقتصاد
 وكان حديثنا بثلاث لغات : مع رومانسييف بالإنجليزية ومع السيدتين
 بالفرنسية . وكانت تتخلله مناقشات طويلة باللغة الروسية بين أوبلجا



ورومانسييف . ثم لا حظت الارتباك على وجه أولجا فسألت رومانسييف :
« عم تتحدثان ؟ » قال : « كانت تعتذر لى عن تعارفكما الغريب بأنها
حين عرفت أنك سائح غريب ظنت أنها تقدم خدمة وطنية بمساعدتك » .
وضحكت فى استياء لأنى لم أستسغ هذا النوع من الكلام . ولا أعرف
إن كان رومانسييف قد أخرجها بقلة ذوق فعاتبها على هذا الأسلوب
فى التعارف بالغرباء أم أنها أحست بالخرج من وجوده فذهبت تعتذر
من تلقاء نفسها بعد أن أدركت صفتى وعرفت أنه مندوب اتحاد الكتاب .
والأمريسيان فى الحالين ، وهو وضع امرأة تخجل من سوء تصرفها وتقدم
تفسيراً عنه للغرباء ، وكأنها مسئولة أدام رومانسييف ، وكأنه ممثل المجتمع
ويشير إليها بأصبع الاتهام رغم أنه لا تربطها به حتى أوهى الروابط .
ثم هذا التبحر فى « خدمة الوطن » كأنما مجرد الاستطلاع الإنسانى
العادى الذى يدفع الناس للتعرف بالناس أو البر بالغرباء فى حد ذاته
جريمة . لو أن هذا جرى فى إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا لما اجتراً أحد على
التطفل على السواك الشخصى لأحد ، ولما أحس أحد بأن فى مثل هذا
الموقف ما يستوجب الاعتذار .

وأنا أذكر هذا الحادث التافه لأبين مبلغ سطوة « الضمير »
الاجتماعى فى روسيا السوفيتية . كل يتصرف وكأن ألف عين تراقبه
حتى فى أخص خصوصياته . أقول الضمير الاجتماعى لا الضمير الأخلاقى ،
فحيث لا تزم ولا إحساس بالخطيئة نحن خارج نطاق الأخلاق .
أذكره لأبين للناس أن المجتمع الروسى السوفيتى مجتمع فضيلة ومكارم

أخلاق على عكس ما كان يشيع عنه أعداؤه المضالون .
وصحبتني أوبلنا ومجموعتها إلى متحف قصر الأمير يوسف وبوف خارج
موسكو وسط غابة أرخانجلسكويا .

دخلت متحفاً صغيراً ثم غابة كبيرة تباع بنحو عشرين فداناً . وقبل
أن أدخل المتحف وجدت نفسي ألبس فوق حذائي كبتية الداخين
أنخافاً من كاوتشوك . فأحسست برهبة المصلي يخلع نعله قبل الصلاة .
وكان المقصود حماية باركيه القصر من آلاف بل ملايين الأقدام .
وربما منع التزييق والكركمة ليتأمل الناس في صمت وجلال . ووجدت
نفسى بين كنوز من أروع نفائس أوربا في التصوير والنحت ومن كل
مدارس الفن ، جميعها هذا الأمير الخطير الذى اشتهر اسمه فى التاريخ بأنه
قاتل راسبوتين الجبار . كان يوسف وبوف من أوسع أرسنة قراطين روسيا
ثراء أيام القيصرية وكانت له ضياع لا حصر لها : خمسة قصور أوسنة
مبثوثة فى أرجاء روسيا ، فاستولى عليها البلاشفة ، وحوالها إلى متاحف ومرافق
عامة : نهب الفلاحين ليجمع كنوز الفن على تقاليد الأرسنة قراطية
الأصيلة فظلم بلاده وخدمها فى آن واحد .

ولم أروا لحا بعد ذلك المساء . قلت : غدا يتسلمنى اتحاد الكتاب .
شكراً من القلب ووداعاً .

أربعة عشر يوماً قضيتها فى روسيا بين موسكو وليننجراد وبعض
الريف . لم أرفىها متعطلاً متمسكهاً أو شحاذاً أو رجلاً أو امرأة فى
أسمال أو بغياً تنساب بين مصابيح الشارع . ولا شك أن هناك نماذج

من هؤلاء وأولئك ولكنها نادرة لا تراها إلا العين المترصدة ولم أر إلا مخموراً واحداً رغم شهرة الروس في قربة الفودكا . أربعة عشر يوماً قضيتها في روسيا ونظمت فيها مئات المواعيد للقاءات وتحركات فلم يحدث قط أن اختلت المواعيد ولو دقيقة واحدة . يقوون في الثامنة أو العاشرة فيتم المطلوب في الثامنة أو العاشرة . ولم أر إلا (ميني جيب) واحدة ولم أر شاباً واحداً من طراز الهمبيز . ولم أر رجلاً واحداً أنيقاً أو امرأة واحدة أنيقة ، ولكنى رأيت ملايين الناس ، حتى الخدم وأفقر الفقراء في ملابس سورية نظيفة وسط لا رثاءة فيها ولا هندام .



الفصل الخامس

رحلة في عقل ساشاسخاروف

جاءني رجل وقال بالفرنسية : « اسمي تشيزنوكوف من اتحاد الكتاب القسم الإفريقي ، جئت في الموعد المحدد لأصطحبك إلى الاتحاد لتلتقي بالمسؤولين وترسم معهم برنامج زيارتك للاتحاد السوفيتي . لقد كنت المترجم المعين لمرافقة الدكتور محمد مندور منذ أكثر من عشر سنوات . كنت أحب أن أكون مرافقك ولكنهم عينوا لك مرافقاً آخر . ومع ذلك فربما جئت لمساعدتك في بعض المراحل . سيخصصون لك سيارة لانتقالاتك أو ما يقوم مقامها » .

وكان ذكر الدكتور 'مندور' كافياً لإزالة الحواجز بيني وبينه . وفي الطريق طفقنا نتبادل الذكريات عن الدكتور مندور ، ونخيل إلى أن تشيزنوكوف خير من يكتب فصلاً اسمه « محمد مندور في الاتحاد السوفيتي » تنشره مجلة « الشرق » التي رأس تحريرها زمنا وفاء لذكراه ثم اكتشفت أن تشيزنوكوف يعرف كل أدبائنا الذين زاروا الاتحاد السوفيتي معرفة شخصية وقرأت في عينيه المداعبتين أن له آراء فيهم وإن لم يفصح لي بشيء منها .

وبلغنا اتحاد الكتاب . قال : هذا القصر كان قصر الكونت سولوجوب فصادرت الدولة في ثورة ١٩١٧ . أتذكر شخصية الكونت روستوف في « الحرب والسلام » لتولستوى ؟ قلت : نعم ؟ قال : سولوجوب هو النموذج الحى الذى بنى عليه تولستوى شخصية الكونت روستوف . نحن لن نذهب إلى القصر ولكن إلى هذا الجناح . وأشار إلى مبنى قسئ يشبه جزءاً من كلية الفنون التطبيقية عندنا إلى اليسار : « هنا إدارة العلاقات الثقافية الخارجية . ستقابل رئيسها الرفيق كوسور وكوف ، والرفيق تكاتشيف رئيس القسم الأفروأسيوى فيها . هذا المبنى كان اسطبلات القصر » .

وسألت تشيز نو كوف : « هل المستشفة يالينا ستيفانوفا تعمل معكم ؟ أنا أحب أن أقابلها فقد تعرفت بها في القاهرة وأحب أن أراها » . قال : « لا أظن أنك تستطيع أن تراها . فأمرها مريضة في المستشفى وهى تلامزها ثم إنها في أجازة . وقفزت إلى ذاكرتى كلمات كنت قد سمعتها في القاهرة منذ سنة ، إن ستيفانوفا مغضوب عليها من اتحاد الكتاب . وتأملت كلمات تشيز نو كوف فوجدتها غير مقنعة فكلنا لنا أقارب في المستشفيات ولكننا لا نلازمهم ٢٤ ساعة في اليوم .. أعدت في إصرار : « أرجو أن أراها ، فأنا في حياتى النقيت بعشرات المستشرقين . ولكنى لم أجد منهم من يتقن لغتنا الدارجة بلهجتها غير يالينا ستيفانوفا وصديقى الإنجليزى دنيس جونسون ديفيز ، وصديقى الهولندى يان بروخمان الأستاذ بجامعة لايدن » . قال : سنرى .

والتقيت بالمسؤولين في اتحاد الكتاب وتداولنا في برنامج زيارتى

وكانت المشكلة أننا في عز الصيف وأكثر الكتاب خارج موسكو .
هكذا قالوا . طلبت مقابلة الشاعر يوفتيشنكو والشاعرة بيالا أحمدو ليينا
وغيرهما فقاوا هم جميعاً في المصايف أو الأرياف . قلت : مستحيل
أن تقتصر زيارتي على مقابلة المباني والآثار والأحجار . أنا أريد أن
ألتقي بالبشر . قالوا : هل لك اهتمامات خاصة ؟ قلت . أريد أن أدرس
حالة المسرح الرومى . وبالذات من الناحية التنظيمية كذلك أريد
أن ألتقي ببعض خبراء التعليم لأعرف شيئاً عن التعليم في بلادكم ، وأن
ألتقي ببعض الشبان : وبعض المهتمين بالدراسات الشرقية . قالوا :
سنرتب لك لقاء مع بعض أساتذة معهد الماركسية اللينينية ومع بعض الشبان
من محررى مجلة « يوناست » (الشباب) ومع الرفيق جروموف المختص
في المسرح . ونقترح أيضاً أن تزور عزبة تولستوى في ياسنيا بوليانا
قبل سفرك إلى ليننجراد ، وأن تحاضرنا في اتحاد الكتاب عن الأدب
المصرى الحديث . . قلت : كل هذا جميل ولكن . . أين الأدباء ؟
قالوا : سنحاول . وأحسست أن زيارتي ستكون على غير ما كنت
أرجو .

وتذكرت ياينا ستيفانوف ، وطلبت مقابلتها ، فأعادوا على نفس
الكلام الذى سمعته من تشيزوكوف . وانتابنى شيء من الضيق . قلت :
« لست أفهم ، هل المريضة في المستشفى أمها أم هى ؟ » . قالت بطريقة
تعنى : أننا نقرأ عنكم أنكم تضعون بعض الأدباء المغضوب عليهم في
المستشفيات على طريقة الروائيين دانييل وسنيافسكى . وأضفت : « أنا

أفهم أن تقول هي إنها لا تستطيع مقابلي أما أن يقول هذا غيرها فغير مفهوم . أعطوني رقم تليفونها » . ولم تحدث كلماتي أى أثر فقد كانت الوجوه كالأقنعة . وكرروا في هدوء نفس العبارات الأولى ، ونسوا رقم التليفون .

وقبل أن أنصرف عرفوني بشاب ضئيل الجسم طولا وعرضاً ممتقع الوجه خال من الوسامة في الثانية والعشرين من عمره ، وقالوا : هذا ساشا . ساشا سخاروف ، سيكون مترجمك أثناء إقامتك ، وهو يعرف الإنجليزية قلت : تشرفنا وشكراً ، وخرجت أتوكأ على مرافقي .

فيما بعد عرفت أن «ساشا» هو اسم التديل الروسي لاسم الكساندر وان « سخاروف » معناها « السكرى » أو أى شيء متصل بالسكر . وبعد ذلك اكتشفت أن ساشا هذا من أثمن الأشياء التي عرفتها في الاتحاد السوفييتي ، فقد كان فتي شديد الذكاء يفهم ما يلقي إليه من كلام مهما كان مغلفاً . وكان يتقن الإنجليزية إتقان مختص قليل الأخطاء رغم أنه كان في السنة النهائية بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة موسكو ، وكان يعرف عن الأدب ما يكفي ، ثم اختار أن يتخصص في فرع من اللغويات الإنجليزية حديث جدا غايته تركيز اللغة في بوثقة بحيث تصلح لتغذية العقول الأليكترونية بالمعلومات . وكان يعرف الكثير عن بلاده وعن العالم الخارجى ويتمتع بدرجة عالية من الفضول العقلى ومن ملكة النقد والتحليل . وكان تحت مظهره الهادىء يحمل شحنة عاطفية ضخمة نجح في اخفائها تحت سطح من الدعابة والتظاهر بالاستخفاف ، كما نجح

في إخفاء إرادته الحديدية وقدرته على تحمل الشقاء بنفس المنهج .
ومنذ تعارفنا في اليوم الأول سرى بيننا سيال كهربائي غريب كذلك
السيال الذي يسرى بين الآباء والأبناء ، وتمهيت أن يكون لي ولد مثله
فأنا أعيش من غير ولد وكأني أوليس يبحث عن تليماك . عرفت منه
مصادفة أنه ابن زنا ، لا ترتعب ، ففي الاتحاد السوفييتي تفقد هذه العبارة
مدلولها البشع عندنا . ولم يكن هناك أى أثر من آثار الحجل الاجتماعي
في كلامه .

قلت : كيف أتيح لك أن تتقن الإنجليزية المثقفة على هذا الوجه .
هل هذا مستواكم في الجامعة ؟ قال ببساطة : أمى التى ربنتى بمفردها
كانت مدرسة لغة إنجليزية وقد علمتنى الإنجليزية منذ أن كنت صبيئاً ،
لقد ماتت في العام الماضى وأنا أحياناً أفقدها . قالها ساهماً ففهمت أن
أغواره تقول : وأنا أفقدها طول الوقت ، ثم أضاف : لقد كانت امرأة
مجاهدة مثابرة . وحسبت أنى بإزاء قصة كلاسيكية لولد نشأ يتيماً ، فسألته
هل مات أبوك وأنت صغير ؟ أجاب : كلا . أبى لا يزال حيئاً .
وهو متزوج وله أولاد . قلت : طلاق ؟ عفواً ، أنا لا أريد أن أتطفل ..
أجاب بهدوء : لا . أبى ترك أمى ، وهى حامل بى . أراد أن يتزوجها بعد أن
حملت ولكنها طردته . كانت تحبه ولكنها أحست أنه لم يكن يحبها ،
ولهذا رفضت أن تتزوج لمجرد استيفاء الشكل أو من باب قبول الاحسان ،
ثم تعيش بعد ذلك معذبة مع زوج لا يحبها . وتذكرت أنى التقيت منذ
ثلاثين عاماً بامرأة أخرى من هذا الطراز هى شخصية استر ووترز في

رواية جورج مور التي تحمل هذا الاسم . فقد فعلت إستر بصاحبها المتلاف وليم عين ما فعلته أم ساشا بالرفيق سخاروف ، ولكن استر كانت من البيوريتان ، من الأخوات البلموس ، ونحن هنا في عالم الاشتراكية العلمية . يالنا من القلب الإنساني ومن الشخصية الإنسانية ! هذه آلام ساشا الدفينة التي كان يخفيها تحت دعاياته العقلية المادئة . وكان مفتاح شخصيته الانطوائية : أى شىء إلا أن يظهر ضعفك أمام الناس . ومادمننا في موسكو فلنبدأ ببداية كل الأشياء : بناء على طامبي بدأنا البرنامج بزيارة ضريح لينين في سفح قصر الكرملين . جاءنى ساشا في الثامنة وأفطرنا معاً ثم ركبنا إلى الميدان الأحمر . وكان أمامنا طابور من البشر أزواجاً أزواجاً طوله نحو كياومتر (أحياناً يبلغ الطابور ثلاثة كياومترات) والطابور يتحرك في ببطء بطيء كأنما يسير في موكب جنازى . وأبرز ساشا أوراقاً للحراس عند مدخل الميدان الأحمر فتركونا ندخل متجاوزين دورنا في الطابور ومن باب اللياقة اندمجنا في الطابور مرة أخرى على مبعده مائتى متر من الضريح حتى لا نمتن هذا الرائد المسجى فنؤم مثواه كما يؤم السياح برج إيفيل . وكان واضحاً أن آلاف الحجاج وأغلبهم من الروس ، يأتون من أطراف الاتحاد السوفييتى ليؤدوا فريضة الذكرى لهذا الرجل العظيم . وكان على الوجوه خشوع . حتى بلغنا مدخل الضريح برخامه الأسود والأحمر ونفذنا بين الحارسين المتواجهمين في المدخل كأنهما تمثالان للهنديين من الشمع لا يحتاج لهما رمش ولا يتحرك لإنسان عين . . ونزلنا الدرج فقادنا إلى ممر تحت الأرض

غير عميق ، ثم أفضى بنا الممر إلى المرقد الأكبر حيث تابوت من زجاج
 رقد في داخله جثمان فلاديمير ايليتش لينين المحنط في كامل ثيابه وقد
 أضواء محياه نور خفي دائم ، فبدأ على غير ما تبدو دوماواتنا السوداء ،
 أبيض لا معاً دُشرباً بالحمرة بأحماض غير أحماض الفراعنة ، وعلى شفتيه
 ابتسامة الغبطة تحس ولا تحس ، وطوفنا بالجثمان مرة واحدة حتى قادنا
 الطواف إلى دهليز مقابل انتهى بنا إلى الدرج الذي أفضى بنا إلى الحلاء
 من جديد عند سفح الكرماين حيث وجدنا أنفسنا نمر بين مائة قبر
 كلها رخام أسود وكلها على مستوى سطح الأرض يخفها عشب دائم الخضرة
 وكلها منقوشة بأسماء زعماء الثورة البلشفية . وفي المقدمة نحو عشرة تماثيل
 نصفية لزعماء وقواد لا يكفي لتخليدهم رخام القبور ميزت بينهم كالينين .
 وفوروشياوف وفيشنسكى وستاين وجاجارين . وبعاول جدار الكرماين
 مائة لوحة رخامية مثبتة نقشت عليها أسماء أبطال الثورة البلشفية ومن
 وراء هذه الألواح وضع رماد أجسادهم . وقرأت بينهم اسم كروبسكايا
 زوجة لينين . وكانت هذه كعبة الشيوعيين .

وأنا لا أعرف إن كان الروس يصابون أم لا يصابون ، ولكن الجو
 الدينى قد نشر على المكان غلالة من الرهبوت . وآلاف الحجيج يأتون
 كل صباح إلى مقام لينين وكأنه دزار ولى عظيم من أولياء الله الصالحين
 في بلاد الكاثوليك أو المسلمين أو أقباط مرقس الرسول . ولا تحس بأن
 الدولة تهيء أحداً للزار ولا تحس بأن الحزب يجيش الجماعات لأداء
 الطقوس ، ولا تحس بأن ناظر مدرسة كذا الثانوية يقود أبنائه في رحلة

استطلاع أو لتقديم الفروض . إنما كل من هناك ساع بتقديمه وباختياره مستجيب لنداء داخلي كالهاتف الديني ، وتميز بينهم الفلاحين الذين نزلوا المدينة لأول مرة ، كما نفعل نحن بالسيدة زينب وسيدنا الحسين . لقد انتصرت الميتافيزيقا في أرض اللامتافيزيقا ، ولم أجد لهذه الظاهرة تفسيراً إلا أن الشعب الروسي الذي اشتهر بعبادة قديسيه قد حافظ على العبادة وغير أسماء القديسين . وفي الشوارع والميادين والعمائر العامة والخاصة صور لينين بكل حجم وبغير عدد ، أيقونات عصرية ماثلة في كل مكان . إن للماركسية ملامح « الدين » الجديد . ومع ذلك فقد أكبرت هذا الشعب الوفي لذكرى منتشله من قاع الجحيم — هكذا استقر في روع الروس من أبسط البسطاء إلى أعقد المثقفين أن لينين هو أبوهم جسداً وروحاً . وكانت هناك فتاة تكفكف دمعها كمن فقد أباه الليلة البارحة . فما أعظم الولاء لذكرى مصلح عظيم .

وكنت كلما ناقشت ساشا في موضوع ، ذكر لي آية من لينين . نتكلم عن الاستعمار والصهيونية أو عن الحرب والسلام أو عن الكولوز والسوفخوز أو عن الحب أو عن التكنولوجيا أو عن التعليم أو عن المساكن أو عن القانون أو عن الملوخية أو عن المهلبية فيبدأ ساشا كلامه بقوله : « لينين قال . . . » وأحياناً يذكر ماركس ، فالحقيقة الكبرى في الاتحاد السوفيتي هي لينين قبل ماركس ، أو قل لينين للشعب وماركس للمثقفين ، رغم أنهم رسمياً يعترفون في كل مكان بأن ماركس هو مؤسس الشيوعية العظيم ، ومقابل كل صورة رأيها لكارل ماركس رأيت عشرة

للينين . أما انجاز فنادرًا ما ورد ذكره أمامي . ولم يكن ساشا وحده في ذلك ، فقد كان كل من قابلت يتحدث على هذا النحو ويعنعن في كلامه عن ماركس وعن لينين ، وكنت أقبل هذا من الآخرين لأنى كنت أناقشهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثا في اليوم ، أما من ساشا الذى كان يلزمنى كظلى ، فبعد فترة أصبحت أجده هذه الطريقة مستفزة ، وبعد أربعة أيام لم أعد أحتمل فقلت لساشا : « ساشا يا بنى . اسمع جيداً . أنا قرأت كل ماركس وكل انجاز ونصف لينين قبل أن تولد أنت بعشر سنوات . وأنا الآن لا أناقش لينين ولكن أناقش ساشا ساخاروف . أنت طبعاً تريد أن تقنعنى لا أن تثبت لى أنك تلميذ نجيب أجاد حفظ دروسه الماركسية ، فإذا أردت أن تتبنى رأيا للينين فهذا من حقلك . ولكن أرجو أن تعبر عنه بلغتك الخاصة وأن تنسبه لنفسك وكأنك صاحبه لأنك مقتنع به . صدقنى أن نسبة أى رأى للينين لن يزيده عندى قوة أكثر من نسبته لساشا لأنى أناقش ساشا ولا أناقش لينين » . ثم أردت إيلايه قليلا حتى لا ينسى فى المستقبل ، وكنت طبعاً أعرف أن تفكيره مصفى من الغيبيات بسبب إيمانه بالمادية الجدلية . قلت : « أنا لا أعرف كيف أصور لك وقع كلامك فى نفس سامعك . أنت طبعاً غير مؤمن بالمسيحية ، وهذا من حقلك ، فتصور أنك تناقش رجلاً مؤمناً بها إيمانك بالماركسية ، وكالما جادلته فى شىء أجابك : قال بطرس الرسول أو قال بولس الرسول : هى مقدسات عنده ولكنها لا تعنى شيئاً بالنسبة لك . فماذا يكون وقع كلامه فى نفسك ؟ ألا ترى أنكم بهذه الطريقة تحولون الماركسية إلى دين ؟ إذا

أردت أن تناقش ، فناقش بالمنطق وفي حدود الواقع المعروف . «
وأحس ساشا بالحجل ولم يعد بعد ذلك إلى العنينة .

وكان ساشا يجيئني كل يوم في الثامنة صباحاً ولا يتركني حتى يطمئن إلى أني دخلت سريري نحو العاشرة مساء . ولا أظن أنه كان مكافئاً بذلك من اتحاد الكتاب ، فيوم العمل عندهم سبع ساعات . ولكن يبدو أنه انجذب نحوي بقوة كما انجذبت نحوه بقوة ، فأصبح لا يستغني عن صحبتي كما أصبحت لا أستغني عن صحبته . وكنت أحياناً أحب أن أخاويلي نفسي وأن أسترد حريتي وأول لساعات قليلة فلا أستطيع التخليص منه دون جرح لشعوره . وكنت أحياناً أتميز غيظاً وأكاد أحس أنه معين لرصد تحركاتي ومعرفة كل مقابلاتي وقراءة كل أفكارى . وكان الفتى حساساً يشعر بالخرج من هذه الملائمة فيتطوع بقوله : « إذا أردت أن تنفرد بنفسك انصرفت وعدت إليك غدا » ؛ ولكنه كان يقولها بطريقة تعني : « أرجوك ألا تأمرني بالانصراف لأنني أحب البقاء معك » . فأجيب صادقاً : « لا . ابق معي ياساشا . فإذا أفعل بحريتي مادمت لا أفهم لغة بلادكم ؟ أنت على الأقل تمثل صلتى بالعالم الخارجى ، ثم إن صحبتك ممتعة ونافعة جداً » . لقد أصبحت كالطفل ، أخاف أن أتترك وحدي .

ثم قلت لساشا : الوقت يمضى ، وبعد خمسة أيام نساfer إلى ليننجراد أرجو أن تباغ اتحاد الكتاب شيئين . أولاً أني مهتم اهتماماً خاصاً بمقابلة

يلينا ستيفانوفنا، وأنى أصر على مقابلة عدد من الأدباء الروس قبل عودتي إلى مصر . أنا لا أريد أن أخرجهم فأطاب مقابلة الروائي سوليجنيتسين الذى سمعت أن إقامته محددة فى بيته الريفى ولا مقابلة دانييل وسنيافسكى وهما فى « المستشفى » كما يقوآن ، ولكن اعطهم هذه القائمة غير يفتوشنكو وبيللا أحمد واينا ونجيبين الذين يقابلون كل الناس : أريد أن أقابل أندريا فوتسنسكى ودرنجوى بكلانوف وجريباتشوف وكوتشيتوف وكو جيفنيكوف ثم طبعاً صديقى الطيب سوفروفوف رئيس تحرير مجلة « أوجانيوك » . إن أكثر هؤلاء من الأدباء المحافظين المتشدين مع « الخط » ولا أظن أن هناك ضيراً فى ترتيب لقاءات معهم .

وكنت أسمع عن حال الأدب الروسى الراهن أنها حال لا تسر وأتبع ما يجرى فى مجلاتهم الأدبية من تقلبات ، فربما كانت الصراعات داخل المجلات الأدبية السوفييتية هى المؤثر الحقيقى لا اتجاهات الأدب الروسى الحديث . وقد كانت مجلة « نووى مير » Nowe Meer « العالم الجديد » ، التى صدرت قبيل الحرب العالمية الثانية هى محور الحياة الثقافية فى الاتحاد السوفيتى ، وكانت أكثر تقدسية وفتحاً وإيماناً برسالة الثقافة من كل المجلات الأدبية الأخرى . وكان يتبادل رئاسة تحريرها الروائي الكبير كونستنتين سيمونوف Simonov والشاعر الكبير تفاردوفسكى Twardowski ، وهو شاعر محافظ ملتهب الوطنية ملتزم بالخط الماركسى الحزبى ، اشتهر قبل الحرب وعمره الآن نحو الستين ، وقد حارب فى الجبهة وله قصائد مأثورة فى الوطنية كتبها أيام الحرب ، ورواية

اسمها فاسيلي توركين » تصف أمجاد جندي روسي بطل بهذا الاسم ، وهو متفان في تمجيد الروح الروسية . وكانوا كما غضبوا على تفاردوفسكى أسندوا رئاسة تحرير « نووى مير » إلى سيمونوف .

وفي السنتين الأخيرتين بدأت مجلة « نووى مير » تواجه متاعب حقيقية فاتهمت بالانحراف ولا سيما فيما تنشر من مقالات تحاييلية خاصة بتقييم التاريخ ، كما اتهمت بالانحراف لأنها دأبت على نشر القصص المتشائمة ، وقد غضبوا عليه . وحين أقول غضبوا عليه أقصد غضب عليه القسم الثقافي داخل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي ، وطلبوا إليه الاستقالة لكنه رفض وطلب إليهم أن يقيأوه إذا شاءوا ، فلبجئوا إلى ترتيب جديد أكرهه الشاعر الكبير تفاردوفسكى على الاستقالة . وهو تغيير مجلس تحرير مجلة « نووى مير » مع إبقائه رئيساً للتحرير احتراماً لمقامه . ولما لم تجد اعتراضاته قدم استقالته ، ومنحوه وساماً رفيعاً من باب التكريم الأدبي ، وهو الآن يعيش معتكفاً في بيته الريفى مركزاً على الرف . وقد سمعت أنه رجل مغرور يعتبر نفسه الأب الروحى للمثقفين اليساريين الروس .

أما مجلة « الاتحاد السوفيتى » فرئيس تحريرها هو الشاعر جريباتشوف Gribatchov وهو رجل متزمت جامد التفكير يسير على الخط الشيوعى التقليدى الأورثوذكسى الذى لا مجال فيه للاجتهادات الجديدة ، ويقال عنه إنه فى داخل الإطار الشيوعى يمينى متطرف متمسك بالمبادئ الأولى على حرفيتها ، وإنه سفاح أدبى يضرب أصحاب الأفكار الجديدة بقسوة

لا ترحم ، ولكنه رغم جموده يتمتع بسمعة الكاتب الشريف الخالى من الانتهازية .

أما مجلة « زناميا » (الراية) فهي مجلة معتدلة اتجاهها . وسط بين المحافظين والمجدين من الشيوعيين الروس . ورئيس تحريرها هو كوجيفنيكوف Kozevnikov وقد تخصصت هذه المجلة فى نشر قصص الحرب وأدبها بصفة عامة ، وقد تعود الروائى الكبير كونستانتين سيمونوف أن ينشر فيها رواياته .

وأخيراً فهناك مجلة « أكتوبر » التى يرأس تحريرها الروائى كوتشيتوف Kotchetov الذى اشتهر بروايته السياسية التى يندد فيها بالمتقنين الروس ويصورهم فى صورة المعادين للسلطة السوفيتية الموالين للغرب . وعنده أن الشيوعى الروسى المخلص هو « العامل » الذى يرفض الثقافة الغربية . وقد أصدر كوتشيتوف هذا منذ شهر رواية اسمها « عاوز إيه بقى ؟ » يهاجم فيها مجلة « نوى مير » والمثقفين اليساريين فى روسيا ، وبطل هذه الرواية رسم على نموذج الشيوعى الإيطالى فيتوريو سترادا الذى تعلم فى الاتحاد السوفيتى وتزوج من روسية ثم أقام فى روما . ولكنه انحرف بالأفكار الجديدة المشبعة بالتعاطف مع الغرب . أما زوجته الروسية الصميمة فراها فى هذه الرواية نادمة على زواجها من أجنبى . ونراها تحب رجلاً روسياً كان يزور روما وتستنجد به لإنقاذها من الجحيم الذى تعيش فيه . فالزوج المثالى عند هذا الروائى هو الرجل الروسى وكوتشيتوف مثل جربياتشوف متخصصان فى تأليب السلطة على المثقفين .

فهناك إذن صراع ساغر بين المحافظين والمجددين ، أو ما يسمونه اليمين واليسار ، في المجتمع السوفييتي ، وقد اتخذ هذا الصراع تعبيراً عنه في طلب السلطة داخل الحزب الشيوعي من ناحية وفي الأدب والفكر من ناحية أخرى . وجوهر هذا الصراع ، كما استطعت أن أذهمه ذو : إلى أى مدى يجوز أو لا يجوز للحضارة السوفيتية أن تتفتح للحضارة الغرب ؟ . المحافظون ينادون بصراع الأضداد وبمزيد من مركزية السلطة والمجددون ينادون بفتح النوافذ والانفتاح لمزيد من الحريات الليبرالية . وقد كان آخر جريح كبير في هذه المعركة منذ باسترناك صاحب الدكتور « جيفاجو » هو الروائي المعروف سوبلخنيستن Solgenitsen الذى نشر في مجلة « نوى مير » أيام خروشوف وبأدر خاص منه روايته الشهيرة « يوم واحد من حياة إيفان دنيسوفيتش » . وهى تصور قصة فلاح روسى فى معتقلات سيبيريا أيام الحكم الاستالينى . وقد صرح خروشوف بنشرها لإدانتها لعهد ستالين ، وقبل مؤلفها عضواً فى الاتحاد الكتاب ، ثم أُرْدِف سوبلخنيستن هذه الرواية بروايتين أخريين تدخلان فى باب الأدب السرى لأن نشرهما محظور فى الاتحاد السوفييتى : الأولى هى « مستشفى السرطان » ، وهى رواية رمزية تصور الحياة فى جناح السرطان بأحد المستشفيات تصورياً لتجربة شخصية لمجموعة من المثقفين احتجزت فى هذا الجناح لاشتباه إصابتهم بهذا المرض الخبيث . ولكن الرمز فيها شفاف يشير إلى أن حياة الفكر فى الاتحاد السوفييتى تجلب شبهة الإصابة بالسرطان ، وحيث السرطان يكون الاستئصال . أما الرواية الثانية فعنوانها « فى الدائرة الأولى »

٨٣

وهي مصممة على غرار « جعيم » دانتى حيث طبقات الجعيم مصورة في صورة الدوائر . والدائرة الأولى عند سوبلخنيستن ليست حياة السجون والمعتقلات في الاتحاد السوفييتى ولكن حياة العلماء وأهل التكنولوجيا الذين يقبلهم الاتحاد السوفييتى للاستفادة منهم . وقد نشرت هذه الرواية بالإنجليزية والفرنسية وغيرهما من لغات أوروبا ومنع نشرها في روسيا وطرد مؤلفها من اتحاد الكتاب ، وبعد أزمة تشيكوسلوفاكيا فاضود في حذف أجزاء منها لنشرها بالروسية ولكنه رفض . وهو يعيش الآن فيما يقال محدد الإقامة في الريف أو ما يشبه ذلك .

كل هذه المعاونات جمعتها من روسيا نفسها وليس من صحافة الغرب التي أقرأ فيها الكثير ، رغم أن ساشا العزيز لم يكن يتركنى إلا سواد الليل . وانتهت أيام العشرة في موسكو دون أن ألتقى بشاعر أو ناثر . بيسين أو يسار . فيما خلا صاحبنا الطيب أناولى سوفروف رئيس تحرير مجلة « أوجانيوك » ، الذى سمعت أن له سطوة كبيرة غير رسمية في اتحاد الكتاب من خلال نفوذه السياسى في اللجنة المركزية . كما سمعت أنه من أهل الميمنة الذين لا يتركون كل الزدور تفتح . أرجو ألا أكون قد ظلمت أحداً بسرد ما سمعت من طرف واحد ، ولكن ما حيلتى إذا كان اتحاد الكتاب لم يتح لى لقاء أحد ينير لى شعاب الطريق .

لقد كانت مهمتى الشاقة هى : كيف لا تصبح رحلتى الروسية

مجرد رحلة فى عقل ساشا سخاروف .

الباب الثاني

رحلتى الأمريكية

الفصل السادس

أمريكا

كيف تراها ولا تراها

منذ جملة شهور ، تلقيت دعوة من جماعة عربية في أمريكا ، للمشاركة في أعمال مؤتمرها السنوى الرابع ، المنعقد بمدينة بوسطن بين ٢٩ و ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧١ ، بقراءة ورقة بالإنجليزية في موضوع « إمكانيات الحوار في المجتمع العربى المعاصر » . وكانت الجماعة تسمى نفسها : « اتحاد الحريجين العرب الأمريكيين » . أو « الأمريكيين العرب » على الأصح . . فأدركت أنها جماعة من جماعات المهاجرين أو المغتربين العرب . . ولم يكن لقاء المهاجرين أو المغتربين العرب في أمريكا جديداً علىّ ، فقد عرفت منهم عشرات وعشرات في أثناء إقامتى في أمريكا منذ سنوات مديدة . فقبلت الدعوة شاكراً ، لأنها هيأت لى فرصة زيارة أمريكا بعد خمس عشرة سنة كاملة . أى منذ استقالتى من الأمم المتحدة عام ١٩٥٦ .

وكنت قبل سنوى أمنى نفسى بشيئين : أحدهما أن أدرس آخر تطورات الفنون والآداب فى غرب أوربا ، وفى أمريكا بصفة خاصة

وأن تتاح لى دراسة حركات الشباب « على الطبيعة » فى أمريكا ، وهى أكبر مركز للرفض والاحتجاج اللذين اتسمت بهما حركات الشباب فى العالم . . كنت أتمنى أن أدرس مجتمعات الهيبيز عن كتب ، لا دراسة كتب ، ولكن دراسة تجربة .

بل لقد ذهب خيالى إلى أبعد من هذا ، فقد كان ولا يزال رأى الثابت أننا لن نستطيع أن نرى بصيصاً من القرن الحادى والعشرين الذى نستشرفه إلا إذا استكشفنا حقيقة ما يجرى فى عقول شباب العالم وما يجرى فى قلوبهم اليوم . فالهيبيز ليسوا مجرد حاققة مانسون وقتلة شارون تيت أو متعاطى المخدرات الهائمين بشعورهم الطويلة وملابسهم المرقعة فى فردوس أو جحيم من الفوضى الجنسية ، ولكنهم أيضاً اليسار الحديد المتظاهر بمئات الآلاف ضد حرب فيتنام والتمييز العنصرى . وربما أيضاً كانت بينهم أنماط ثلاثة ورابعة لا تحفل بالجنس والمخدرات ولا تحفل بالقضايا السياسية الصارخة ، وإنما تبحث عن خلاصها فى صمت وهدوء لعلها تكتشف حياتها وللحياة الاجتماعية مغزى مقنعاً ، وقد كان يسيراً على مثلى أن ألتقى ببعض هؤلاء الشباب فى عواصم العالم المختلفة لقاء « الانترفيو » الصحفى ، أطرح عليهم الأسئلة وأستمع لإجاباتهم ، فأخرج بفكرة عن فاسفتهم ومعتقداتهم ومنايع قلقهم وآمالهم فى الحياة . ولكن هذا الأسلوب فى نظرى هو أسوأ سبيل إلى التعرف على الحقيقة ، كما أنه ينطوى على خدش لكرامة الإنسان فيهم ، أن تنظر إلى الإنسان نظرك إلى قرد أو دب أو ببر فى حديقة الحيوان تتأمله فى تعال وانفصال

تام وكأنه « ظاهرة » أو تتجسس على دخیلة نفسه تجسس العدو أو الفضولی . لهذا كنت آمل أن تتیح لی الظروف أن أعتكف فی مستعمرة من مستعمرات المیز فی أمريكا وأن أخالطهم أسبوعاً أو أسبوعین مخالطة الإنسان للإنسان عسى أن أفهم بالمشاركة شيئاً عن هذه الدراما العظيمة التي تتخلق درجة درجة فی نهايات القرن العشرين ، واعدة بخیر عمیم أو بشر مستطیر لما سیأتی بعدنا من أجيال .

ولكن أحلامی كلها طارت بعد أن وطئت قدماى أرض باريس فی طریقى إلى أمريكا . فقد اعتكفت نحو أسبوعین فی فندقى بباريس بین أسقام المرض والإكباب على بحث كنت أكتبه بالإنجليزية « لمجلة اليونسكو التاريخية » بناء على طلب اليونسكو عن « غايات القومية العربية وبواعثها » . ولم يخفف عنى أسقام المرض والبحث لإعطاء سخی من قلب زمیل الشاب مصطفى إبراهيم مصطفى ، الذى كان قبل عامین ناقد الأهرام الفنى ثم تركنا لیتم علومه فی باريس ، فقد ترك كتبه وفراشه فی المدينة الجامعية ولا زمنی فی بنوة حقيقية يسهر الليالى لیوقظنى كل أربع ساعات لأتناول البنسلین . وكنت فی أيام العافية أتجول بین الأشباح والأحياء ، فكنت أتردد على زمیلنا الشاب وحید النقاش الراقد رقدة الموت فی مستشفى كوشان تحت أنبوبة الجلوكوز ، الكل یعلم بموعد تنفيذ حکم الإعدام فيه ويحدثه فی مرح مصطفى عن موعد الشفاء . أما هو فالله وحده یعلم ماذا كان يخفى من هواجس خالف عينیه الزجاجيتين الجميلتين وبشرته الخضراء وثغره الباسم ، يلغو فی هدوء عن أخبار الأدب والأدباء ،

كنت أتردد على معرض العنانه جاذبية سرى قرب الشانز يازيه وأأمل أساوبها
الجلديد المنقبض حيث تداعت منازل القديمة وتلاشت ألوانها الساخنة
وحلت محلها رموز انكماشية وانزوائية داخل أطر قائمة وكأنها تعبر عن
رغبة في الا نسحاب داخل الرحم . موجة من الكتابة تجتاح فنانينا الكبار
كما اجتاحت أدباءنا الكبار . وبرغم قلة روادها بسبب إضراب عمال
المetro وشلل المواصلات في باريس مدة أسبوعين ، فقد استطاعت
جاذبية سرى أن تبيع اوحتين أو ثلاثاً .

وكنت أزمع السفر إلى أمريكا بعد أسبوع من وصولي باريس ولكني
أجلت سفرى أسبوعاً آخر حتى أشهد افتتاح معرض «الفن المصرى المعاصر»
الذى افتتحه سفيرنا عبد الله العريان في متحف جاليريا يوم ٢٢ أكتوبر
١٩٧١ ، وحضره دوها ميل وزير الثقافة الفرنسى والوزير جوكس وغيرهما
من الرسميين المعنيين برعاية الفنون والآداب . وكان معرضاً يضم نماذج
من أعمال خمسين فناناً مصرياً فى مقدمتهم رمسيس يونان والجزار (لا أعلم
إذا نسوا كمال خليفة ماداموا قد تذكروا الموتي) ثم تحية حاييم وجاذبية
سرى وفؤاد كامل وأنجى أفلاطون وحامد ندا وسيف وانلى وصالح طاهر
وكنعان إلخ . . ومن النحاتين عبد القادر رزق وآدم حنين والسجيني
ومحمود موسى وهجرس ومحي الدين طاهر وصالح عبد الكريم . ولا
أعرف إن كان المعرض قد استقبل من الصحافة الفنية استقبالا حافلاً أم لا
لأنى طرت إلى أمريكا بعد ثلاثة أيام من افتتاحه ، ولكنى شخصياً برغم
سعادتى بأن أرى فن مصر يعرض فى عاصمة العالم الفنية ، لم أسعد بتاناً

بأن أرى جناحاً من حجرتين في المعرض يخصص للفنانين المصريين الشبان الذين بدت أكثر أوجاعهم كاجتهادات تلازمة نجباء ، ربما كانوا أصحاب مواهب واعدة ، ولكنهم حتى الآن مازالوا في طور التكوين . وقد كنت أؤثر أن يقنصر المعرض على أعمال عشرة أو خمسة عشر من كبار فنانينا يمثل كل منهم تمثيلاً كافياً بدلاً من كل هذا الحشد الغفير من الأسماء بقصد إرضاء كل الناس هنا ، وبهذا اختلط النابغون بالأوساط واختلط الأوساط بالمبتدئين (ليس في فرنسا نفسها أو إنجلترا أو أية دولة متقدمة خمسون فناناً يستحقون العرض) . وما في كل يوم يتاح لمصر أن تعرض في متحف مثل جاليريا . ومن يذهب إلى سوق الجواهرجية لا يحصل معه كل جواهره من ماسات حقيقية وزجاجية . أما تشجيع الشباب فله وسائل أخرى ، ونحن لانتصور مثلاً أن فرنسا تقيم بيننا معرضاً لميكاسو وبراك وجيا كومتى ثم تعرض معهم لوحات بعض خريجي كلية الفنون الجميلة بباريس .

بل لقد ساءنى في هذا المعرض أن أرى عديداً من أردأ أعمال فنانينا المعروفين مثل عمر النجدي ويوسف سيده وخديجة رياض وعفت ناجي وممنير كنعان ورمزي مصطفى ، حتى سيف وانلى لم يكن ممثلاً خير تمثيل ، وأنا أعرف لكل من هؤلاء لوحات تفضل ما رأيت في باريس مائة مرة . وحين سألت قوميسيرة المعرض الفنانة أنجي أفلاطون في سر هذا الاختيار الردىء أبلغتني أن المندوبة الفرنسية هي التي قامت بهذا الاختيار عند مجيئها إلى مصر ، فلتسمح لي وزارة الثقافة هنا وهناك أن أقول لهما إن

المندوبة الفرنسية لا شك عاشقة لمصر بدليل أنها كانت فى الاستقبال تلبس قفطاناً تركياً مزركشاً بالقصب مثل إيشماشرجية الهيلتون وشميراميس ، ولا شك تحمل لنا أطيب النوايا ولكنها لا تفهم كثيراً فى الفن إذا كانت هذه هى اختياراتها . وقد لا حظت أن عقلية سياح خان الحليلى والأوانى المزخرفة هى التى سيطرت على اختيار المعروضات ، وهذا معناه ببساطة أن أوربا تقول لنا : لنا الفن ولكم الزخرفة فابقوا فى مكانكم ولا تحاولوا أشياء لا تتقنها . نحن نحب فيكم نكهتكم الشرقية المملوكية فلا تفسدوها بالتفلسف أو التحليق أو الغوص إلى الأعماق . أبعادوا عن الفيجهوارتييف ، وعن التجريد معاً . أبعادوا عن الألم والفرح والقلق والصفاء والزموا الدندشة بأشكالكم الهندسية المتكررة فى صواوينكم وأباريقكم وصوانيككم ومشكاواتكم وأطالوا على العالم من وراء مشربياتكم ، فجمالكم الحقيقى أنكم لا تصلحون للقرن العشرين .

كلمة للمستقبل . لو أتيح لنا معرض آخر خارج حدود مصر ، فن واجب وزارة الثقافة أن تستغنى عن خمسمائة جنيه وتدعو لجنة ثلاثية من أكبر نقاد الفن فى العالم تقيم بيننا أسبوعاً لترشد وزارة الثقافة فى عملية الاختيار . ولكى يكون الاختيار ممثلاً لوجه مصر الحقيقى ولفن مصر الحقيقى يجب إنشاء سجل فى وزارة الثقافة تدون فيه سيرة كل عمل من أعمال فنانينا الكبار منذ خروجه إلى الحياة تماماً كسجل المواليد ترصد فيه حركة كل لوحة أو تمثال . فأنا أعلم أن خير أعمال فنانينا محبوب فى مجموعات خاصة وموزع بين القاهرة والإسكندرية واستوكهولم وبرلين

وباريس ولندن ونيويورك وغيرها من مدن العالم الكبيرة والصغيرة ، وقد رأيت في رحلتي الأخيرة في بروكلين وفي واشنطن لوحات معروفة لرمسيس يونان وفؤاد كامل وتحيةة حلیم وجاذبة سرى بين مقتنيات بعض المصريين المهاجرين ، كما أنى أعلم أن زوارنا الأجانب يشتركون أولاً بأول صفوة إنتاج فنانينا الكبار ويعودون به إلى بلادهم . وإذا كنا نوثق عقود بيع السيارات في الشهر العقاري ، فلا أقل من أن نفتتح سجلاً في كل قنصلية مصرية توثق فيه كل لوحة مصرية تباع في الخارج بحيث نعرف أين مستقرها ، ونستعيرها أو نؤجرها للعرض في المعارض الدولية . بهذا نبرز للعالم أصدق مالدينا ولا نترك عملية الاختيار للمصادفة العمياء أو للبحث بين نفايات الفن التي لا تجد من يشتريها .

وقد كان العقاب أليماً في باريس ، ثلاثة أيام ترددت فيها على متحف جاليريا . بالساعات الطوال بعد افتتاحه ، فلم أر قدماً « تهوب » في المكان إلا عابراً طارئاً في الصباح وعابراً طارئاً في المساء ورغم أن موصلات باريس كانت قد عادت إلى الانتظام ، قال الفنانون المصريون المرافقون للمعرض : نحن حقاً منحوسون ، فقد جاء معرضنا وقت تنويع بيكاسو في باريس فلم يلتفت أحد إلينا لأن كل الناس في معرض بيكاسو . ربما . ولكن الحمد لله أنى لم أسمع أحداً يقول إنها كانت مؤامرة من الصهيونية العالمية . ١

وفي السابع والعشرين من أكتوبر ١٩٧١ طرت إلى بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية لأشترك في مؤتمر الحريجين العرب . وكانت

تنتابني إحساسات متضاربة أكثرها من إحساسات العائد إلى مكان
بعد خمسة عشر عاماً . وكان معي في الطائرة الصحفي الفرنسي المعروف
أريك رولو الذي كان مدعوًا مع الاستاذ جاك بيرك للاشتراك في
مؤتمر بوسطون . وبعد رحلة سبع ساعات مملّة تسلينا فيها بمشاهدة فيلم
سخيّف على متن الطائرة نزلنا مطار بوسطون . وبدأت أول روائع أميركا
تهب علينا في أرض المطار .

شيء لم نألفه في أوروبا . في الجوهر يكيفتحون الحقائق . وقد كان .
وما إن تجاوزنا المنطقة الجوهرية وهمسنا بالخروج إلى المدينة حتى استوقف
مخبران صاحبنا الصحفي المعروف وقاده للتفتيش الشخصي ! لماذا هو
بالذات ؟ لا أدري . كنت معه ولكنهما لم يتعرضا لي . وحرصت على
ملازمته في هذه الورطة من باب اللياقة والعجب يملأني ! ووقفت خارج
كابينة التفتيش أقرب ما يحرق فوجدت المخبر يتفحص جواز سفره بعناية
ثم يساعده على خلع جاكته ويفتشها بدقة ، ثم على خلع قميصه . ثم
أخذ يتحسس جسمه شبه العاري حتى الوسط ، وأوشك الصحفي أن يخلع
بنطلونه ولكن الرجل اكتفى بلمس يده في كل جيوب البنطلون ثم مضى
يتحسس بدقة فخذيه وساقيه حتى القدمين . وبعد أن فرغ من مراسم
التفتيش بدأ استجواباً قصيراً ثم أدخل سبيله .

وفي الطريق أخذتنا الحيرة ، لماذا هو ؟ وعم يبحثون ؟ عن سلاح ؟
هل ظنوه شخصاً آخر يبحثون عنه ؟ وكان رأي أنهم يبحثون عن مخدرات
قلت له : « أعتقد أن الحية لك هي السبب . فأنت برغم هندامك تشبه

جماعة المميز ، ونحن الآن في بلاد المميز » . وقد ثبت صدق ظني . .
 فما إن نزلنا مدينة بوسطن وأخذنا نسأل الناس نفسيراً لهذا الحادث حتى
 عرفنا أن ما رأينا شيء مألوف يجري كل يوم وكل ساعة في مطارات
 أمريكا وموانئها ، ولا سيما للقادمين من فرنسا . سواء أكانوا من الفرنسيين
 أم كانوا من الأمريكيين . إنهم يبحثون عن مخدرات . وقد غدت
 فرنسا من المراكز الرئيسية لتهرب المخدرات إلى أمريكا . (قبلها بفترة
 وجيزة ضبطوا دبابولاسيا فرنسيا اتهم بتهرب ما قيمته ١١ مليون دولار
 من الميروين في سيارة فولكسفاجن استوردها من الخارج) . ولا يعنى
 المرء أن يكون ذا مركز « محترم » فأستاذ الجامعة قابل للتفتيش الشخصى
 كتلميذ الجامعة وكأى صعاوك « لا يملك في الحياة إلا شعره » كما تقول
 أغنية المميز المشهورة ، ومع ذلك فالزائر يحس بالمهانة عند التفتيش
 الشخصى ، فهذا أسوأ استقبال يمكن أن يتعرض له إنسان برئ حالمًا
 تبطاً قدماء أرض الولايات المتحدة . مشكلة ، لأن الحكومة الأمريكية
 معذورة أيضاً في هذه الإجراءات المتعسفة . حين تقيم في أمريكا قليلاً
 تدرك أن المخدرات قد غدت فيها وباء قومياً لا بد من مكافحته بأى
 ثمن .

كذلك ما إن تقيم في أمريكا أياماً حتى تدرك أن فيها وباء آخر
 هو اختلال الأمن في المدن الكبرى . كلما سألت أحد معارفى الأمريكيين
 في نيويورك عن مكان أفضى فيه السمرة كان الجواب دائماً واحداً :
 لا تسهر بالليل ، فنيويورك أمست غير آمنة ، كل ليلة عشرات من حوادث

القتل بقصد السرقة تتم والبوليس غير قادر على السيطرة على الموقف .
شبان ورجال من المتعطلين أو من مدمنى المخدرات يتعرضون بالمسدسات
في جماعات صغيرة للمارة في أرقى الشوارع وفي أقذرها طلباً لحافظهم .
وأدنى مقاومة أو إحساس بالخطر معناها الرصاص . الحكيم من يسلم كل
ما في جيبه في إذعان . وأسوأ ما في الأمر أن التحقيقات تثبت أن هذه
الاعتداءات لا تنظمها عصابات محترفة كما كان الأمر في العشرينيات
والثلاثينيات أيام آل كابوني وجاك ديانجر وبقية ملوك الإجرام ، وإنما
يقوم بها مواطنون عاديون من البيض أو من السود ذاقوا مرارة البطالة
المتصلة فأعلنوا الحرب على المجتمع ، أو مواطنون عاديون من المدمنين لم
يجدوا إلا السطو سبيلاً للحصول على المال . وهناك أيضاً فئة ثالثة من
المواطنين العاديين تعلمت الإجرام في مدرسة فييتنام . أما السطو على
المنازل فقد غدا في نيويورك خاصة وغيرها من المدن الكبرى ظاهرة
مألوفة إلى حد جعل سكان كثير من العمارات ينشئون فيما بينهم جمعيات
تعاونية للدفاع عن أنفسهم يأسا من قدرة البوليس على حماية الأرواح
والأموال .

وبالطبع لم ألق بالآ إلى هذه التحذيرات وإلا بقيت سجين فندق
البلتمور طوال الأسبوع الذي قضيته في نيويورك . فخرجت ثلاث مرات
بمجردى بعد التاسعة مساء إلى الواحدة صباحاً أتجول في برودواي والشارع
٤٢ وحول تايمز سكوير لأرى أضواء المدينة ، ولأدرس بنفسى ذلك
الوباء الثالث الذي سمعت بعد نزولى أمريكا أنه يحتاجها من أقصاها



إلى أقصاها ، ألا وهو أفلام الجنس . ولم يهاجمنى أحد ، ومع ذلك أحسست فعلا بجو الجريمة يتهدد آلاف السابلة في وضوح الليل . وكنت قد قرأت شيئاً لتوفيق الحكيم وهو يصف رحلته في العام الماضي إلى باريس .. يقول إن مشكلات الجنس تعالج الآن في الأفلام الأوروبية معالجة علمية وإن الجمهور يتتبعها في احترام تام . أما في أمريكا فقد رأيت ستة أفلام في تايمز سكوير ولكني لم أرفيها مشكلات ولا جنساً ولا علماً . وإنما رأيت مجرد دعارات مقززة لبغايا وصعاليك يؤدون العملية الجنسية أمامك على الشاشة مصورة من جميع الزوايا الممكنة مع الاهتمام الخاص بالسحاق ، ولم يكن بينها إلا فيلم واحد يقترب قليلاً مما حدثنا عنه توفيق الحكيم ، وهو تعاون الفن والعلم في اكتشاف العلل الجنسية ، ومحاولة علاجها . ومع ذلك ، فمن يدقق النظر فيما يشاهد يجد أنه لا فرق بين هذا الفيلم وسواه ، إلا أن كاتب السيناريو له قواد مثقف عرف كيف يضمنى على القوادة رداء الثقافة ، فأوهمنا أنه أقام ندوة مع طبيبة في علم النفس ، موضوعها العلل الجنسية بين الأزواج وانحرافات الفراش في عشرة نماذج أو « حالات » من مرضى هذه الطيبة ، وكان يتتبع هؤلاء الأزواج ويدعوهم إلى الاستوديو لسرد قصص مرضهم وقصص شفائهم بالتفصيل بالصورة أمام الكاميرا فيستجيبون له .

وحاولت أن أستقصى من معارف الأمريكيين عن أسباب هذه الأزمة التي دخلت فيها السينما الأمريكية ؟ يقاوان إن الموجه جاءتهم أولاً من السويد والدنمارك ، فكان بعضهم يربطها بالثورة الجنسية أو

حركة التحرر الجنسي التي تحتاج العالم اليوم وتحتاج أمريكا بصفة خاصة وهي وجه من وجوه ثورة الشباب والمميز والبحث عن أخلاقيات جديدة للجنس غير ما ورثناه عن الآباء والأجداد من معتقلات روحية وجسدية باسم مكارم الأخلاق وسيادة الروح على الجسد . وكان آخرون يربطونها بالتشوهات النفسية الناجمة عن الحروب ولا سيما حرب فيتنام . ولم أجد هذا مقنعاً ولا ذاك مقنعاً . فالهيبز ودعاة التحرر لا يكثرثون بأفلام الجنس لأنهم يفضلون ممارستها على الطبيعة كما أن هذه الأفلام لو كانت تعبيراً عن فلسفة تحررية جديدة لكانت لإباحيتها أكثر فناً من كل هذا . والسويد والدنمارك لم تشتركا في حرب فيتنام رلاً في أى حرب من الحروب العالمية ، وآخر حرب اشتركت فيها السويد إذا لم تخفى الذاكرة كانت منذ نحو ٢٥٠ سنة في القرن الثامن عشر ، حقبة خلدها فولتير في كتابه الخالد « سيرة شارل الثاني عشر » . بل إن هذه الأفلام لم ترق حتى إلى مستوى أمراض الحضارة والترف ، فالرومان والعباسيون عندما أصابهم أمراض الحضارة لم يعربدوا بهذه الغلظة وإنما عربدوا بتفنن وجمال . وتصورت أن أزمة السينما ربما كانت نابعة من سيطرة التليفزيون الذي فتح في كل بيت داراً للعرض الخاص وفتت البشر إلى ملايين من الحزب الضئيلة المنفصل بعضها عن البعض الآخر بحيث أصبح من أعسر الأمور تجميعهم في مسرح أو سينما إلا على شيء خارق في الإثارة ، ومن هنا لجأت صناعة السينما إلى موجة من أفلام الجنس كما كانت تلجأ في الماضي إلى أفلام الجريمة وأفلام رعاة البقر لتجذب

المراهقين والبسطاء . فإن كان الأمر كذلك فلعلها موجة ثم تنحسر ، ولكن الخطر أيضاً ماثل ، وهو أن تمتد هذه الموجة بعد عشر سنوات إلى شاشة التليفزيون حيث تجد تجاوبا أعمق ، لأن الجنس في صميمه تجربة فردية لحياء فيها ، بل قد تكون لها قداسة ، بين جدران أربعة . أما عرض قذاراتها على الناس جماعة في الأسواق ففيه دائما ما يصد البشر الأسوياء . وبالفعل كان أكثر من رأيت حولي في سينمات الأفلام الجنسية كهولا يبدو عليهم الحرمان وإرهاق المراهقين ، ولم أر من النسوة إلا قليلا ، ونادر أن تجد وجها عليه سماء الفضول العقلي أو رغبة الاستكشاف ، ونادر أن تجد رجلا اصطعب زوجه أو صاحبه طلباً للإبرتييف قبل مواجهة الحلاوة . إنهم نفس جمهور « السينما الزرقاء » التي كانت تنفشي في أوروبا في الثلاثينيات قبل الحرب العالمية الثانية .

* * *

هذه هي الأوبئة الثلاثة التي شهدتها في أمريكا في زيارتي الأخيرة : انتشار المخدرات ، واختلال الأمن ، والأفلام الجنسية . والصحافة الأمريكية تتحدث عن وباء رابع وشيك الانتشار في أمريكا هو الأمراض السرية . ولكن الذي يخفف من حدة هذه الأوبئة أن الديمقراطية الأمريكية مجتمع مفتوح لا همس فيه ولا تكتم ، فكل الناس تتحدث عن هذه القضايا بصراحة والصحافة والإذاعة والتليفزيون وكل منابر الرأي والبحث تخوض في هذه المشاكل ليل نهار ، وتحاول استقصاء أسبابها ونتائجها ووسائل علاجها . وحيث الرأي الحر مكفول فكل شيء قابل

١٠١

للتصحيح . فلا حرج عند أحد من اتهام البوليس الأمريكى مثلاً بالإهمال أو بالتستر على الجريمة للارتشاء . وهم هناك لا يضيعون وقتهم كثيراً فى التنديد بعيوب المجتمع الأمريكى على أساس مكارم الأخلاق بل يلجأون إلى أساليب البحث العلمى فى استقصاء الأسباب والنتائج ووسائل العلاج . حتى ظاهرة الشذوذ الجنسى التى تفشت مؤخراً فى أمريكا وبعض مجتمعات شمال أوروبا وإنجلترا غدوا يخضعونها للدراسة الكيميائية الحيوية بفحص سلوك المرمونات ونسبها فى أنماط الشذوذ المختلفة . ومن وضع يده على الحقيقة سهل عليه العلاج .

* * *

وحين استفسرت عن مستعمرات الهبىز قال لى أصدقائى الأمريكيون : سنحاول أن نرتب لك الإقامة بينهم أسبوعاً أو نحو ذلك ، ولكننا نطلب بعض الوقت لإجراء هذا الترتيب . أمامك الاختيار بين كومونات نيويورك، (والكويون عمارة تستأجرها أية جماعة من الهبىز بقصد المعيشة المشتركة ، فلا أحد يمتلك فيها شيئاً حتى علبة سجائره ، وكل عضو فى الجماعة يصب فيها كل مكاسبه ، ويستهلك فيها بحسب حاجته بغير حسيب) ومعسكرات الدواء الطلق ، وهذه أقربها على بعد مئات من الأميال . وهنا تدخل فى الحديث سائق التاكسى الذى كان يتتبع حديثنا ، وكان من الهبىز ويدرس للماجستير فى جامعة كواويبيا : « أنصحك ياسيدى أن تذهب إلى مستعمرات الدواء الطلق ، هؤلاء هم الهبىز الحقيقيون . أما كومونات المدينة فهم الهبىز المزيفون الذين أساءوا إلى سمعة حركة

الشباب ، وهم فى العادة جماعات مغلقة . إنهم يتذرعون بمظهر الهبىز ، فىرسلون شعورهم ويتحدثون عن المجتمع الجدىد وىحتجون على القيم السائدة ، لىعيشوا حياة الإباحية والفوضى والكسل وتعاطى المخدرات . أما معسكرات الرىف فهى الصحة والإيمان السلىم . هناك لىعيش الشباب حياة البساطة الأولى ، يزرعون وىقلعون وىربون وىأكاون مما زرعوا وقلعوا وربوا ، وىصنعون ما ىتقنون من مصنوعات ىدوية وىبىعونها للحصول على لوازمهم . وإذا ذهبت إلى هناك فسىستقباونك بالترحاب ، ولن ىنتظروا منك إلا أن تزرع أو تطلع أو تصنع مثلهم . هؤلاء من حقهم أن ىحتجوا على مفاسد المجتمع الرأسمالى لأنهم تجردوا من غريزة الملكية دون أن ىكتسبوا مفاسد أخرى . انظر إلى مثلاً . أنا واحد من الهبىز ، ولكنى لا أعىش فى كومون » .

وعرفت فى أمرىكا أن بعض رجال الدين ىسايرون حركة الهبىز، وىفتحون لهم الكنائس لإقامة حفلاتهم الراقصة الصاخبة بقصد استدراجهم إلى حظيرة الدين واصطىاد أرواحهم بعد أن ىشبتوا لهم أن الدين لىس مناهضاً لحركات التجدىد مهما كانت ثورية . كذلك عرفت أن البولس الأمريكى له رجال من الهبىز ىطلقون شعورهم وىمشون حفاة فى هلاهل ، فما إن ىقوم الهبىز بمظاهرة حتى ىتحولوا إلى رجال أمن وىشاهدوا فى سىارات البولس .

* * *

وتذكرت جماعات الشباب — فتية وفتيات — الذين رأيتهم جالسین

١٠٣

على الأرصفة حفاة في ثياب مهلهلة في ميدان سان ميشيل ببباريس وفي مختلف أرجاء الحى اللاتينى وسواه ، ثم رأيت أمثالهم على أرصفة جامعة هارفارد ومدينة أوستن حيث جامعة تكساس ، وقد فرشوا مصنوعاتهم على الأرض ليشتريها المارة ، من إشاربات وبواوفرات وشنط ومحافظ جلدية وأحزمة مزركشة وكلها أشياء جميلة . وكنت أحسب أنهم يشترونها جاهزة ليتاجروا فيها . ثم عرفت أنها من صنع أيديهم ودو نوع من الاحتجاج على عصر الآلة وعلى مبدأ التجارة القائم على وجود وسيط بين المنتج والمستهلك . نوع من العودة إلى العصور الوسطى على طريقة ولیم دوريس ، إلى مجتمع الإنتاج اليدوى ومجتمع المقايضة ، ولكن بغير أشرف ولا إقطاع ولا فرسان ولا كهنوت ، وعندما سمعت كلام سائق التاكسى أدركت أن الأمر أعقد مما كنت أتصور . فاستبعدت فكرة كوين المدينة لأنى لا أتصور نفسى بين جماعة تتعاطى المخدرات واومن أجل التجربة ، ثم استبعدت فكرة العودة إلى الطبيعة برغم انجذابى إليها ، لأنها ستحتاج إلى شهر كامل . ومن يدري ؟ فربما ضعت فيها ولم أعد إلى قومي ؟ إن هاتفاً عميقاً يلازمى منذ سنوات طويلاً أن انسحب نهائياً من حياة المجتمع ، ولكنى لم أجد الشجاعة حتى الآن لأجيب ندائه . وقررت أن أبتعد عن مواطن الغواية .

* * *

وهكذا تبخر أحد الأملين الكبيرين اللذين كنت أحلم بهما قبيل نزولى بأرض أمريكا : أن أدرس عن كثب مشكلة الهبيز في بلاد الهبيز ،

أما الأمل الثاني ، وهو أن أتابع ما يجري في المسرح الأمريكي بصفة خاصة وفي الأدب الأمريكي بصفة عامة ، فقد تبخر أيضاً وأنا لا أزال في مؤتمر بوسطن في الأيام الثلاثة الأولى من رحلتى الأمريكية .

فقد توالى الأحداث في سرعة سريعة منذ اليوم . وجدت نفسى بين نحو مائتين من عرب أم يركا أكثرهم يعملون أساتذة في الجامعات الأمريكية ، وبعضهم لا يحسنون العربية كلاماً لطول هجرتهم إلى الولايات المتحدة أو لأنهم وادون بها . وقرأت على المؤتمرين كلمتى ، واستمعت إلى كلمة جاك بيرك وإلى كلمة نجم باذرجان الأستاذ بجامعة تكساس وإلى كلمة يروسلاف ستكيفيتش الأستاذ بجامعة شيكاغو ، وهى كلمات سأعود إليها فيما بعد . كذلك أحاط بى الطلبة المصريون بعد حضور المؤتمر ، وكانوا وافدين من جامعات أمريكية عديدة ، وطلبوا إلى أن ألتقى بهم فى جامعاتهم وأنا لا أرفض للطلبة طلباً : عقدة جامعية قديمة ما زالت تلازمى برغم مرور السنين . وبين الأساتذة والطلبة وجدت نفسى بين يوم وليلة مرتبطاً بجولة محاضرات رهيبة قوامها عشر محاضرات فى عشر جامعات مختلفة خلال عشرين يوماً ، وكانت كلها تدور حول موضوعين رئيسيين هما « التطورات الثقافية فى مصر منذ ١٩٥٢ » و « دور المثقفين فى مصر الحديثة » ، وبين يوم وليلة دقت التليفونات فى عشر جامعات لإعداد الترتيبات اللازمة وبين الجامعة والجامعة ألف كياومتر . بين يوم وليلة كل شىء تم بالتليفون . وألقيت أولى محاضراتى فى جامعة هارفارد ، ثم طرت إلى جامعة لافال

في كويبيك بكندا . قالوا : في عودتك من كندا إلى الولايات المتحدة ستمر طبعاً بمطار مونتريال لتغيير الطائرة ، وهناك ستجد زميلاً لنا في انتظارك في المطار ليسألك تذاكر رحلتك ، وقد كان . وطرت أولاً إلى نيويورك التي اتخذتها قاعدة لى . ومن نيويورك طرت إلى جامعة ميتشجان (آن آر بور) ، ومن ميتشجان إلى جامعة شيكاغو ومن شيكاغو إلى جامعة مينسوتا في منيا بوليس ومن منيا بوليس إلى جامعة وسكونسن ، ومن وسكونسن إلى جامعة برديو في لا فاييت انديانا ومن لا فاييت إلى جامعة تكساس في أوستن ، ومن أوستن إلى واشنطن ومن واشنطن إلى جامعة برنستون ومن برنستون إلى نيويورك حيث أقيمت محاضرتين أحدهما في جامعة كواومبيا والأخرى في جامعة نيويورك . وأولاً أنى فررت من أمريكا فراراً أوجدت نفسى أطوف بعشرين جامعة أخرى . وكانت متعة عظيمة أن أجده نفسى ثانية بين أبناء عشيرتى الأولى أساتذة الجامعات وطلابها ، واحتملت مشقة لا يحتملها ابن العشرين : . أطيروا ألف كيلو متر في الصباح وأحاضر في المساء وأبيت الليلة في فندق أو في المدينة الجامعية لأطير في اليوم التالى ألف كيلو متر في الصباح وأحاضر في المساء ، - وكانت راحتي الوحيدة أن يحل بي يوماً سبت وأحد حين لا يعمل الناس - ومع ذلك لم أحس بأدنى إجهاد إلا في نهاية المطاف . كل شيء مرتب بإحكام كأنك تدور مع عقارب ساعة جسيمة متقنة الصنع لا تخطئ أبداً . الطائرة دائماً تصل في الموعد المحدد . السيارة دائماً تنتظرك في المطار . غرفة نومك دائماً محجوزة . محاضرتك دائماً تبدأ

وتنتهى فى الوقت المحدد لها . للغداء وقت محدد ، ولحفلة الاستقبال وقت محدد ، ولم يحدث خلال واحد .

* * *

وانقضى الشهر الذى خصصته لزيارة أمريكا . وهكذا دخلت أمريكا وخرجت منها دون أن أرى شيئاً ، إلا « الدير » فى نيويورك ومعرض ميرو فى منيابوليس . لم أرمسرحية واحدة أو أوبرا واحدة ، وكان الكتاب الوحيد الذى عدت به « قافوس فى لغة البربر » و« أجرومية لغة البربر » ، وهما من تأليف أستاذ مصرى فى جامعة ميتشيجان اسمه أرنست عبد المسيح . وبرغم أنى دخلت أمريكا وخرجت منها دون أن أرى شيئاً من فنونها وآدابها ، فقد تعلمت أشياء كثيرة غير ما قصدت إليه من رحلتى الأمريكية ، أشياء ربما كانت أهم من الفنون والآداب . ففند أن التفتيت فى اليوم الأول بجامعة هارفارد بفتاة مصرية تدرس الدكتوراه يتدلى على صدرها « العنخ » أو مفتاح الحياة ، قررت أن أدرس أحوال المصريين المغتربين فى أمريكا . وفى كل مكان نزلت به جمعت باقة من المشكلات والحلول . وفى كل مكان نزلت به لم أكف عن مناقشة الناس فى المسألة المصرية وجميع الا نطباعات عن رأى العام الأمريكى فيما يسمونه « الحل السلمى » . وقد أتاحت لى تنقلاتى المتواصلة أن ألتقى بمئات الناس من مختلف الطبقات والمستويات والمهن والتخصصات . وفى الحالين وصلت إلى نتائج أجد أن من واجبى أن أعرضها على أبناء وطنى ، ليعرفوا شيئاً عن مآل إخوتهم المهاجرين فى الخارج ، وليعرفوا شيئاً عن رأى رجل الشارع الأمريكى فى محنتنا الوطنية .

الفصل السابع

إمكانات الحوار في المجتمع المصري ترجمة لنص محاضرتي في مؤتمر بوسطن

سيدى الرئيس ، سيداتى وسادتى .

إنه لمصدر اعتزاز لى أن أزور الولايات المتحدة الأمريكية بعد غيبة طويلة امتدت خمس عشرة سنة ، لأتحدث إليكم فى موضوع « إمكانات الحوار الصادق فى المجتمع العربى المعاصر » . ولذا فإنى أقدم الشكر لاتحاد الحريجين الأمريكيين العرب لتفضله بتوفير هذه الفرصة لى ، بدعوتى للتحدث إلى مؤتمره الرابع المنعقد فى بوسطن .

على أنه لم يكن واضحاً تماماً عندى إن كان المراد أن أتحدث عن إمكانات الحوار بين المجتمع العربى وبقية العالم ، أو أن أتحدث عن إمكانات الحوار داخل المجتمع العربى نفسه . ولما كنت أنتمى إلى بلد لم يكف منذ كارثة ١٩٦٧ عن محاولة فتح باب التفاهم مع العالم الخارجى ، ومع ذلك لا يجد أن كل الأطراف المعنية تفهمه بوضوح تام ، فإنى أسلم بأن جهودنا التى لا تكل لإقامة الحوار مع بقية بلاد العالم ليست وضع شك من أحد . وبناء عليه فإنى سأمضى إلى استقصاء الوجه الآخر من الموضوع ، ألا وهو طبيعة التفاهم المتبادل ومداه داخل ما يسمى

بالمجتمع العربى نفسه. ولما كنت لأعرف شيئاً كثيراً عما يجرى داخل البلاد العربية الأخرى ، فإننى سأقصر كلامى على البلد الذى أعرفه أكثر من سواه ، وهو بلدى ، مصر . كذلك فإننى سأحدد نطاق فكرتى عن المعاصرة بحيث تقتصر على أحوال عصرنا منذ ١٩٥٢ ، ولو أنى واثق من أن بعضكم يود منى أن أكون أكثر معاصرة من ذلك .

لو أننا رجعنا إلى السنوات القليلة السابقة لثورة ١٩٥٢ ، وهى آخر أيام القومية المصرية والديمقراطية الليبرالية ، لوجدنا أن الحرب العالمية الثانية تلتها سبع سنوات من الفوضى السياسية والقلق والجروح إلى اللا عقل ، ليس فقط داخل المجتمع المصرى نفسه ، ولكن كذلك بين الدول القديمة والحديثة التى كانت لها من قبل علاقات تقليدية بمصر ، وأهمها بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . كانت تلك الفترة فترة اللاتفاهم العظيم : ففى مصر رفض البريطانيون فى عناد سحب جيش الاحتلال ، برغم أن انتصارهم فى الحرب جعل استمرار الوجود البريطانى فى مصر بغرض الدفاع عن النفس أمراً لا معنى له ، فى حين بلغ الشعور الوطنى المصرى نقطة الانفجار . كذلك بلغت الحزازات الطبقيّة نقطة الانفجار ، عندما رفضت طبقة الباشوات ، يقودها ملك لا يحسن بالمسئولية ، فى عناد ، كل محاولة للتصالح الطبقي عن طريق الإصلاح الزراعى وعن طريق إصدار تشريعات عمالية تكون أقرب إلى العدالة . أما رأس المال الأجنبى فى مصر ، وقد كان خلال مائة عام يحتل مركزاً ممتازاً ، فقد رفض فى عناد أن يتخلى عن هذا المركز الممتاز

وأن يصل إلى اتفاق مع البورجوازية المصرية ومع التكنوقراطية المصرية الناميتين أبداً ، ومع رأس المال الأجنبي ، كان هناك ثلاثة أرباع المليون من الأجانب المحليين الذين تشبثوا في عناد باعتقادهم في تفوق أصلهم الأوربي ، وآثروا الخروج من مصر جماعة على أن يستسلموا في إذعان لمصير المواطن المصري المتجنس ، وهو مصير غير مريح . ولكي تتم السيطرة على كل هذه التوترات الفظيعة ، أقام الملك فاروق خمس دكتاتوريات : النقراشي وصدقي والنقراشي وعبد الهادي وسري ، التي توالى في تعاقب سريع . وقد أضافت الدراما الفلسطينية الإسرائيلية اللمسة الأخيرة في هذه الصورة حين تطورت في الحلفية في سرعة لاهثة . وأخيراً ولد نقيض الموضوع ، وهو الثورة من الموضوع ، وهو العهد البائد . وأخيراً استجدت للبلاد الناطقة بالعربية قضية مشتركة تلتف من حولها ، وأعطى الإحساس بالمصير المشترك معنى ودفعة لفكرة العروبة .

وفي اعتقادي أنه ينبغي النظر إلى حكومة الوفد بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢ على أنها آخر محاولة يائسة لإنقاذ العهد البائد الذي كانت دعائمه القومية المصرية والديمقراطية الليبرالية . وقد أفضى إخفاقها إلى نهاية عصر وبداية عصر آخر . وقد كان ينبغي أن تقوم ثورة ١٩٥٢ في ٢٦ يناير لا في ٢٣ يوليو .

كان ما تحتاج إليه مصر هو قيام نظام قوى يضع حداً للفوضى وللقلق وللجنوح إلى اللاعقل ، نظام فتي يقدم الحاول لكل هذه

التوترات التي لا سبيل إلى حلها ، نظام يرد لمصر كبريائها القومي بتخليصها من الاحتلال البريطاني ، نظام يعيد لمصر استقرارها السياسى والاقتصادى بالتعجيل بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية وبإقرار التصالح الطبقي عن طريق الإصلاح الزراعى وعن طريق ترقية تشريعات الطبقة العاملة ، نظام يجعل مصر للمصريين بتصفية المصالح الأجنبية و« الاستيطان » الأجنبي في مصر، وأخيراً نظام يجد حلاً مرضياً لعقدة الدراما الفلسطينية الإسرائيلية نصف المرتجلة. وبوجه عام ، حاول نظام جمال عبد الناصر - لو حكمنا عليه داخل سياقه التاريخي وفي نطاق الطبقة الوسطى الصغيرة التي حددت إمكانياته - تقديم حلول ناجحة لكل هذه التوترات التي لا سبيل إلى حلها ، ولكنه عندما تقدم لحل المشكلة العربية الإسرائيلية ، كان التحدى أكبر من طاقاته . فقد استبان بعد فوات الأوان أنه كان يتعامل مع مجهولات في السياسة الدولية لم يكن معداً لها الإعداد الكافي ، ولكنه أيضاً استبان بعد فوات الأوان أيضاً أنه بالرغم من أنه حل تناقضات عديدة داخل المجتمع قد استحدث تناقضات أخرى لم يستطع حلها لا تقل خطورة واستفحالاً في الأبعاد عما حل من تناقضات .

ومن أهم هذه التناقضات التي استحدثتها ثورة ١٩٥٢ اختفاء الحوار داخل المجتمع المصرى . واختفاء الحوار بالقطع ظاهرة تتميز بها كل الثورات لا الثورة المصرية وحدها . فالثورات في العادة جامحة ومتعصبة وتنظر إلى الأمور من زاوية واحدة ، والحوار ، شأنه شأن الديالكتية ،

منهج في الحياة ، وبوصفه منهجاً في الحياة فهو لابد أن يتبع نظاماً وأن يقوم له وجود مؤسس يضمن التأمل والتخاطب والتسامح . والثورات الكبرى في تاريخ البشرية ، كالمسيحية والإسلام والثورة الفرنسية والثورة الروسية ، كانت كذلك جامحة ومتعصبة وتنظر إلى الأمور من زاوية واحدة ، ولكنها قامت لتغير أفكار الناس ومعتقداتهم وقيمهم الأساسية ، ولتغير أسلوبهم في الحياة . ولهذا فإن تطرفها مغتفر بسبب عظمة رؤيتها . أما الثورة المصرية فهي برغم إقفالها باب الحوار المثمر قد اختارت لأسباب عملية أن تترك بدون إجابة كافة المسائل التي كانت تمزق المجتمع المصري . فهي قد تركت معلقاً بدون إجابة ، ذلك الموضوع التقليدي ، موضوع « صراع القدماء والمحدثين » بأن تركت القديم والحديد يعيشان ويتعايشان ، ولم تكن إلا بإقامة توازن حرج كثيراً ما قام على الاعتماد على القديم لاستحداث الحديد ، خشية أن يكون الحديد أكثر جدة مما يسوغ لها . كذلك تركت الثورة المصرية معلقاً بدون إجابة موضوع الشيوعية والعلمانية كأساس للدولة في مصر . وبينما نجد أن ثورة ١٩٥٢ ، قد قبلت من جميع الوجوه وبجميع المعاني ، بلا تحفظ وفي غير إبهام ، الفكرة التقليدية والتطبيق التقليدي لنظرية الدولة في مصر مند محمد علي بوصفها قائمة على دعائم مدنية وعلمانية ، فإنها بالرغم من ذلك سمحت للفكر الشيوعراطي أن يتغلغل في عقول الملايين من المواطنين بإتاحة المنابر الحرة لذلك النمط من واعظ القرية المتخلف من العصور الوسطى ، وبنشر التعاليم البيوريتانية من خلال برامج التعليم ومن خلال أجهزة

الإعلام الجماهيري . فعندما نسمع نداء « الله أكبر » يتجاوب في مدينة الألف مئذنة نحسب أن القاهرة غارقة في حلم من التقوى الشاملة لا يزال يخلق فوق رؤوس الناس منذ عهد الخلفاء الراشدين ، في حين أن مشهد المينى جيب والشورت الساخن في شوارع القاهرة يردنا إلى حقائق الحياة المألوفة في أية عاصمة عصرية من عواصم البحر المتوسط . وبالمثل فإن ثورة ١٩٥٢ تركت معلقاً بدون إجابة موضوع تعريف القومية العربية ورغم أن طوفان العروبة كان في بعض لحظات شديد التلاطم إلى حد كان ينبغي معه التوصل إلى تعريف ما للقومية العربية يعطى هذه الحركة منطقاً متماسكاً ومقبولاً . وهكذا تركت القومية العربية والوحدة العربية للتأرجح بشدة من شخص لآخر ومن حزب لحزب ، ومن أمة لأمة ، بحيث اشتمل مدلولها على أى شئ من العنصرية السافرة إلى الجامعة الإسلامية ، إلى التأليه الرومانتيكى للثقافة المشتركة ، إلى مجرد التضامن الخالى من الرومانتيكية في سبيل المصلحة المشتركة . حتى الموقف الرسمى من هذا الموضوع قد تأرجح بشدة بين ثلاثة اتجاهات كانت تسمى يوماً ما بوحدة الهدف ووحدة العمل ووحدة الصف . هذا نفسه ينطبق على الفكرة الاشتراكية نظرياً وفي التطبيق . فإن ثورة ١٩٥٢ تركت معاقاً بغير إجابة موضوع شكل الاشتراكية المصرية ومحتواها ، أو على الأصح مبدأ تأميم وسائل الإنتاج ، الذى فهمه البعض على أنه رأسمالية الدولة ، في حين تمنى له غيرهم أن يتطور إلى ملكية الشعب لفوائض القيمة ملكية حقيقية ، وعلى حين أراد له فريق ثالث أن يطابق للفكرة الدينية عن

ملكوت المؤمنين على الأرض ۞

كل هذه الأفكار المتناقضة سمحت لها الثورة أن، تتعايش تعايشاً سلمياً في السنوات العشرين الماضية ، ومضت الثورة تشق طريقها بمنهج التجربة والخطأ ، رافضة أن تلتزم بنظرية محددة . فبدت وكأنها تطبق نوعاً من الحياد الإيجابي على كل هذه النظريات . وبالمثل سمحت الثورة لكل هذه النظريات المتضاربة أن تعيش بشرط ألا تحاول أن تجسد نفسها في سياسيات وبرامج تطبيقية ، أو حتى أن تكتسب من القوة الذاتية ما يجعلها تشكل ضغطاً على الدولة . بعبارة أخرى احتملت هذه النظريات في سماحة ما بقيت نظريات . فلم يكن يسمح بالاستقطاب ولم يكن « التجمع » الايديولوجي موضع رضا ، وقد حلت صيغة الاتحاد القومي أولاً ثم الاتحاد الاشتراكي ثانياً ، بوصفه « تحالفاً » بين الطبقات . مشكلة الصراع الطبقي والتناحر الحزبي . غير أن الإصرار على رفض مبدأ قيام الاتحاد القومي، أو الاتحاد الاشتراكي بوظيفة الحزب في دولة تقوم على مبدأ الحزب الواحد قد جعل التنظيم السياسي أيضاً عاجزاً أمام الدولة .

كل ذلك قلل من إمكانيات الحوار في المجتمع المصري . وقد استندت نظرية الدولة على أن الحوار هو بداية التشاتم ، وأن التشاتم هو بداية الحرب الداخلية والفرقة اللتين ما جاءت ثورة ١٩٥٢ إلا لتجنبهما . وقد بنت قيادة الثورة شرعيتها على مبدأ واحد ، وهو أنها لا تمثل طبقة واحدة ، ولا تمثل مجموعة واحدة من المصالح ، ولا تمثل مجموعة واحدة من الأفراد ، وإنما تمثل الأمة كلها . ومن أجل ذلك كان لزاماً عليها أن تكون

فوق الطبقات وفريق مجموعات المصالح . إلخ .. ولهذا كان لكل مواطن الحق في أن يعبر عن نفسه بالمولودولوج للصغير المتصل بشخصه ، وأن يعرب عن معتقداته ، وعن شكواه ، وعن احتياجاته داخل الإطار العام للأشياء ، وكانت القيادة الملهمة تصغى باهتمام إلى صوت « الشعب » . وفي هذه النظرة التوحيدية للدولة تصبح إرادة « الشعب » هي مجموع إرادات الأفراد . فكل فرد يقف وحده مع الدولة أو عليها .

وقد مكن هذا النقص في النظرية ثورة ١٩٥٢ إلى حد كبير من أن تتجنب الوقوع في صدامات دموية مع أعدائها ، وهو ما تميزت به الثورات الأخرى إلى حد كبير . فكثيراً ما يكون طغيان الإيمان بعقيدة أو بأسطورة إنسانية أو اجتماعية هو المحرك إلى العنف وسفك الدماء . غير أن هذا النقص نفسه في النظرية ، وهذه الرغبة في التوفيق بين النقاوض وتركيبها بقصد تجنب الصدامات ، هما اللذان أفضيا إلى عجز الثورة المصرية عن أن تهى للشعب المصرى فلسفة ثورية متجانسة وأسلوباً ثورياً متجانساً في الحياة . فهى قد تركت المصريين يؤمنون بما يريدون الإيمان به بشرط ألا يعتقدوا على الخطوط العريضة التى أرسىها الثورة . وعلى الأقل حتى دستور ١٩٧١ كان يمكن للمواطن المصرى أن يكون ماركسياً أوأخاً مسلماً بشرط ألا ينتمى إلى جماعة منظمة ، وبشرط أن يتعاون مع النظام . وقد تركت ثورة ١٩٥٢ أكثر الأشياء للطبيعة ، واعتمدت فقط على قوانين التحول الاقتصادى الصارمة . صحيح أن الناس فقدوا عقلياً العمل بمبدأ «دعه يفكر» حين فقدوا اقتصادياً العمل بمبدأ «دعه يعمل»

لكن صحيح أيضاً أن الفلاح المصرى الذى مسه الإصلاح الزراعى والعامل المصرى الذى مسه التصنيع لا يملكان أية عقيدة ثورية متميزة ، أو أى أسلوب ثورى متميز فى الحياة . وصحيح أيضاً أن مئات الآلاف من النساء المصريات قد تحررن فى عهد الثورة « بقوة الواقع » بسبب تعليم المرأة وتشغيل المرأة ، ولكنهن لم يتحررن بعد « بقوة القانون » ، بل لم ينان أدنى اعتراف بالمساواة فى مجتمع قائم على سيادة الذكور ، برغم أن الميثاق والدستور معاً قد حرصا على إعطاء المرأة المصرية وضع المواطنة الكاملة .

وقد قامت نظرية الوحدة الوطنية على أساس من نظرية الوحدة الاجتماعية ، وهى ما يسمى أحياناً « بتدوين التناقض بين الطبقات » . وقد قلت هذه من إمكانية الحوار الصادق فى المجتمع المصرى ، ثقافياً كان أو غير ذلك . وكان شعار المرحلة هو الاكتفاء الذاتى ، والاكتفاء الذاتى بنص تعريفه هو نفي لفلسفة الحياة القائمة على « الأخذ والعطاء » فهو على أحسن الاحتمالات يفترض القدرة على أن نعطى من دون أن نأخذ ، على أن نؤثر من دون أن نتأثر ، على أن نصدر من دون أن نستورد . كما أنه كان يرضى كبرياءنا القومى على المستوى المادى أننا كنا نعتقد أن مصر ، التى ظلت آلاف السنين بلداً زراعياً تضرب به الأمثال فى اعتمادها على الزراعة ، قد أصبحت منذ ١٩٥٢ بلداً كامل التصنيع « ينتج كل شئ من الإبرة إلى الصاروخ » كذلك كان يرضى كبرياءنا القومى على المستوى الثقافى أن نعتقد أن الثقافة العربية كانت مكتفية

بذاتها ، على الأقل منذ ظهور الإسلام وسيادة العرب في العصر الذهبي . ولم يكن مجرد افتراض ضمنى وإنما كان موضع تأكيد صريح أن الثقافة العربية كانت تجسد كل ما يستحق الاهتمام من القيم الميتافيزيقية والإنسانية والاجتماعية ومن التقاليد ومن المؤسسات المدنية بوصف أن هذه جميعاً نابعة من مبادئ الدين . وقد كانت هناك حقاً مظاهر فساد وانحراف عن الطريق القويم بعد أن استسلم العرب للغزاة الأجانب وتعرض الدين للزندقات اللعينة الوافدة من مصادر أجنبية . وقد كان الحل هو أن نطهر قيمنا الميتافيزيقية والإنسانية والاجتماعية وأن نطهر تقاليدنا ومؤسساتنا الاجتماعية بالرفض الأعظم لكل ثقافة « مستوردة » وأن نبعث الثقافة الدينية الأصيلة الموروثة عن العصر الذهبي في التاريخ العربى . ولما كان الناطقون بالعربية يختلفون في تحديد أى عصر من العصور كان العصر الذهبي في التاريخ العربى ، أهو عصر الرسول والخلفاء الراشدين أم عصر بنى أمية أم عصر العباسيين ، فقد اختلفوا أيضاً حول تحديد شكل هذا البعث العظيم وماهيته .

أما البيوريتان فقد آمنوا بحكومة ثيوقراطية تقوم على البيعة وتؤسس على تفويض السلطة لا على التمثيل النيابى ، كما آمنوا بمجتمع طبقى وبنظام يقوم على تقديس الملكية الخاصة « وبالإحسان » كأداة للعدل الاجتماعى ، وبكافة الفضائل الاقتصادية التقليدية التى تشجب فلسفة اللذة بكل درجاتها ، من عبادة الجمال السافرة إلى تذوق الفنون الجميلة ، بوصفها من عمل الشيطان ، وهؤلاء آمنوا « بالأطفال والمطبخ والمعبد » - كما كان الألمان

يقولون - كوظيفة للمرأة ، وبفصل الجنسين ، وبوضع حدود لتعليم المرأة . وعندما واجهوا الاشتراكية المخففة التي نص عليها ميثاق عبد الناصر في ١٩٦٢ هاجموها بوصفها زندقة . (وقد كان مما يثير الرثاء أن نرى بعض الماركسيين المصريين ودعاة الاشتراكية العربية ، رغبة منهم في تسكين غضب البيوريتان يحتجون بأن الدين هو ينبوع الذي نبعث منه الاشتراكية ، ولكي يثبتوا حججهم ، كانوا يقتطعون بعض الآيات المقدسة من القرآن مما يندد بخطرسة الأغنياء ويحض على الرحمة بالفقراء ، أو يستشهدون بأبي ذر الغفاري ، وهو فارس من دعاة المساواة عاش في عصر الرسول وكان يطالب بالعدل الاقتصادي في صدر الإسلام) .

ومع ذلك لم يكن هؤلاء المتطرفون ، ورغم نشاطهم الجهم ونبرتهم العالية ، يمثلون القسم الأكبر من الرأي العام حول الاشتراكية العربية والثقافة العربية . فهم لم ينجحوا إلا في خلق جو جعل القيادة السياسية نفسها والصحافة وغيرها من وسائل الإعلام تقف موقف المعتذر عن تحديد الملكية الزراعية وعن تأمين وسائل الإنتاج الضخم . وكان الدفاع دائماً ما يقوم على أن هذه الإصلاحات لها سوابق في تاريخنا المجيد وليست مجرد مستوردات من الفلسفات الأجنبية والتطبيقات الأجنبية ، بل على العكس من ذلك ، كان يقال في تأكيد إن الاشتراكية العربية إضافة إيجابية للنظرية الاقتصادية والسياسية المستوحاة مائة في المائة من الظروف والأحوال العربية . وكانت هناك درجة من الصديق في هذا الاعتراف ! وقد قاتل الماركسيون المصريون وخسروا معركة بأسلة حين حاولوا أن

يشتبوا أن الاشتراكية هي الاشتراكية في كل مكان ، وأنه ليس ثمة شيء اسمه الاشتراكية العربية أو الاشتراكية اليوجوسلافية أو الاشتراكية الروسية ، وإنما هناك فقط « طريق » عربي أو يوجوسلافي أو روسي إلى الاشتراكية . والأرجح أن هذه المعركة الأيديولوجية التي دارت خلال سنتين أو ثلاث بعد إعلان الميثاق ، أي بين ١٩٦٢ و ١٩٦٥ ، كانت أكثر تفلسفاً مما يسوغ فهمه للرجل العادي الذي لم يحتجز في عقله من كل هذه الضوضاء إلا فكرة واحدة أساسية تتسق مع مبدأ الاكتفاء الذاتي الذي جاءت به الثورة في مجموعته . هي أن العربي الصالح والمسلم الصالح لا يجوز له أن « يستورد » بضائعه أو ثقافته أو مبادئه الاقتصادية والسياسية . وإنما عليه أن يصنعها بنفسه وفقاً لظروفه واحتياجاته وغاياته . حتى ولو كانت النتيجة شيئاً يختلف تماماً عن التعريفات والمفاهيم المتعارف عليها . هذا المبدأ نفسه ينطبق على الديمقراطية في النظرية وفي التطبيق وعلى النظريات الثقافية والسوسيولوجية كافة .

وهذا الاتجاه في حد ذاته كان يمكن أن يكون أساساً براجماتياً صحياً للفكر النظري وللتطبيق العملي لولا أن تأليه الذات القومية وتقديس الثقافة القومية والتجربة القومية والأساليب القومية في الحياة قد أفضيا إلى أننا فرضنا العزلة على أنفسنا بأنفسنا وإلى أننا عجزنا عن التفاهم مع بقية بلاد العالم . وقد كانت هذه هي محنة مصر الحقيقية قبل ١٩٦٧ : إنها كانت تحيا في حالة مونولوج متصل ، عاجزة عن الإرسال عاجزة

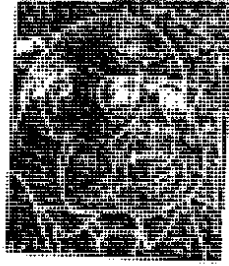
عن الاستقبال . وقد تغير هذا الاتجاه تغيراً ملموساً منذ كارثة حرب
يونيو .

وقد أدى الاعتقاد في أن الثقافة العربية مكثفية بذاتها إلى توقف
التواصل مع الثقافات الأخرى ، ولا سيما الثقافة الغربية التي كانت تقايداً
خلال القرنين الماضيين مفاعلاً جوهرياً في نهضة البلاد الناطقة بالعربية ،
ففي مصر خلال عشر سنوات كانت دراسة اللغات الأجنبية ينظر إليها
رسمياً وشعبياً على أنها من البقايا الكريهة المتخلفة من العهد البائد الذي
اشتهر باعتماده المشين على الدول الإمبريالية والاستعمارية ، ولا سيما
بريطانيا وفرنسا . وفي برامج التعليم اختصر تعليم الإنجليزية اختصاراً
مخلاً ، وغدت اللغة الإنجليزية مادة اختيارية يجوز للطالب أن ينجح
فيها أو يرسب . بعد أن كانت اللغة الأجنبية الأولى الإلزامية طوال
السنوات الخمس في التعليم الثانوي . أما اللغة الفرنسية فقد ألغيت تماماً
أو أوشكت . وكانت نتيجة ذلك أن أجيالاً وأجيالاً من الشباب كانت
تلتحق بالجامعات المصرية بدون أن تعرف من الإنجليزية أو الفرنسية
شيئاً ذا بال . وفي الوقت نفسه ، لأسباب مختلفة اضطرب وپرود الكتب
والدوريات والجرائد الإنجليزية والفرنسية اضطراباً عظيماً بعد أن
كان سيلاه متصلاً . ومنعت الدولة الدراسة في الخارج إلا لأبحاث الدكتوراه
في عدد محدود جداً من المجالات العلمية . وقصر السفر إلى الخارج
على العلاج الطبي والمهمات الرسمية ، وأخضع لإشراف الدولة . كذلك
كان الاتصال بالأساتذة والخبراء والصحفيين بل والسياح الأجانب لا يقابل

بالرضا . وبعد أن غادر مصر ثلاثة أرباع المليون من الأجانب المحليين في هجرة جماعية في بداية عهد ثورة ١٩٥٢ طراً تغيير مفاجئ وتام على المناخ الثقافي والاقتصادى والاجتماعى . قلم تعد القاهرة والإسكندرية مدينتين « كوزموبوليت » حتى قبل حرب السويس في ١٩٥٦ بفترة طويلة . ولاشك أن الثورة كان لديها من الأسباب القوية ما يجعلها تبالغ في تأكيد اكتفاء مصر الذاتى فى الثقافة القومية ، ولكن النتيجة كانت عزلة مصر الثقافية دون أن يتولد لديها الإحساس بالعزلة . ونحن لم نبدأ نحس بالحاجة إلى مزيد من الحوار الثقافى الصادق مع بقية بلاد العالم إلا منذ عام ١٩٦٧ .

والآن ما هو الموقف منذ ١٩٦٧ ؟ لقد دار بيننا التفتيش فى أحماق النفس على أوسع نطاق منذ هزيمتنا فى حرب الأيام الستة . وقد أدرك الكثيرون منا أن مواجهتنا مع إسرائيل ليست مجرد مواجهة عسكرية ولكنها مواجهة بين شكلين من أشكال الحضارة . ومن هنا كان اعترافنا على كل مستوى بأن علينا أن ندعم أسس الدولة العصرية فى مصر ، وأن نقيم الحوار المثمر بيننا وبين بقية بلاد العالم ، ليس من الناحية السياسية فحسب ، ولكن من الناحية الثقافية كذلك . والظروف الآن تبدو ، على الأقل ظاهرياً ، مناسبة لإجراء هذا الحوار الثقافى الصادق مع الغير وداخل المجتمع المصرى نفسه . فإحساس المغرورين باكتفائنا الذاتى يتلاشى الآن بسرعة عظيمة ، ويبدو أننا مقبلون على فترة من مراجعة معتقداتنا الأساسية ونمطنا التقليدى فى الحياة واسعة المدى . وليس أدل

على هذا من القلق العام الذى يعيش فيه المثقفون المصريون اليوم . ومع ذلك فالمستقبل وحده هو الذى سيكشف إن كان القلق الحالى سيفضى إلى منهج جدلى إيجابى فى الفكر والسلوك أم إنه سيكتفئ فىنا شعور المارد الهائج المحاصر . ففى اعتقادى أن الكثير يتوقف على باوغ حل عادل لمحتتنا الراهنة ، فالناس فى قمة الغضب عاجزون عن الحوار المنطقى .



الفصل الثامن

مصر

ما وراء البحار

كان أهم ما عنيته به في أثناء رحلتي الأمريكية أمران : دراسة أحوال المصريين المقيمين في الخارج ، وأكثرهم من الأمريكان المهاجرين ، ثم جمع الانطباعات عن رأى الأمريكان في حل الصراع العربى الإسرائيلى القائم . وقد أتاحت لى تنقلاتى الواسعة عبر عشرة آلاف ميل داخل أمريكا وبين اثنتى عشرة جامعة فى اثنتى عشرة مدينة أن ألتقى بالملئات والملئات من الناس على كل مستوى وأن أناقشهم أو أن أسألهم فى هذا الموضوع وذاك . وكان أكثر من قابلت طبعاً من الأساتذة والطلاب ، ولكنى التقيت كذلك بعدد من الفنانين والمهنيين كالمهندسين والأطباء وبعدد من رجال الإعلام من صحفيين وإذاعيين إلخ . . كما التقيت بعدد من العاملين فى الأمم المتحدة . ومن هؤلاء جميعاً جمعت انطباعاتى عن هذين الموضوعين .

وفى كل بلد نزلت به كان هناك مصريون مهاجرون فى انتظارى أو فى انتظار أن ألتقى بهم على موعد ، فقد كنت حريصاً ، وكانوا حريصين على ترتيب هذه اللقاءات . وكانت اللقاءات تجرى عادة فى

١٢٣

صورة حفلات استقبال ، ومن هؤلاء المهاجرين من كانوا أصدقاء أعزاء لى رعى بهم الزمان إلى تلك الشيطان البعيدة . وفى كل مرة كنت ألتقى بجماعة من المصريين المهاجرين كنت أحس بالحزن الشديد ، فقد وجدت أكثرهم مصابا بعاهات نفسية كلها من حب مصر . ومن هؤلاء من كان شغله الشاغل ، برغم حصوله على الجنسية الأمريكية ، أن يثبت لى أنه مصرى أكثر منى وأنه يعرف مصر أكثر مما أعرفها . ومنهم من حصل على الجنسية الأمريكية وهو يستحى أو يخاف أمامى أن يقرر ذلك فتراه ينكرها بشدة . ومنهم من يشكو لك القنصلية المصرية لأنها ترفض منذ عشر سنوات تجديد جواز سفره المصرى . ومنهم من يشكو لك وزارة الداخلية المصرية لأنها لا تعنى منذ عشر سنوات بأن ترد على طلبه بالإذن له بالعمل فى الخارج ومنهم ومنهم . لكل منهم قصة ولكل منهم قضية ولكل منهم مشكلة مع مصر . كلهم يتحرق لزيارة مصر حيث أهله وصحبه وعظام أجداده . وربما بعض المصالح المتعلقة . وأكثرهم يخشى أن يزور مصر فلا يؤذن له بتأشيرة خروج . هذا بسبب الضرائب وذلك بسبب الخدمة العسكرية والثالث بسبب إذن العمل والرابع بسبب نفقات الدراسة التى تطالب بها إدارة البعثات ، إلخ .

وكننت دائماً أسأل كل من أصادفه ، هل أنت سعيد فى أمريكا ؟ فيكون الجواب دائماً : نعم ، ولكن فيما يشبه التأوه على شىء ضائع هو نفسه الضائعة . ووجدت أكثرهم لا ينقصه شىء من ماديات الحياة : الفيلا والسيارة والأثاث المريح والدخل الكافى والعمل الناجح ، ومع ذلك فهو فى

قرارته يخفى قلقاً مكبوتاً يطفح من حين لحين . هذا بسبب بناته اللاتي بلغن سن الزواج و لا يريد لهن أن يتزوجن من شبان أمريكيين ، وذلك لأن صديقاً له قتل في حادث سيارة فدفن في أرض غريبة بغير شعائر دينه ، وهكذا . ويبدو أن الدفعات الأخيرة من المهاجرين المصريين الذين نزحوا إلى أمريكا بعد حرب يونيو كانوا أقل توثيقاً في الحصول على أعمال تتناسب مع مؤهلاتهم . فكانوا يقبأون أية وظائف تعرض عليهم مهما كانت تافهة من أجل لقمة العيش ، وقد عمل منهم عدد غفير في وظائف الحراس في المخازن والجراجات وما إليها ، ومع ذلك فالمصريون المهاجرون برغم مايلم بهم من هموم العيش في وطنهم الجديد لم يفقدوا روح الفكاهة المصرية .

وقد بدأ المهاجرون القدماء يحسون بأن عليهم واجباً نحو المهاجرين الجدد ، كما بدءوا يحسون بضرورة التجمع والترابط ، وهم الآن يحاولون إنشاء جمعية من الأمريكيين المصريين تكون لها فروع في كافة بلاد أمريكا حيث يتجمع المصريون .

سألت صديقاً يعمل في الأمم المتحدة : هل هناك إحصاء بعدد المهاجرين المصريين ؟ أجابني : يرجح العارفون أنهم نحو ربع مليون في العالم كله ، توزيعهم كالاتي : ٨٠ ألفاً في كندا ، و ٨٠ ألفاً في الولايات المتحدة ، و ٨٠ ألفاً في أستراليا وبقية بلاد العالم . قال يحيى أبو بكر عندما قابلته في نيويورك : هذا تقدير مبالغ فيه . إنهم لا يتجاوزون ١٠٠ ألف في العالم كله . وعندما عدت إلى مصر اطلعت على بعض

التقارير المتصلة بموضوع المهاجرين المصريين ، ومنها مطبوعات الجهاز المركزي للإحصاء وتقرير مدير إدارة المهاجرين بوزارة الخارجية المصرية فانهيت إلى أن مصر ليست لديها أية معاومات يقينية عن عدد أبنائها العاملين في الخارج . فلو أننا اعتمدنا على حصر من حصلوا على ترخيص من وزارة الداخلية بالعمل في الخارج لوجب أن نضيف إليهم عشرات الآلاف ممن تقدموا بطلب التصريح ولم يجابوا إلى طلبهم سواء بالصمت أو بالرفض الواضح أو بالرفض المؤجل لوجود عيب شكلي في علاقتهم بالحكومة المصرية ، ووجب أيضاً أن نضيف إلى هؤلاء عشرات الآلاف من المصريين الذين تسلاوا إلى الخارج في سياحة أو في مهمة وهمية مؤقتة أو تحت ستار العلاج أو أى ستار آخر ، أيام أن كان السفر إلى الخارج شيئاً قريباً من المحظورات ، ثم رتب أمر هجرته وهو خارج مصر خشية أن يحال بينه وبين مغادرة البلاد . وإذا نحن اعتمدنا على عدد تأشيرات الإقامة والهجرة التى منحتها كل قنصلية أجنبية في مصر للدواطين المصريين كأساس للإحصاء وجب أن ندخل في الاعتبار حالات عشرات الآلاف من المهاجرين الذين لا تعرف القنصليات الأجنبية في القاهرة عنهم شيئاً إلا أنهم كانوا يوماً ما سياحاً أو طلاب علم أو زائرين مؤقتين ، فهؤلاء رتبوا أمور هجرتهم أو إقامتهم الدائمة خارج الأراضى المصرية ، كذلك لا يمكن أن يعتمد بعدد المصريين المقيمين في الخارج الذين يتقدمون موسميّاً إلى القنصليات المصرية في مختلف بلاد العالم لتجديد جوازات سفرهم - لأن هناك عشرات الآلاف من المصريين الذين

اكتسبوا الجنسيات الأجنبية وأهملوا تجديد جوازاتهم المصرية ، لا زهداً في جنسيتهم المصرية ولكن كرها في التعامل مع البيروقراطية المصرية في مصر والخارج بعد أن يشسوا من التفاهم معها بسبب جمود القوانين واللاوائح المصرية المطبقة عليهم .

بعبارة أخرى ليست هناك وسيلة واحدة بعينها نستطيع أن نحصر بها عدد المصريين المهاجرين والمصريين المقيمين في الخارج إقامة متصلة وإنما لا بد من اللجوء إلى خمس أو ست وسائل ربما كان في مقدمتها البحث الميداني . أو البحث على الطبيعة ، في مختلف بلاد العالم . وسواء أكان عدد المصريين المهاجرين أو المقيمين في الخارج ربع مليون أو مائة ألف . فهذا العدد في الحالين عدد رهيب ، وهو يجعل من اغتراب المصريين مشكاة قومية يجب أن تدرس على مستوى المسؤولية سياسياً واقتصادياً وثقافياً ولا يترك أمرها لمجرد موظفين بير وقراطيين يطبقون قوانين واولائح أكثرها وضع في ظروف غير طبيعية أو كان برغم سلامته ينفذ في جو غير طبيعي . فإذا عرفنا أن عشرات الآلاف من هؤلاء المهاجرين والمغتربين ينتمون إلى طبقة المهنيين والفنيين كالأطباء والأساتذة والمهندسين أدركنا أن النزيف الذي نزفته مصر سنوياً عبر عشرين عاماً من خبرتها المهنية والفنية بل والمالية كان غزيراً حقاً . ولا أظن أن السبيل الحقيقي إلى وقف هذا النزيف هو المنع والحظر والنهي والحد من حرية التجول ، لأن هذه الإجراءات قد أثبتت تجربة الأعوام والأعوام أنها هي التي أفضت إلى هرب الآلاف المؤلفة من الخبرات المصرية إلى الخارج . وأنا

شخصيًا أعرف نحو مائة حالة معرفة شخصية قرر أصحابها الإقامة المتصلة في الخارج ، بل اكتساب الجنسيات الأجنبية أحياناً ، خشية أن يعودوا إلى مصر فتمنع عنهم تأشيرة الخروج ، فيحال بينهم وبين دراساتهم العليا أو بين أعمالهم التي يزاوونها في الخارج . وإنما يكون وقف هذا النزيف بدراسة الأسباب التي أفضت إليه وتفضى إليه ومحاولة إيجاد علاج له .

وقد كنت أدأب على طمأننة كل من أعرف ومن لا أعرف من المصريين في الخارج إلى أن المناخ العام قد تغير من هذه الناحية في مصر تغيراً محسوساً ، وأحسهم على زيارة مصر التي يتحرقون إلى زيارتها . ومع ذلك كنت أحس بأن إحساس المطارد لم يفارقهم منذ تلك الأيام التي كانوا فيها بالفعل مطاردين من مكاتب البعثات ، وكانت تهددهم باويل والثبور لأنهم تجاوزوا فترة البعثة المقررة ، ومن القنصليات المصرية التي كانت ترفض تجديد جوازات سفرهم . وكنا بعد كل مناقشة حزينة ننتهي إلى هذا السؤال : كيف تضمن لنا العودة إلى أعمالنا ؟ لا تضمن هذا إلا قرار من رئيس الجمهورية أو من مجلس الوزراء ينظم من جديد علاقة المصريين المغتربين بما يسمونه هناك وأسفاه ، « الوطن الأم » ، يقصدون « مصر » . لقد كنت أؤثر أن نسمى نحن أبناءنا المغتربين في أرجاء العالم الأربع « مصر ما وراء البحار » . وأنا شخصيًا لا أحب كلمة « المهاجرين » وأفضل أن ننظر إلى جميع أبنائنا النازحين عنا على أنهم مصريون مقيمون في الخارج ، إلى أن يتنازلوا باختيارهم التام عن

جنسياتهم المصرية :

أعتقد أننا يجب أن ننظر إلى موضوع أبنائنا المقيمين في الخارج بعقلية جديدة ونفسية جديدة ، فثلاثهم عندي مثل الابن أو البنت في الأسرة إذا تزوج من أجنبية أو من غير دينه أو تزوج على هواه : هل تبتره الأسرة بتراً وتنبأ منه أو تحاول أن تقبل منطقته وتحترم إرادته وتقيم الود معه موصولاً ؟ في المنطق التقليدي المحافظ طبعاً تنبذه الأسرة وتلعنه وتطرده طرد الكلاب . أما في المنطق المتمدن فهي تحاول أن تقيم معه علاقات متضجرة مهما كان أسفها لقراره وأيا كانت بواعث هذا الأسف . فما بالناس إذا كانت الأسرة نفسها في كثير من الأحيان هي المسؤولة عن هذا الخطأ — إن كان هذا خطأ — بتزمتها أو رجعيتهما أو تقثيرها على أبناء من دون أبناء أو عدم تقديرها لمشكلات المراهقة أو . . . إلخ . . . وقد ارتكب بعض المسؤولين في حق بعض المصريين المقيمين في الخارج أخطاء أدت إلى هذا الانسلاخ الفظيع الذي غير مجرى حياة عشرات الآلاف من أبناء مصر وجعلهم يقررون الإقامة في الخارج بل فرض عليهم فرضاً الإقامة في الخارج .

خذ مثلاً حالة طالب البعثة أو الإجازة الدراسية يفصل من بعثته ومن عمله في مصر بسبب تجاوزه المدة المقررة لبعثته أو إجازته الدراسية لتلكته في العودة إلى مصر بعد انتهاء دراسته ، أيا كانت أسباب هذا التجاوز أو التلكؤ ، مشروعة كانت أو غير مشروعة . بالطبع هذا يرتب مسؤولية مدنية على طالب البعثة أو الإجازة الدراسية أن يرد للحكومة



المصرية الأموال التي أنفقتها على تعليمه في الخارج ، هذا حق مدني واضح وصريح ولا يجادل فيه اثنان ، ويمكن للدولة أن تحصل عليه بحكم قضائي بسيط قابل للتنفيذ في مصر على أموال المبعوث الآبق إن كانت له أموال . ولكن ما علاقة هذا الحق المدني بسحب صفة المواطنة سحباً عرفياً وفعلياً عن المواطن المدين للدولة سواء أقام داخل البلاد أو خارجها؟ لقد كانت قنصلياتنا في زمن ما ترفض تجديد جواز سفر أى مصرى يفصل من دراسته أو من عمله أو لا يعود إلى مصر فور إخطاره بالعودة ، وهو إجراء غير دستوري قائم على بعض القرارات الإدارية الحمقاء التي اتخذها مسئولون غير مؤهلين لتحمل مسئوليات مناصبهم ، لأن إلغاء جواز سفر أو سحبه أو تعطيل فاعليته ينطوى على درجة من درجات إسقاط الجنسية عن المواطن ، واسقاط الجنسية بنص الدستور لا يكون إلا وفقاً لأحكام القانون . ولا أعتقد أن هناك قانوناً من قوانين مصر يجيز إسقاط الجنسية المصرية عن المصريين المدينين للحكومة أياً كانت طبيعة هذا الدين . وفي اعتقادي أن أى مواطن في الخارج رفضت القنصلية المصرية - التابع لها - تجديد جواز سفره لأى سبب من الأسباب إلا صدور قرار رسمى من الجهة المختصة بإسقاط الجنسية المصرية عنه يستطيع أن يحتكم إلى القضاء ويطالب الحكومة بالتعويض الكافى عن الأضرار المادية والأدبية التي وقعت عليه بسبب تشتيته في بلاد الأرض بلا هوية أو مواطنة وحرمانه من رؤية آله وعباله ورعاية مصالحه في مصر إن كانت له مصالح . وفي رأي أن الحالة الوحيدة التي يجوز للسلطات

فيها أن تسقط الجنسية المصرية عن المواطن المصري غير الإدانة بالخيانة العظمى بحكم القضاة الطبيعيين هي الفرار من الخدمة العسكرية أو رفض القيام بها عن إصرار وتبنييت يتأكدان أمام القضاء الطبيعي . أما مادون ذلك فحقوق والتزامات مدنية أو جنائية لا علاقة لها بصفة المواطنة أو بالجنسية التي يولد بها كل مصري كما يولد بلون جلده وبشكل عينيه وبطول قامته ولم يمنحها أحد لأحد . وما منحه الله لا يأخذه الإنسان .

وفي اعتقادي أنه ينبغي النظر إلى أبنائنا المقيمين في الخارج . عاملين كانوا أو غير عاملين ، لا على أنهم مهاجرون وإنما على أنهم « مصريون مقيمون في الخارج » حتى ولو اكتسبوا جنسيات بلاد أخرى لتصريف معاشهم إلا من طلب باختياره التنازل عن جنسيته المصرية . وبهذا المنطق ينبغي أن نسوى بين المصري المقيم في أوروبا أو أمريكا أو استراليا إلخ . . وبين المصري المقيم في أية دولة من الدول العربية . فما دامت الحدود السياسية قائمة بين الدول العربية فاعتقادي أنه خدش للدستور البلاد الذي نص على أن المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات ، التمييز في المعاملة بين مواطن مصري مغترب يعمل في أوروبا أو أمريكا ومواطن مصري مغترب يعمل في السعودية أو الكويت أو الجزائر ، فنعامل الأول معاملة المهاجر في حين نعامل الآخر معاملة المصري المقيم في الخارج ، ونسقط الجنسية عن الأول أو نكرمه على التنازل عنها بحيث لا يعود إلى مصر إلا عودة الأجنبي ، على حين نحفظ للآخر كافة حقوق المواطنة ، بل إننا بذلك نعاقب أبناءنا الشجعان الذين لم يتهيبوا

من التحدى الأكبر ، وهو أن يبحثوا عن الرزق والمستقبل بين أقوام أعلى منا حضارة ولا مكان بينهم لأجنى إلا إذا كان ذا قدرات خاصة تحتاج إليها مجتمعاتهم ، ونسحو مع أبنائنا الذين يمشون فى دروب ممهدة وبين أقوام تكفى فيها الخبرة المألوفة لأنها ناقصة فى أكثر الخبرات . وقد التقيت بتلامذة لى يدرسون اللغة الإنجليزية وآدابها فى مدارس إنجلترا وأمريكا للطلبة الإنجليز والأمريكان ، وعندى أن مهمة هؤلاء أشق عشر مرات من مهمة أولئك الذين يدرسون اللغة الإنجليزية وآدابها فى مدارس العراق أو الكويت أو الجزائر . ومع ذلك تركت الأولين يشكون مشكلاتهم المصرية فى حين يعمل الآخرون تحت جناح مصر ورعايتها .

والمهم فى كل هذا أن نتوصل إلى الحلول الحاسمة التى تريح كل أبنائنا المبعثرين هنا وهناك وفى كل مكان . وأقترح فى سبيل ذلك العمل بالمبادئ التالية :

١ - أن يصدر قرار يحظر على أية سلطة إدارية منع أى مواطن مقيم فى الخارج لأى سبب من الأسباب للعمل أو لغير العمل ، للعمل بتصريح أو بغير تصريح ، من تجديد جواز سفره ، إلا فى الحالات التى تتوفر فيها أركان إسقاط الجنسية ، وأن يكون القرار المذكور بأثر رجعى .

٢ - أن يصدر قرار يحظر على أية سلطة إدارية منع أى مواطن مقيم فى الخارج من العودة إلى محل إقامته بعد زيارته لمصر لأى سبب من الأسباب وبأية حجة من الحجج .

٣ - أن يصدر قانون بأثر رجعى يبيح لأبنائنا المقيمين في الخارج الجمع بين جنسيتهم والجنسية التي يكتسبونها لكسب عيشهم بحيث لا يفقد « المصرى المقيم في الخارج » جنسيته المصرية إلا إذا تخلى عنها بمحض إرادته أو أدين قضائياً بتهمة الهرب من الخدمة العسكرية .

٤ - أن تنشأ بكل سفارة مصرية في الدول التي يتجمع فيها المصريون المقيمون في الخارج إدارة للمغتربين تتولى حصر أسماء المقيمين في الخارج وأعمالهم ووسائل الاتصال بهم وتنظيم علاقاتهم بمصر ، كما تتولى رعاية الجمعيات والنوادي التي ينشئها المصريون المقيمون في الخارج ، وتتولى تنظيم تعليم أبنائهم اللغة العربية ومبادئ الدين والتاريخ القومى .

٥ - أن تحصن بقوة القانون أموال المصريين المقيمين في الخارج المودعة لدى البنوك المصرية بحيث لا يعزف المصرى المغترب عن إيداع أمواله في البنوك المصرية خشية أن تعصف بها تقلبات القوانين .

٦ - أن يصرح للمصريين المقيمين في الخارج بتملك الأتيان الزراعة والعقارات وأن يستثمروا في الاقتصاد المصرى داخل مصر وخارجها حتى ولو كانوا قد اكتسبوا جنسية أخرى ، ولا يحظر عليهم إلا التصرف فيها بالبيع أو التنازل لأشخاص أو هيئات لا تحمل الجنسية المصرية .

٧ - أن يصدر قرار ينص على أن كل مصرى مقيم في الخارج يتقدم بطلب للإذن له بالعمل في الخارج ولا يصله رد من الجهات المختصة

عن طريق قنصليته خلال شهرين من إيداعه الطلب يعد طلبه مقبولا بصفة تلقائية ، وإنه في حالة الرفض يجوز له الاحتكام لمجلس الدولة في دائرة للأمور المستعجلة تنشأ خصيصاً للفصل في هذه الأمور وأمثالها . أما المواطنون المقيمون في مصر فتختصر المهلة إلى شهر واحد . مع تمتعهم بحق اللجوء إلى محكمة القضاء الإداري .

هذه بعض التيسيرات التي يمكن أن نقدمها لأبنائنا المقيمين في الخارج ، أن نجعلهم يحسون من أعماق قلوبهم بأن مصر لا تزال وطنهم ، لا مجرد وطنهم الحاني عليهم برخيص العواطف التي لا تكلف شيئاً . ولكن وطنهم الذي يملكون ترابه كما نملكه نحن المواطنين المقيمين . وأنا لست مع المغالين الذين يقوون « ما يبقى على المداود غير شر البقر » فهؤلاء يذهبون إلى النقيض الآخر في تمجيد الحياة خارج حدودنا ، وإنما أقول إن أبناءنا المقيمين في الخارج لا هم « خونة » ولا هم « خير البقر » . وإنما هم مجرد مصريين طموحين بالفعل أو بالوهم إلى حياة أفضل ، أو مصريين قلقين تولد عندهم شعور بالاضطهاد أو الاحباط بالفعل أو بالوهم . ولو أردت أن « تفرز » فصائل الصادقين لخصت لكل سيرة ملفاً جسيماً تتوه في أوله ومنتهاه . وبين هؤلاء وأولئك اندست النسبة المألوفة من المغامرين ومن الشواذ ممن تجدهم في أي مجتمع من المجتمعات ، فلنقل إنهم أبناءنا يبحثون عن حظهم في الحياة ولتتمن لهم التوفيق أينما يذهبون .

المهم في كل هذا أنه لا ينبغي أن نسمع مصرياً في الخارج يقول لك :

١٣٥

عمرى الآن ٤٤ سنة . تخرجت بتفوق فى كلية الهندسة جامعة القاهرة عام كذا وأردت أن أتم دراسة الدكتوراه فى النمسا فرفض طلبى فى البعثة ورفض طلبى فى أن أتعلم على نفقتى ، فتوسلت إلى السفر المؤقت إلى فيينا وأنا فى الخامسة والعشرين ، وهناك أتممت علومى بامتياز بعد أربع سنوات فصالت فى أثنائها من عملى فى مصر ، فعينتنى جامعة فيينا مدرساً بها سنوات . ثم عينت أستاذاً بجامعة كذا فى الولايات المتحدة سنوات ، ثم عينت مديراً لمصانع كيميائية بمدينة كذا سنوات ، ثم عرض على كرسى الكيمياء فى جامعة كذا بمرتب ٣٠ ألف دولار سنوياً ، وميزانية أبحاث مشابهة ، فقبلت العرض برغم أن دخلى من إدارة المصانع كان يربو على دخلى من الجامعات فأنا أحب التدريس . وفى كل مرة كنت أطلب تصريحاً بالعمل فى الخارج فلا يأتينى رد . وأصحاب العروض طبعاً لا يستطيعون انتظار الحكومة المصرية . . . وكلما أردت تجديد جواز سفرى ، قالوا : لا بد من شهادة المعاملة ، أو قالوا لا بد من إذن عمل . لكم أحب أن أزور مصر وأهلى . وهنا تقول : وماذا يمنعك ؟ فيجيب : وهل تضمن لى تأشيرة الخروج ؟ إن جامعتى لا تستطيع أن تنتظر . وحاولت أن أشرح له أن الأمور قد تحسنت من هذه الناحية . وبدأ عليه الاقتناع ، غالباً ليس بسبب كلامى ، ولكن بسبب ما يقرؤه فى الصحف الأمريكية عن تغير المناخ فى مصر .

وتسمع آخر يقول لك : أنت تعرفنى وتعرف زوجتى . نحن الآن

في الخمسين .. كنا من أوائل خريجي كلية الآداب في أثناء الحرب .
أكلوا حتى وحقها في البعثة نحو ١٥ سنة برغم أننا انتهينا إلى التدريس
في جامعة عين شمس ، وأخيراً حصل كل منا على إجازة دراسية في
أمريكا وكنا في نفس الجامعة فتزوجنا . وأنت تعرف مرتبات مصر الضئيلة .
كانت تحول لنا فلا تكفي ، واضطررنا للتدريس في المدارس الثانوية
الأمريكية لنكمل دخلنا فتعطلنا سنتين ، ثم انتقلنا إلى إنجلترا لأنها أرخص
وفيها تعطلنا سنة أخرى . وطابت جامعة عين شمس منا العودة فوراً وكل منا
على بعد ستة أشهر من الدكتوراه ، فلما لم ننفذ الأمر وطلبنا المد فصلنا معاً .
وقد حصل كل منا على الدكتوراه واشتغلنا في إنجلترا . ومنذ فصلنا وتجديد
جواز سفرنا أصبح مشكلة . طلبنا إذن عمل فلم يصل إلينا رد . ماذا نفعل ؟
هل نتصور جوعاً في انتظار رد الحكومة ؟ طبعاً لا . إنهم يطالبوننا برد
ما أنفق علينا ، ولكنهم نسوا أن لكل منا معاشاً مستحقاً عن خدمة عشرين
سنة . ونحن على استعداد لإجراء مقاصة وتقسيط ما يتبقى علينا ديناً
للحكومة . لماذا يرفضون تجديد جواز سفرنا ؟ ماذا جنينا ؟ لقد دفعونا
دفعاً إلى طلب الجنسية البريطانية . لكم نتمنى أن نزور مصر ، ولكننا
نخشى أن ندخل فلا نخرج

صورة رهيبة عن مصر عند المصريين المقيمين في الخارج ، ولن
يفلح في إلزائها إلا صدور قوانين وقرارات رسمية على أعلى مستوى
لتععيد الطمأنينة إلى النفوس . إن بعضهم - ربما أكثرهم - يعرف فعلاً
أن هذه التخوفات لم يعد لها ما يسوغها . فإخوانهم في ظروف مشابهة

١٣٧

يدخاون الآن ويخرجون فلا يتعرض لهم أحد ، ولكنهم يحسون أن كل هذا التغير فى المناخ مجرد تغير فى العقلية والجراءات الإدارية وليس محصناً بالقرارات والقوانين . بعبارة أخرى هى سماحة فردية مقترنة بظروف فترة تاريخية معينة ، وقد تنقلب السماحة إلى جهامة بين يوم وليلة . لأنهم باختصار يأملون فى تنظيم لأحوال المغتربين له قوة الدساتير ، وليس رهينا بالقرارات الإدارية .

وهذا ما ينبغى أن نسعى لتحقيقه . أن نجعل المصريين المقيمين فى الخارج يتجولون فى أرض مصر محررين من الخوف كما يتجولون فى أى أرض غريبة

أعرف أستاذاً مصرياً فى جامعة أمريكية يقضى إجازته السنوية كل عام مع أسرته فى قبرص أو فى لبنان أو فى إيطاليا ، يحوم حول مصر من بعيد دون أن يجرؤ على الدخول اتقاء للمجازفة . وأعرف آخرين قالوا لى فى حزن عميق : لن نموت فى بلاد الغرب . إننا عائدون . وعندما نقرب من سن الشيخوخة سوف نرجع إلى حيث جئنا لنموت على ضفاف النيل العظيم .

ألم يكن هذا ما يفعله الإنجليزى أو الفرنسى حين كان يقضى عامة حياته موظفاً أو تاجراً أو صانعاً فى مصر والسودان أو فى مجاهل إفريقيا ، وبعد أن تنقضى حياته العملية كان يتقاعد فى بلاده حيث تنتظره داره الريفية ورصيده فى البنك وذكريات حياته الحافلة بكل الألوان ؟ ولماذا لا نمهد منذ الآن لعودة المستوطن المصرى فى نأى البلاد بعد أن يستوفى أجل

جهاده من أجل الرزق إلى صدر أمه الحنون التي تحمل همه في حضوره
وفي غربته وتتبعه بعيون مملوكة في الحل والترحال ؟ فإن شاء بعد كل
هذا أن يتخذ لنفسه داراً غير داره وقوماً غير قومه مآباً ، جاده الغيث
إذا الغيث همى أينما دبت قدماه أو ارتاح رميحه في رحاب الله الواسعة .



الفصل التاسع

المسألة المصرية

عفواً إذا تكلمت في السياسة ولكنه شيء لا مفر منه بعد رحلتي الأمريكية .

كان الموضوع الآخر الذي اهتممت به في أثناء زيارتي لأمريكا بعد دراسة أحوال المهاجرين المصريين ، هو دراسة آراء الأمريكيين في الصراع المصري الإسرائيلي بصفة خاصة ، وفي الصراع العربي الإسرائيلي بصفة عامة . والحق أني كنت أينما ذهبت في أوروبا ثم في أمريكا أجد هذا الموضوع يطرح نفسه من تلقاء نفسه .

ولم يكن في الكلام أية درجة من درجات الغموض هنا أو هناك . كانوا في فرنسا واضحين ، وكانوا في إنجلترا واضحين . كذلك كانوا في أمريكا أوضح من الوضوح . وقد سبب لي هذا الوضوح حيرة حقيقية لأن بعض ماشاع بيننا في مصر من آمال متفائلة حول إمكانيات التوصل إلى حل سلمى مع العدو الإسرائيلي لا يمكن استخلاصه بثبات مما سمعت من آراء في أمريكا وفي غير أمريكا . فمن أين جاء اللبس إذن ؟

هناك تفسيران : إما أن هناك مشكلة لا تفاهم لغوى حقيقى بيننا وبين الأمريكيين : يقولون شيئاً فنفهم شيئاً آخر لا اختلاف عاداتنا عن

عاداتهم في التعبير ، وإما أن الأمريكيين ، حينما كانوا يخاطبوننا في أمر التسوية السلمية كانوا يستخدمون لغة مبهمه ملفوفة تحتل أكثر من تخريج ، لغرض في نفس يعقوب أو مجرد ترك باب الحوار نصف مفتوح .

وللقوم هناك عادات في التعبير تحتاج إلى معرفة خاصة ، لأنها وليادة تمرس حضارى معقد عبر مئات السنين . فهم إذا أرادوا مثلاً أن يرفضوا لك طلب استخدام بطريقة مهذبة فرما قالوا : إن مؤهلاتك أعلى من الوظيفة المطاوعة ، والمقصود طبعاً في بطن المتكلم أنك ستكون — لو استخدمناك — موظفاً قلقاً متدمراً ساخطاً مشاغباً لا يشتغل بأداء عمله بقدر ما يشتغل بالمطالبة بتصحيح وضعه و«المريسة» على أقرانه ، فتفهم من الكلام أنهم يعظمونك ، وهم في حقيقة الأمر يغلقون الباب في وجهك وهكذا .. ولكن هناك أيضاً احتمالاً آخر قوياً ، وهو أن أميركا منذ البداية ضالعة في المخطط الإسرائيلي بحيث أنها سخرت نفوذها الشخصي لوقف إطلاق النار بقصد تدجيج إسرائيل بالسلاح استعداداً لحولة قادمة ، أى أنها تكرر نفس لعبة «هدنة ١٩٤٩» .

كذلك هناك احتمال ثالث قوى لا يمكن استبعاده ببساطة وهو أن أميركا — كما يقال — أمريكتان : أميركا البنتاجون والسي آى ايه ، وهى التى تملك القوة الحقيقية في توجيه السياسة الأمريكية والعمل الأمريكى ، وأمريكا وزارة الخارجية ، وهى الطرف الأضعف الذى لا يملك إلا حسن النية . وهذا هو الطرف الذى سمح لنفسه أن يتفاوض معنا ويوهمنا

بأن الحلول السلمية ممكنة وشيكة ، دون أن تكون له الفاعلية الكافية لترجمة وساطته من فكر إلى فعل . فنحن إذن فريسة سياسة وموظفين لا يملكون من أمرهم شيئاً أو يلعبون بقضيتنا في صراعهم مع المؤسسة العسكرية الأمريكية للتأثير على قرارات البيت الأبيض .

وقد قرأت في أثناء وجودي في أمريكا مقالا هاماً للمعلق الصحفي المعروف جوزيف كرافت نشرتته مجلة النيويورك تايمز الأسبوعية صور فيه ذلك الصراع بين خبراء الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأمريكية وبين القوى الحقيقية الموجهة لقرارات البيت الأبيض ، ومنه نستخلص أن هؤلاء الخبراء ، وهم نحو مائتي خبير ، لا حول لهم ولا قوة إزاء القوى الحقيقية التي تؤثر في صياغة قرارات رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . وفي المقال استهانة شديدة ، ليس فقط بفاعلية هؤلاء الخبراء وإنما أيضاً بقدراتهم وبجديتهم بل بصلاحياتهم لتحمل المسؤوليات التي يتقلدونها . وحين نشر هذا المقال كان له دوى كبير بين كافة المهتمين بشئون الشرق الأوسط في أمريكا ، وقد قوبل بامتنعاض شديد من أكثر « أصدقاء العرب الأمريكيين » ولا سيما كبار الخبراء الذين تربطهم بالشرق الأوسط صلات عمل أو مصالح . ولم أجد تفسيراً للغضب العام على هذا المقال إلا أنه « فقع الدم » الحقيقي في سياسة أمريكا حيال مشكلات الشرق الأوسط . فلنقل إنه مقال كتبه رجل يهودي من شأن أصدقاء العرب في أمريكا ، ولكن ربما كان من النافع أن نستمع حتى إلى كلام الأعداء .

ونخلاصة القول أنى وجدت فى فرنسا ، ولا سيما بين المحافظين ، ميلا قويا إلى تفهم وجهة نظر المصريين والعرب بعامة ، وبتبنيها فى إطار إمكانيات فرنسا المحدودة ، ميلا نابعا من الديبلوماسية القائمة على مبدأ استقلال إرادة فرنسا داخل المعسكر الغربى وعلى استرداد فرنسا لحيبتها ومصالحها فى البحر المتوسط بالذات وفى العالم العربى بصفة خاصة . أما الاشتراكيون الفرنسيون فهم أقرب إلى تفهم وجهة نظر إسرائيل ولكن فى غير نطاعة أو رفض تام للحوار مع العرب . وقد نصحنى فرنسى من أهل اليمين أن نحاول الإكثار من الحوار مع اليسار الفرنسى المضلل بالشعارات ، مع ميتران وكل ما هو على يسار ميتران ، لأن كسب اليسار الفرنسى سيقبل من أشياع إسرائيل فى فرنسا . وقد تركت المظاهرة التى قام بها يهود فرنسا احتجاجاً على زيارة بريجنيف لباريس فى أكتوبر ١٩٧١ استياء عاماً بين الفرنسيين ، وبدأ بعض المثقفين الفرنسيين حتى من أهل اليسار ، يرتابون بالفعل فى ولاء يهود فرنسا لفرنسا نفسها وتقديم تشييعهم لإسرائيل على حرصهم على مصالح فرنسا التى يخدمها التقارب الفرنسى السوفيتى . وقد ذكر لى مسئول فرنسى من كبار خبراء الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الفرنسية أن فرنسا قد استنفدت فى المحادثات الرباعية كل الوسائل لإقناع أمريكا بالضغط على إسرائيل لتنفيذ قرار الأمم المتحدة ولكن دون جدوى . وقد كان الطابع العام للمحادثات الرباعية ووقوف فرنسا وإنجلترا والاتحاد السوفيتى فى جانب ووقوف أمريكا بمفردها فى جانب ، ولما كانت

١٤٣

الدول الثلاث لا تملك غير الإقناع سبيلا ، فقد أحبطت أمريكا بمفردها كل المداولات في المحادثات الرباعية ، ولم تبق إلا وسائل الضغط على أمريكا وهو ما لا تملكه الدول الثلاث .

هذا الموقف نفسه هو موقف إنجلترا مع شيء من التخفيف ، وقد اعترف لي صديق من كبار المسؤولين عن المنطقة العربية في وزارة الخارجية البريطانية بأن البريطانيين قد حاولوا ما استطاعوا لإقناع الأمريكيان بوجهة نظرنا ولكن دون جدوى ، وبأنهم لا يملكون «الضغط» لأن بريطانيا الآن أضعف من أن تضغط على أمريكا . ربما . ولكن ينجيل إلى أن المصالح الأوربية التي تبلورت في الضمير الأوربي الذي تجلى أولا في قرار الأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٦٧ ، ثم تجلى في تجديد هذا القرار منذ شهرين في ديسمبر ١٩٧١ خليقة لو وجدت من ينميتها : أن تشكل ضغطاً حقيقياً على الإرادة الأمريكية . فالدول المتقدمة لا تتكلم بعواطفها ولكن تتكلم بمصالحها . وما يسمونه القدرة أو عدم القدرة على الضغط هو في نهاية الأمر موازنة بين مصلحتين . و ينجيل إلى أننا - ربما نستعد للقتال استعدادنا الحاسم - ربما وجدنا خيراً في البحث عن المصالح « المشروعة » المشتركة بيننا وبين أوروبا وغيرها من بلاد العالم ننميتها ونعمقها لعلها تؤثر في موازين القوى . بعبارة أخرى : العمل على « عزل » أمريكا بعد أن يئسنا من « تحييد » أمريكا .

أما في أمريكا نفسها فالرأي العام قد سممته أجهزة الإعلام الأمريكية ومواقف السياسة الأمريكية ومراكز القوى الأمريكية ، فالأمر

قد تجاوز أن يكون مجرد سيطرة يهود أمريكا أو الصهيونية العالمية على الصحف والإذاعة والتليفزيون كما يحاول البعض أن يتوهم ويوهم الغير . وأنا لا أحاول بهذا أن أقلل من فاعلية النشاط الصهيوني خاصة واليهودي عامة في أمريكا ، ولكنى أقول إن المبالغة في التهويل من شأنها خرافة سياسية نشرها وينشرها أصدقاء أمريكا في كل مكان ولا سيما بيننا ، ليصوروا للناس أن الأمريكان قوم أطهار أبرار ، وأن كل شططهم ضدنا أو في مصلحة إسرائيل مصدره هذه الحفنة من المملعين اليهود الذين يلعبون بمقدرات مائتي مليون أمريكي ، وهم لا يتجاوزون خمسة في المائة من مجموع السكان . وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا المجال هو أن يهود أمريكا هم أحد « مكونات » هذه الصورة الجسيمة المعقدة لا أكثر ولا أقل . ومن يتأمل الأمر جيداً يجد أن قوتهم ربما كانت نتيجة وليست مجرد سبب لموقف أمريكا من قضايا الشرق الأوسط ومن تكوينه الجيوبوليطيقي . وفي أمريكا عتاة من أعنى الطبقة الحاكمة المحافظة ومراكز القوى المحافظة من فصائل « الواسب » وهى الحروف الأولى من « البيض ، الأنجاءوسكسون ، البروتستانت » ممن اشتهروا بعدائهم للسامية ومع ذلك فهم يراهنون بقميصهم على الوجود الإسرائيلي في المنطقة العربية ، لأنهم يرون في هذا دعماً للوجود الأمريكى وللقيم الأمريكية وللمصالح الأمريكية بطريق مباشر وغير مباشر .

مئات من الأمريكيين التقيت بهم عن معرفة وغير معرفة ، يحدثونك عن الصراع العربى الإسرائيلى ، فتجدهم أحد رجلين : كثرة غالبية

منحازة إلى إسرائيل في غير لبس ، وقلة ضئيلة ترى الأمور من زاويتنا ولكنها تصارحك القول : لا تنتظروا عوناً من الولايات المتحدة الأمريكية لحل مشكلتكم مع إسرائيل .

وقد لا حظت أن أكثر من جادلت من الأمريكيين قد ركز نقده لنا في نقطتين : الأولى هي ما يسمونه الوجود السوفييتي في مصر ، وهذا وحده في نظرهم كاف لأن تنحاز أمريكا لإسرائيل ، والثانية هي فكرتهم الثابتة عن العرب أنهم يتكلمون الآن كالحملان الوديعه لأنهم مهزومون ، ولكن إن وجدوا فرصة عاد كل شيء سيرته الأولى وتجمهروا كالذئاب الكاسرة للوثوب على إسرائيل للقضاء عليها .

وعبثاً تحاول أن تثبت للأمريكي أن الوجود السوفييتي لا يتجاوز إقادة بعض الخبراء الروس بينما بإرادتنا وأن انسحاب إسرائيل من سيناء سوف ينهي حاجتنا إلى هذه الخبرة الروسية . كذلك عبثاً تحاول أن تقنع الأمريكي أن التجارب المريرة قد غيرت من عقلية العرب ، بل أثبتت أنهم أحوج من إسرائيل إلى ما يضمن لهم حدود بلادهم . فكرة عنا رسخت في أذهان الأمريكيين لا سبيل إلى محوها . وعلى كل فهناك درجة من درجات الشرف في هذه المصارحة الأمريكية ، وهي خير من الختل واللف والدوران .

أما بين المسئولين وأشباه المسئولين ، فهم لا يفتأون يرددون أمامك أن أمريكا لا تملك الضغط على إسرائيل ، وهو كلام مهذب في الرفض مفهومه أن أمريكا لا تريد للضغط على إسرائيل . وهو في نظري أدب

خال من الحياء لأن فيه امتهاناً لعقول الناس . فمن ذا الذى يصدق أن أمريكا لا تملك الضغط على إسرائيل ؟ الكل يعلم أن أمريكا فى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ لم تكن تملك الضغط على إسرائيل وحدها وإنما كانت تملك الضغط على بريطانيا وفرنسا كذلك . وهى التى أرغمت الجيوش الثلاثة على الانسحاب من مصر ، عندما تخلت عن أصدقائها الأوربيين قبل الإنذار السوفييتى وبعده . وهى التى تعاونت مع الاتحاد السوفييتى يومئذ فى تعبئة دول العالم فى الأمم المتحدة لتأييد قرار الانسحاب ، ولو أنها شاءت فى حرب ١٩٦٧ أن ترغم إسرائيل على الانسحاب لما كلفها ذلك أكثر من « زغرة » .

ولكنها كانت فى سنة ١٩٥٦ لم ترم بعد طوبة عبد الناصر ، بل كانت تأمل يومئذ تبعاً لخططها العام أن تقتلع الوجود البريطانى من مصر والفرنسى من الجزائر والبريطانى والفرنسى من كل أرجاء العالم العربى^(١) لتحل هى محل الاستعمار القديم . فلما تكشف لها أن هؤلاء المصريين لا يمكن الا اعتماد عليهم فى شىء ينفع أمريكا ، وأن مصر المشاغبة تقود المجموعة العربية لتصفية الاستعمارين القديم والجديد على حد سواء ، ربدأت بالفعل تنادى بأن يتحول العرب للعرب ، قررت أمريكا نهائياً اللعب بالورقة الإسرائيلية حتى اقبل أن يكون للسوفييت « وجود » فى مصر كما تزعم الآن . وساعدناها نحن بكثرة الصياح والضجيج والرقص حول النار وإطلاق الأسهم النارية والأعيرة الفشنك فى الهواء .

وعلى مائدة فى واشنطن اجتمعنا ، أحمد بهاء الدين وأنا ، ونفر من

أصدقاء العرب البارزين من كبار الأمريكيين كان بينهم قائم سابق بأعمال أمريكا في مصر ورجلان من كبار رجال الأعمال . قال السياسي الأمريكي : أنا لا أرى حلاً وشيكاً للمسألة المصرية الإسرائيلية ، لم يبق أمام مصر إلا أن تبحث عن القضايا المشتركة المقنعة للرأي العام العالمي فتجتمع الناس حولها . وكان كلامه مقلقاً لأنه كان يتجنب باستمرار الكلام في أمر تنفيذ قرار الأمم المتحدة أو انسحاب إسرائيل من سيناء ، وكأنما الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصرية لم يعد موضوعاً للبحث . فلما واجهته بسؤال : نريد أمثلة على هذه القضايا التي يمكن أن نجمع حولها الرأي العام العالمي ، أجاب : خذ مثلاً موضوع تدويل القدس ؟ هذه قضية أو ركزت مصر عليها لأمكن أن تجمع حولها الرأي العام العالمي المسيحي والإسلامي معاً . فاضطررتني اضطراراً إلى أن أقول له : اسمح لي أن أقول لك بوصفي مسيحياً مصرياً أن جبل سيناء يهمني تماماً كما يهمني القبر المقدس .

والمهم في كل هذا هو أنه حتى أصدقاءنا في أمريكا قد غدوا لا يرون حلاً للانسحاب الإسرائيلي من سيناء ، كأنما الأمم المتحدة وقراراتها لا وجود لها ، لأنهم يعلمون أن أمريكا تؤيد بقاء « الوضع الراهن » في مصر والمنطقة العربية كلها . وكل ما ينصحنا به هؤلاء الأصدقاء هو محاولة إجراء مزيد من الحوار بل التعاون مع بريطانيا وفرنسا وبقية دول غرب أوروبا لعل هذا يؤثر في التوازن الدولي لمصلحتنا . . والمفهوم ضمناً ، مادام هذا الكلام صادراً عن أمريكيين ، أن منطقته يقول : لقد

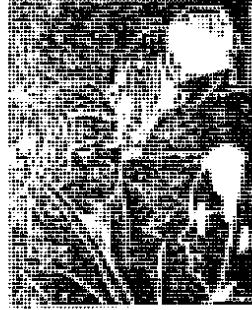
اعتمدتم على الروس أكثر من اللازم ، وهذا سر. تعتقد أزميتكم من وجهة نظر أمريكا . حاولوا أن تعتمدوا على الإنجليز والفرنسيين فتستغنوا بذلك عن السوفييت ، فهذا من وجهة نظر أمريكا أخف الضررين ، وربما كان إحراجها مع أصدقائها أدعى إلى اطمئنانها . . من إحراجها مع أعدائها .

وأنا أكتب هذا التقرير عن انطباعاتي عن الرأي الأمريكي العام حول الصراع المصري الإسرائيلي ليعلم من لا يعلم - بحسب ما رأيت وسمعت - أن انتظار أي تدخل أمريكي لمصلحتنا مضيعة للوقت وخداع للنفس ، بل لقد سمعت في أمريكا من يقول : وكيف تنتظرون منا أن نساعد على فتح قناة السويس ؟ ألكني يتجول الأسطول الروسي في البحر الأحمر كما يشاء وينفذ منه إلى المحيط الهندي ؟ .

وهذا التقرير لا أكتبه للحكومة المصرية ، فليست أشك في أن للحكومة المصرية خبراء هائلين الشرفاء في الخارج ممن يحسنون تقدير الأمور ويصدقون القول لحكومتهم ، ولكني أكتبه للرأي العام المصري ، ولأبناء الطبقات المتوسطة بيننا بصفة خاصة لأنهم من فرط عدائهم للشيوعية بالغوا في التفاؤل بالحل السلمي لمشكلة الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصرية وأسرفوا في الثقة بنوايا أمريكا أو بإمكانياتها . وحتى بعد أن استبان للخاص والعام استحالة الحل السلمي ذهبوا يشككون في السلاح الروسي فيهمولون في قوة الفانتوم ويهونون من قوة الميج ، ويشككون في قدرات الشعب المصري على تحرير أرضه بدعوى تخلفه الشديد وحاجته إلى أجيال للأخذ

بأسباب الحياة العصرية ، برغم أن هذا التخلف لم يمنع شعب فيتنام من ضرب أروع الأمثال ، واتخذوا من فلسفة بناء الدولة العصرية السليمة حجة زائفة للتهرب من المواجهة الكبرى والتضحية في سبيل الوطن . فالقصور فيهم أكثر مما هو في الشعب المصري ، لأن في مصر من أبناء هذه الطبقات المتوسطة ما يربو عدداً على سكان إسرائيل كلها ، ومن لا يقل « عصرية » عنهم . ونحن لسنا بحاجة إلى ثلاثة وثلاثين مليون مدافع لنرد ثلاثة ملايين مغتصب لو أن البورجوازية المصرية كانت حقاً على استعداد لأداء واجبها الوطني . بل هم يشككون في أهلية الفلاحين والعمال لحمل السلاح ولتحمل مسؤولية الدفاع الوطني الشعبي إذا وقعت الواقعة خوفاً من القلاقل الطبقيّة والفردية . وهكذا يعيد التاريخ نفسه ، فقد عرفت مصر حقبة أيام الاحتلال البريطاني سقط فيها الوطن بين سادة البلاد الذين جمدوا الكفاح الوطني حتى ترقى الأمة وتتحضر وبين زعماء الرعاع الذين لم يدركوا أنه لا خير في كفاح وطني لا يقود فيه الجماهير عقل الأمة المستنير . ولم ينقذ مصر في ثورة ١٩١٩ إلا وحدة القيادة والقاعدة حيث كان زعماء البلاد ومثقفوها وطبقاتها القادرة تضرب لجموع الشعب المثل الأعلى في الرضا بالنفي والتشريد والاعتقال والتضحية بالنفس والمال في سبيل الوطن . وبهذا كانت الطبقات الممتازة بمثابة طلائع للشعب المصري تتقدمه في أداء واجبه الوطني فاستحققت بذلك مقامها الممتاز . ولست أحسب أن إسرائيل اليوم أشدّ بأساً أو أكثر رقيّاً من الإمبراطورية التي لم تكن الشمس تغرب عن أملاكها ، ولست

أحسب أن الشعب المصرى اليوم أشد تخلفاً مما كان منذ خمسين سنة .
فالأمر إذن رهين فى المقام الأول بإيمان كافة أبناء الأمة بجميع طبقاتها ،
بميسورها قبل معلميها ، بقداسة تراب مصر وبقداسة الفداء لتطهير
هذه الأرض المباركة من كل قدم دخيلة تدنسها . وتكاليف الجهاد الوطنى
أولى بها مترفو هذا الوادى السعيد الشقى من بنيه الذين لم يروا منه إلا ثمار
العرق العجفاء وهى كسرة الخبز وأسمال الفقراء . لن يحرر مصر إلا بنوها ،
وليعط كل بقدر ما قد أخذ : هذه بعض سنن الشرف والحياة .



الباب الثالث

رحلتى الأوربية

الفصل العاشر

مداولات ثقافية

جاءتني دعوة من اليونسكو لحضور حلقة بحث أقامها اليونسكو في باريس يومى ٢٢ و ٢٣ فبراير ١٩٧٢ للنظر في إصدار مجلة ثقافية جديدة ربع سنوية تحمل اسم « الثقافات » ومن الوثائق المرفقة عرفت أن منظمة اليونسكو كانت تصدر لحمس عشرة سنة متصلة مجلة متخصصة في التاريخ باسم « مجلة التاريخ العالمى » ، يكتبها المؤرخون للمؤرخين ، وأن الجمعية العامة لليونسكو قد قررت أن تحتجب هذه المجلة التاريخية وأن تحل محلها مجلة جديدة يكون اسمها « الثقافات » وتكون « جامعة لكل التخصصات » ، أى يكون فيها للتاريخ نصيب ، ولل فلسفة نصيب ، وللأدب نصيب ، ولل فن نصيب ، ولل اجتماع نصيب ، ولل علوم نصيب ، لا من حيث هى علوم ولكن من حيث أثرها فى الإنسان وفى المجتمع الإنسانى .

وقد جلسنا أربع جلسات لنصل إلى قرارات فى هذا الموضوع المطروح للبحث . ووجدت كل شئ مرتباً على عادة أهل اليونسكو . وجدتني بين سبعة آخرين من الخبراء المستشارين فى شئون التحرير ، هم الكاتب الهندى المعروف ملك راج أناند عن الهند ، والأساتذة لورين باريتز بجامعة نيويورك عن أمريكا الشمالية ، وروديريجيز منيجال عن أمريكا

اللاتينية . ومالكوم برادبرى بجامعة إيست أنجليا عن بريطانيا ، وروجيه كايوا عضو الأكاديمية فرانسيز عن فرنسا والشيخ انتاديوب بجامعة داكار عن أفريقيا السوداء ، وجاستريبوفا بأكاديمية موسكو عن الاتحاد السوفيتى . أما سكرتارية اليونسكو فكان يمثلها المديرون هوجارت (الإنجليزى) وبامات (الأفغانى) وميترو (السويسرى) ، وكان هناك مراقبان عن مجالس اليونسكو : فريدمان ودورميسون . سلطة روسية تمثل مختلف الجنسيات والثقافات على عادة أهل اليونسكو وغيرها من المنظمات الدولية التى يراعى فيها دائماً أن تكون اجتماعاتها ممثلة لكل الشعوب ما أمكن ذلك . وبهذا فهمت أنى مدعو نبشيل خبراء التحرير فى العالم العربى .

وقد كان أول ما استرعى انتباهى هو ما تكبدته منظمة اليونسكو من نفقات باهظة لجمع كل هذا الحشد من الخبراء لمدة يومين فقط . فأكثر الحاضرين جاءوا من أطراف الدنيا لهذا الهدف المحدد بالذات ، ولا أحسب أن اليونسكو أنفقت على سفر كل هؤلاء الضيوف وإقامتهم أقل من ثلاثة آلاف جنيه . وقد كان فى وسع كبار موظفى اليونسكو أن ينفردوا بالرأى ويوفروا كل هذا المال ، ولكن هؤلاء القوم يدركون بما ربوا عليه من منهج علمى أن وضع الأساس هو كل شئ ، وأنه لا خاب من استشار ولا سيما فى الخطوات الأولى التى يتوقف عليها كل شئ ، فالتشاور هو العاصم من الارتجال . كذلك استرعى نظرى أن منظمة اليونسكو قد تعمدت أن تكون هيئة مستشارية كاملة من المفكرين « غير الرسميين » لأنها تعرف أن المثقفين « الرسميين » مقيدون بأفكار حكوماتهم وبنواياها .

ومنظمة اليونسكو التي تريد ان تواجه مثقفى العالم بهذه المجلة الجديدة تعرف أن « الموظفين » مهما علا قدرهم هم آخر من يستفتون فى أمر مخاطبة المثقفين .

وقد كانت أهم المشكلات التي واجهتها لجنة المستشارين هذه أربعاً :
[أولاً : مجال مجلة « الثقافات » . ثانياً : أهدافها ، وثالثاً محتوياتها .
ورابعاً : سياسة تحريرها .

وبعد مداولات طويلة انتهى الرأى إلى أن يحدد مجال المجلة على الوجه الآتى :
« الثقافات » مجلة دولية مشتركة بين كل التخصصات ، مخصصة للثقافة المعاصرة بأشمل معنى ، وهى تركز على المدخل المقارن وتنمى منهج الدراسات الثقافية » .

أما أهداف المجلة فقد حددت على النحو التالى : « أن تخاطب الجمهور المتخصص وجمهور المثقفين بصفة عامة وأن تكون حلقة ترابط بين الهيئات المعنية والمختصين المعنيين بالدراسات الثقافية وبالسياسة الثقافية وبين غير المختصين المعنيين بمختلف وجوه الثقافة » ، وقد عدّ الإصرار على ذكر « المختصين » كافياً لتحديد المستوى الرفيع المنشود فى نوعية المقالات والدراسات حتى لا يتصور أحد أنها يمكن أن تتسع للخفة الصحفية المأثورة عن كثير من المجالات .

وأما محتويات المجلة الجديدة فقد تحددت بالآتى :

(١) معالجة الحياة الثقافية بكل ظواهرها مع الاهتمام الخاص بتدعيم الدراسات الثقافية المعاصرة والعلاقات الثقافية الدولية وبالتنمية الثقافية

وبرسم السياسات الثقافية ، ومع الاهتمام الواجب بالحياة الثقافية على المستويات القومية والإقليمية والدولية .

(٢) نشر التحقيقات والأخبار المتصلة بالأحداث والاتجاهات والتطورات الثقافية الهامة في العالم كله .

(٣) الإكثار من إصدار الأعداد الخاصة التي تتناول الموضوع الواحد ، ويراعى فيها أن تتسع للتخصصات المشتركة وأن تقوم على المدخل المقارن على أوسع مدى ممكن ..

(٤) لا يجوز استخدام المجلة لنشر التقارير الرسمية ..

أما بالنسبة لسياسة التحرير فقد تحدت كمايلي : « أكدت لجنة المستشارين أن استقلال تحرير المجلة أمر جوهري ، وأوصت بأن يرجع رئيس التحرير مباشرة إلى الهيئات وإلى أكفأ المختصين في العالم » .

هذه كانت أهم قرارات لجنة المستشارين أو توصياتها وهي كما ترى مغلفة كالعادة بلغة المنظمات الدولية المألوفة الجافة الباردة المنفرة ، ومع ذلك فهي تجسد مداولات كان بعضها عنيفاً ومتلاطمات . وكانت القذائف والمتفجرات تتوالى ، ولكن بأسلوب متمدن . نخذ مثلاً هذا الرأي الذي سقته شخصياً في اجتماع لجنة المستشارين :

« أنا أسف لأن الجمعية العامة لليونسكو كانت قد اتخذت قرارها باحتجاب (مجلة التاريخ العالمى) ، فهذه كانت مجلة تاريخية متخصصة يكتبها المختصون في التاريخ للمختصين في التاريخ ، كان لها جمهورها المؤكد برغم أنه جمهور محدود . فهي بذلك

كانت مجلة ناجحة لأنها كانت تؤدي الرسالة التي أنشئت من أجلها . والمسوغ الوحيد في نظري لإصدار مجلة مشتركة بين التخصصات مثل مجلة (الثقافات) هو أن تخاطب جمهور المثقفين أو الاتليجنسيا بصفة عامة لا فئة المتخصصين . وبهذا المعنى العريض للثقافة نفهم الثقافة بأنها ليست المعرفة بل تكامل المعرفة ، أو على الأصح تحول المعرفة إلى قيم ، وحيث تبدأ القيم تكون الأحكام والاتجاهات والتيارات الحضارية والفكرية . وحيث تكون الأحكام والاتجاهات والتيارات الحضارية والفكرية لابد من ضمانات لحرية الكلمة ، وهو ما يتجاوز إمكانيات منظمة . اليونسكو ، بل كل المنظمات الدولية ، بحدودها الحالية . فمعروف أن منظمة اليونسكو تعبر عن الدول الأعضاء فيها وأن سكرتارية اليونسكو خادمة لهذه الدول الأعضاء ، خاضعة لرقابتها وتوجيهها ولا تتمتع بشخصية « فوق دولية » ، وهذا في حد ذاته يعصف بضمانات حرية الكلمة التي لا يمكن لموظفي اليونسكو القائمين بإصدار مجلة (الثقافات) أن يحموها إزاء حساسيات ممثلي الدول الأعضاء . هموا أن عالماً انثروبولوجياً كتب عن وجود بقايا لأكلة لحوم البشر في إحدى دول إفريقيا السوداء ، أو أن عالماً اقتصادياً خدش الأحوال الاقتصادية في بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية ، أو أن مفكراً درس مشكلة استعباد المرأة أو مشكلة التعصب الديني أو العنصري في العالم المعاصر دراسة تؤدي إلى استخلاص نتائج معينة . فما الضمان ألا يقف ممثل لدولة من الدول الأعضاء المخدوشة بالفعل أو بالوهم ويحتج على نشر مثل هذا البحث في مجلة

(الثقافات) ؟ إن المجالات العلمية المتخصصة هي كل ما تستطيع اليونسكو إصداره من المجالات ، لأن العلماء يستطيعون الوقوف عند الوصف والرصد والإمساك عن إصدار الأحكام ، أما المجالات الثقافية المشتركة بين التخصصات . فلأنها تخاطب المثقفين بصفة عامة فلا مفر فيها من وجهة النظر مهما كان الكاتب متخصصاً وموضوعياً ومنضبطاً في عرض أفكاره .

أنتم تريدون إنشاء مجلة مثل مجلة سارتر « الأزمنة الحديثة » أو مجلة سبندر « أنكاونتر » دون أن تكون لكم حرية سارتر أو سبندر وهذه هي المشكلة .

وأضاف روجيه كايوا عضو الأكاديمية فرانسيز : بل ما الضمان ألا تتخذ الدول الأعضاء بوسائل الضغط المختلفة من هذه المجلة أداة لنشر دعايتها من خلال تقارير رسمية محشوة بالأرقام الزاهية التي تصور أنها اللجنة على الأرض حيث لا فقر ولا جهل ولا مرض ولا تخلف ولا ظلم ولا استبداد ، ولا لا بل كل شيء عال العال .

والحق يقال إن رجال اليونسكو ، ريتشارد هوجارت وبامات وجي مترو كانوا لا يقلون تفهماً لهذا الوجه من المشكلة عن لجنة المستشارين ، أقصد موضوع اختناق مطبوعات اليونسكو وبحوثها وتقاريرها بسبب حساسية الدول الأعضاء من أى نقد يوجه إليها أو إلى أسلوب الحياة والفكر فيها ، وبهذا فقدت منظمة اليونسكو قدرتها على قيادة مثقفي

العالم ، واقتصر دورها على تقديم بعض الخدمات الفنية الجلية كإنقاذ الآثار أو المشكوك في قيمتها كخدمات التربية والتعليم .

وهذا النقص في الفاعلية بصيب كل المنظمات الدولية ، وفي مقدمتها الأمم المتحدة بدرجات متفاوتة لنفس السبب ورغم أن مجالسها ولجانها وأجهزتها الفنية تضم الآلاف من خيرة الخبراء . وقد أتيج لى في مرحلة ما من حياتى أن أعمل فى الأمم المتحدة وأمس بنفسى هذا النقص فى الفاعلية بسبب عجز لجان الأمم المتحدة عن أداء واجباتها تخرجاً من الدول الأعضاء أو خوفاً من بطشها . ومازلت أذكر كيف كان صديقى الدكتور محمد زكى شافعى وصديقى الدكتور محمود شافعى وهما من كبار رجال الاقتصاد يحملان إلى هومهما الوظيفة . فقد كانا يكلفان بإجراء الأبحاث وكتابة التقارير عن الحالة أو المشاكل الاقتصادية مثلاً فى إحدى دول أمريكا اللاتينية ، وبعد أن يعرقا ويسهرا الأسابيع فى جمع البيانات وتحليلها ويجسدا الحقائق فى صورة تقرير أو دراسة ، كان المديرين يعبثون بهذه التقارير والدراسات فيجرون عليها من التعديل فى الصياغة ، الذى يباغ أحياناً حد حجب بعض البيانات أو ذكرها بطريقة مبهمه ، ما يجعل قارئ التقارير عن الحالة أو المشاكل الاقتصادية لا يحس بوجود «مشاكل» من أى نوع كان أو يحس بأن الحال معدن فى كوستاريكا أو نيكاراغوا أو أورجواى أو باراجواى ، خشية احتجاج مندوب هذه الدولة أو تلك لو ظهر من ميزانها التجارى أنها على شفا الإفلاس أو ظهر أنها تهلك جوعاً لو توقفت الولايات المتحدة عن شراء

إنتاجها من السكر أو اتضحت تبعيتها السياسية بسبب أحوالها الاقتصادية .
 وكان المنطق السائد أنه ما كل الحقائق يصح ذكرها ، فإن كان لامناص
 من ذكرها فينبغي أن تغلف بالسيلاوفان أو تحاط بجلدة من السكر كما
 يفعلون بالبرشام والعقاقير حتى يسهل بلعها . وهذه طريقة لا بأس بها ،
 ولكنها كثيراً ما تطمس ما هو داخل البرشامة فلا تدرى إن كان
 ما تباع جرعة من البنسلين أم جرعة من الجير أو الدقيق أو المواد التي
 لا نفع فيها . وإذا كان خبراء الأمم المتحدة يتخرجون كل هذا الحرج
 من الدول الصغرى فما بالك بخرجهم من الدول الكبرى التي تدفع ميزانية
 الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة كاليونسكو والفاو وهيئة الصحة
 العالمية ومنظمة العمل الدولية .

ومن أجل هذا فإن لجنة كلجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة
 برغم التزام الدول الأعضاء بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان تكاد أن
 تكون لجنة كاملة الشلل لا يحس بوجودها أحد ، مع أن حقوق الإنسان
 تهدر كل يوم في فييتنام وفي أمريكا وفي مصر وفي إنجلترا وفي الاتحاد
 السوفيتي وفي أمريكا اللاتينية وفي أفريقيا السوداء وفي أفريقيا البيضاء
 وفي كل بلد من بلاد العالم المتحضر والمتخلف ، سواء من حيث التفرقة
 العنصرية أو الإخلال بالمساواة بين المرأة الرجل أو الإخلال بحق
 التعليم أو تشغيل الأحداث أو .. إلخ .. وقد عبر داج همرشلد
 ذات مرة عن عجز الأمم المتحدة عن أداء واجباتها المنصوص عليها
 في ميثاقها الجميل بقوله إن الأمم المتحدة ليست إلا مجموع أعضائها .



ومعنى هذا الكلام أن الأمم المتحدة قاصرة لأن الدول الأعضاء فيها غير قادرة على أو غير راغبة في الوفاء بالتزاماتها التي ارتبطت بها حين وقعت ميثاقها ، وأن الأمم المتحدة ليست لها إرادة مستقلة عن إرادة الدول الأعضاء فيها . فالأمم المتحدة ليست هيئة « فوق دولية » . وهى ليست حكومة عالمية بأى معنى من المعانى ، وبالتالي فإن سكرتارياتها العامة لا تتجاوز أن تكون مجرد خادمة للدول الأعضاء التي إن أرادت خيراً نفذت لها الخير وإن أرادت شراً نفذت لها الشر ، وإن تعلقت إرادتها أصيبت هى بالشلل . وعلى أحسن الفروض ليس للأمم المتحدة إلا سلطة أدبية أو معنوية .

وقد عبر لنا أحد مديري اليونسكو عن هذا الوضع بقوله : إن أى ممثل من ممثلى الدول الأعضاء ، يستطيع أن يقول لنا فى أى وقت من الأوقات ، نحن ممثلون لدول أو للأمم ونحن مسئولون أمام الدول أو الأمم التي نمثلها . أما أنتم الخبراء من موظفى الأمانة العامة فلا مسئولية عليكم أمام أحد إلا الدول الأعضاء التي لم تعطكم توكيلاً شاملاً وإنما عينتكم فى وظائفكم لمجرد تسيير الأمور التي تريد هى تسييرها . فالأمر إذن معلق مرة أخرى بإرادة الدول الأعضاء التي إن أرادت إعلان الحقائق أعلنتها وإن أرادت إخفاء الحقائق أخفها ، وإن أرادت حرية الفكر كفلتها وإن أرادت تقييد الفكر أو توجيهه قيده ووجهته .

وقد قال روجيه كايوا عضو الأكاديمية فرانسيز متهمكماً بهذا الوضع

١٦٣

« من أجل هذا نجد منظمة اليونسكو تناقض نفسها ، فهي من ناحية تتحدث عن واجبها نحو نشر الأبجدية بين الأميين ومن ناحية أخرى تشجع تعليم الأميين بالوسائل السمعية البصرية التي تغني الإنسان عن تعلم الأبجدية » . (والمفهوم ضمناً أن الوسائل السمعية والبصرية ليست من وسائل مكافحة الأمية بل من وسائل مكافحة التعليم ، والمفهوم ضمناً أيضاً أن مكافحة التعليم بين الشعوب النامية يجرى وفق مخطط مرسوم تستخدم فيه منظمة اليونسكو كأداة !)

وبرغم هذا الشعور الواضح لدى موظفي اليونسكو بعدم وجود ضمانات لحرية الفكر أو حرية البحث العلمي اقتنعوا كما اقتنعت لجنة المستشارين بضرورة النص على « استقلال » تحرير مجلة « الثقافات » المزمع إنشاؤها ، وضرورة النص على عدم جواز استخدامها كأداة لنشر التقارير الرسمية التي يتقدم بها ممثلو الدول الأعضاء . وكما يزيد من الضمان لمواجهة أى ضغط على جهاز تحرير المجلة من ممثلي الدول الأعضاء اتفق بصورة مبدئية على إحالة موادها على هيئة من جهابذة العصر في الآداب والفنون والعلوم الإنسانية لإقرار نشرها . وذلك كوسيلة لتحسينها ضد تدخل الدول الأعضاء بقوة رأى الثقافات الأعلام . وقد كان كل هذا نصراً عظيماً لحرية الفكر والبحث العلمي في مرحلة التخطيط . ففرجو أن تكون الخواتيم كالفواتيح .

وفي مرحلة من مراحل المداولات استدعى أحد خبراء النشر التابعين

لليونسكو ليدلى برأيه فيما ينبغي أن يطبع من نسخ من هذه المجلة الجديدة « الثقافات » . ومنه عرفنا أن « مجلة التاريخ العالمى » . كان يطبع منها ٢٠٠٠ نسخة ، وكان يوزع منها فى العالم كله نفس هذا العدد ، يباع للجامعات والهيئات والأشخاص المعنية بدراسة التاريخ . قلنا : ولكن هذا العدد الضئيل ربما يتناسب مع مجلة متخصصة بطبيعتها ، أما مجلة مشتركة بين التخصصات ، أو مجلة ثقافية جامعة كما نقول نحن فى لغتنا ، فربما كان من الأنسب مضاعفة عدد النسخ المطبوعة منها ، وعدنا من جديد إلى الحديث فى توزيع مجلة سارتر « الأزمنة الحديثة » ، فعرفنا من خبير النشر أنه كان فى المد السارترى ١٥,٠٠٠ نسخة أما اليوم فهو ٥٠٠٠ نسخة . وكان تفسير ذلك طبعاً أن السارترية نفسها فى ذبول ، وأن سارتر يتخلى فى السنوات الأخيرة عن العناية بمجلته بشخصه مفوضاً أمرها لبعض مريديه ، مثل كاود لانسمان .. وقد أخذت سكرتارية اليونسكو برأى خبير النشر الذى أشار بعدم زيادة المطبوع عن ٢٠٠٠ نسخة إلا فى حالة الأعداد الخاصة .

وأنا أذكر هذه الأرقام عن توزيع المجلات الثقافية الجادة فى الخارج ليعرف مخطوط المجلات الثقافية عندنا حقيقة ما يجرى فى العالم المتمدن ، فمجلة مثل « الأزمنة الحديثة » كانت تهز مثقفى العالم من اليابان إلى أمريكا اللاتينية لم يتجاوز توزيعها فى أقصى مداها ١٥,٠٠٠ نسخة ، وهى الآن لا تزال تعد فى طليعة المجلات الثقافية الجادة ، ومع ذلك لا يزيد توزيعها على ٥٠٠٠ نسخة فى العالم كله برغم أن « قراء » الفرنسية

١٦٥

فى العالم يعدون عشرة أمثال « قراء» العربية فلا ينبغي أن نياس إذا أصدرنا
مملة ثقافية عميقة أصيلة ، ولم يتجاوز توزيعها ألف نسخة ، فالثقافة
الحدة فى كل بلد تعان .



الفصل الحادى عشر

ما كبت الجديد

بعد أن فرغت من واجباتى نحو منظمة اليونسكو فى باريس ، وقررت علينا قراراتنا بشأن المجلة الثقافية الجديدة المزمع إنشاؤها تحت اسم « الثقافات » للتصديق عليها ، مضيت أستعرض كتالوجات المسارح ، لأعرف ماذا يجرى فى حياة باريس الفنية فوجدت بين مسارح باريس العديدة ٤٨ مسرحاً تقدم عروضاً مسرحية . وكان بين هذه المسارح عدد لا بأس به يقدم العروض الخفيفة أو مسرحيات التسلية ، وعدد لا بأس به يقدم « الإعادات » أو ما يسمونه الربيرتوار بلغة أهل المسرح ، وهى مسرحيات سبق أن رأيتها فى الأعوام الماضية . مثال ذلك مسرحيتا « الدرس » و « المغنية الصلعاء » للكاتب يونسكو اللتان كانتا تعرضان فى مسرح لاهوشيت بالحي اللاتينى بلا انقطاع خلال السنوات الأربع عشرة الأخيرة . وقد لاحظت بصفة عامة انتشار مسرحيات التسلية الجديدة فى باريس . ومع ذلك كانت هناك أركان فنية تقدم عدداً من المسرحيات الجادة العميقة . كذلك لاحظت العودة إلى مسرحيات جورج فيدو ومسرحيات جان أنوى .

ففى مسرح لا برويير كان هناك عرض لتشيكوف وبيرانديلو،
وفى مسرح بيجال كان هناك عرض لمسرحية «بازاجيه» لراسين،
مع ذلك اخترت أن أرى ثلاثة عروض جديدة كان أحدها «ماكبت»
ليوجين يونسكو. وهى تنويع على أساة شكسبير الخالدة، وكانت
تقدم فى مسرح الضفة اليسرى (الريف جوش) بمونبارناس. ثم
مسرحية «كل ما فى الحديقة ورود» للكاتب الأمريكى إدوارد ألبي
وكانت تقدم فى مسرح ماتوران. ثم عرضاً مسرحياً مقتبساً من
كتاب لوتريامون العظيم «أغانى مالدورور» كان يقدم على مسرح
تيرتر بمونمارتر. وكانت هناك مسرحية للكاتب الإنجليزى هارولد ينتر
اسمها «بالأمس فقط» عن الفرنسية (ولا أعرف اسمها الأصلى بالإنجليزية)
لم أجد الوقت لمشاهدتها فاكتفيت بقراءتها. وقد ذكر لى بعض
أصدقاءئى الإنجليز المقيمين فى باريس أن عرضها على المسرح الفرنسى
كان أفضل بكثير من عرضها على المسرح الإنجليزى.

ولنبداً بمسرحية «ماكبت» ليونسكو، وهى تجربة مثيرة فى إعادة
تفسير قصة ماكبت أو أسطورته كما ورثناها عن شكسبير. أما حكاية
ماكبت كما ورثناها عن شكسبير، فهى أن الملك دنكان، ملك
إسكتلندا، كان له قائدان كبيران هما ماكبت وبانكو استطاعا أن
يردا الغزاة وأن يخضعا العصاة، وكان أعظم القائدين هو ماكبت الذى
جمع بين الشجاعة والنبيل والولاء الذى لا يحد للملكه. وفى عودة ماكبت
وبانكو منصورين من القتال عبر البرارى، ظهرت للقائدين فى البرية

ثلاث ساحرات تنبأت إحداهن لما كبث بأنه سيصبح الإيرل (الكونت) على مقاطعة كودور ، وتنبأت له الثانية بأنه سيصبح الإيرل على مقاطعة جلاميس ، وتنبأت له الثالثة بأنه سيصبح ملكاً على أسكتلندا. أما القائد بانكو فقد تنبأت له الساحرات بأنه لن يظفر بمغانم في حياته ، ولكنه سيكون أباً وجداً لسلسلة طويلة من ملوك اسكتلندا. ثم اختفت الساحرات وتركن ماكبث وبانكو مشدوهين في البرية ، فهما يعلمان أن إيرل كودور وإيرل جلاميس لا يزالان بين الأحياء وأنه لا سبيل إلى وراثتهما ، كما يعلمان أن عرش اسكتلندا يجلس عليه ملك تقي مهاب هو الملك دنكان ، وأنه لا سبيل لخلافته على العرش لأن له ولدين في الخارج هما مالكولم ودونالدين .

* * *

ولا يلبث ماكبث أن يلتقى بمن يبشره بأن الملك قد أنعم عليه تقديراً لانتصاره على الغزاة بكونتية كودور وبكونتية جلاميس ، لأن إيرل كودور وإيرل جلاميس قد أعدمهما الملك دنكان وصادر أملاكهما جزاء لهما على قيامهما بفتنة أهلية على عرش البلاد . وهكذا تحققت لما كبث نبوءتان ، ولم تبق إلا النبوءة الثالثة ، وهي أن يجلس على عرش اسكتلندا . وهنا نبتت بذور الخيانة في قلب ماكبث الطيب الأمين النبيل بوحى من زوجته الطموحة الضارية الليدى ماكبث ، التي ما إن عرفت بما قد جرى من نبوءة الساحرات وتحقق شطر منها حتى تخيلت نفسها ملكة متوجة على عرش اسكتلندا ، وأقنعت زوجها بأن نبوءة

الساحرات هي مشيئة القدر . بل وأقنعت الليدى ماكبث زوجها أن يستقبل الملك دنكان فى قلعته وأن يغتاله ليحكم مكانه . وقد كان . وهكذا اغتصب ماكبث عرش اسكتلندا وحكم شعبه بالحديد والنار ، لأن قصة خيانتة كانت على ألسنة رعاياه فى السر والجهر . وكان أول ما فعله ماكبث هو الفتك بزميله بانكو حتى يحبط نبوءة الساحرات ويغير مجرى القدر فلا يتولى عرش اسكتلندا أحد من سلالة بانكو . وتكثر متاعب ماكبث لأن زوجته ليدى ماكبث بعد أن ارتكبت جريمتها وشاركت زوجها فى الفتك بمليكه « معبد الله المقدس » ، يثقل الوزر على فؤادها فتصاب بلوثة وتراءى لها الأشباح فى يقظتها ونومها وينتهى أمرها بأن تشق نفسها . كذلك يخوض ماكبث النبيل فى بحار من الدماء ليثبت عرشه ، وتكثر من حوله الفتن والقلاقل فيتحجر قلبه ويزداد كل يوم ضراوة حتى يغدو كالوحوش الكاسرة . وأخيراً يسقط صريعاً فى المعركة الأخيرة حين يجهز ولدا الملك دنكان جيشاً بمعونة ملك إنجلترا ويسترد مالكولم عرش أبيه . لقد تنبأت الساحرات لماكبث بأنه لن يهزم فى الحروب إلا على يد رجل لم تلده امرأة وإلا حين تتحرك غابة دنسين عن مكانها ، وقد حسب هذا كله ضرباً من المحال ، ولكن جنود مالكولم يقتلعون أشجار الغابة ويتحركون من ورائها إلى ساحة القتال ويعلم مالكولم لماكبث فى النزال الأخير أنه لم يولد ولادة طبيعية وإنما ولد بعملية قيصرية . وهكذا تنهى مأساة هذا القائد المغوار الطيب النبيل الذى لا نعرف إن كان داعيه إلى السقوط صوت القدر على ألسنة

الساحرات أم صوت زوجته الضارية ليدى ما كبت ذات القلب المعتم والعقل المسموم ، أم جرثومة الفساد الليفينة فى قلب كل حى ولو كان أشرف الشرفاء .

فماذا فعل يونسكو بهذه القصة وكيف أعاد صياغتها ؟

لقد طمس يونسكو شخصيات هذه القصة ودوافعها دون أن يطمس معالمها الرئيسية ، وحوّلها من مأساة تصور محنة الإنسان المجيد الذى يتحرك كالدمية وسط زعازع القدر العاتى إلى مأساة كل أشخاصها من الأوغاد الذين لا يعرفون من النوازع إلا الساب والنهب وشهوة السلطة والشكوك المسمومة . فلم يعد الملك دنكان كما صورته شكسبير « معبد الله المقدس » رمز حق الملك الإلهى ، بل غدا عاملاً جباناً رعيدياً لا يقوى على مواجهة أعدائه . مواجهة الفرسان ، بل يستخدم الغير لقتال معاركة . فلا هم لدنكان إلا نهب أموال نبلائه والتآمر عليهم قبل أن يتآمروا عليه . فنذ اللحظة الأولى نعرف من المتمردين كودور وجلاميس أن الملك دنكان يفرض على كل منهما جباية سنوية قدرها عشرة آلاف جواد وعشرة آلاف جندى وعشرة آلاف دجاجة ببيضها وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف خنزير إلخ . ومع كل هذا ألف بنت عذراء لفراسه (تماماً كالملك شهر يار !) ومن أجل هذا يتفق كودور وجلاميس على الثورة على هذا الملك الغاشم واقتسام عرشه من بعده لتخليص البلاد من طغيانه ، لإنهما رجل واحد ورأيهما رأى واحد . لإنهما يتكلمان كالصوت وصداه . ويقسم كل منهما على سيفه أن يكون وفيّاً لأخيه .

وهكذا يتحرك جيش كودور وجيش جلاميس عند الفجر للجمع
 دنكان ، فيهب ماكبث وبانكو للدفاع عن الملك وتكون معركة ضارية
 بين المعسكرين يهلك فيها الألوف والألوف . كذلك كان ماكبث
 وبانكو كأنهما رجل واحد لهما رأى واحد يتكلمان كما يتكلم الصوت
 وصداه ، وعندما نرى كلا منهما على انفراد فى جانب من ميدان القتال
 نسمعه يردد نفس الكلام : عبارات التفاخر بما كدس من جثث القتلى
 بين صفوف العدو : « إن نصل حسامى خضيبته الدماء ، بيدي هاتين
 قتل العشرات والعشرات . قتل المئات والمئات من الضباط والجنود
 الذين لم يؤذونى فى شىء . ومثلهم أعدمت المئات والمئات رمياً بالرصاص .
 والألوف والآلاف ماتوا ، حرقوا أحياء فى الغابات التى اعتصموا بها ،
 فأضرمت فيها النيران . عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال
 ماتوا مختنقين داخل الكهوف وتحت أنقاض منازلهم التى نسفتها .
 مئات الألوف ماتوا غرقى فى بحر المانش حين استولى عليهم الدعر
 فأرادوا عبوره . والملايين ماتوا أو انتحروا من الرعب . وعشرات الملايين
 ماتوا من الغضب أو من الفالج أو من الحزن . لم تعد فى البسيطة أرض
 تكفى لدفن كل هؤلاء الموقى . وانتفخت جثث الغرقى بكل الماء فى
 البحيرات فلم تعد فى البحيرات مياه . ولم تعد هناك نسور تكفى
 لتخليصنا من كل هذه الرمم .. إلخ » . وكل هذا فعله ماكبث دفاعاً عن
 مليكه المنمى ، حفظ الله حياته . وحين يجىء دور بانكو نجده يلقي
 نفس هذا المونولوج المضحك الذى أراد به يونسكو أن يسخر من

« فشر الأبطال الصناديد » ، يلقيه بحذافيره .

* * *

وفي مكان أمين نرى الملك دنكان والملكة زوجته يرقبان المعركة على البعد . ودنكان واجف القلب يسأل كل ضابط أو جندي يمر به : من المنتصر ؟ ترى ماذا يحدث لو انتصر كودور وجلاميس ؟ وتقول الملكة التي يسميها يونسكو الليدى دنكان : « إذن تلبس أنت دروعك وتخف إلى القتال » ، ولكن للملك رأياً آخر . أو أنهم ما كبث وبانكو فيجب أن يختبئ . ولكن أين يختبئ ؟ إن أعداءه في كل مكان : ملك مالطة ، إمبراطور كوبا ، أمير البليار ، ملوك فرنسا وإيرلندا كلهم أعداؤه . وأعداؤه بلا حصر في بلاط ملك إنجلترا . (هنا يخیل إليك أن يونسكو لا يحدثنا عن دنكان وما كبث وبانكو أيام الأنجلو سكسون ، وإنما يحدثنا عن شيء شبيه بحكام العالم الحديث) : « الحيلة أم الحكمة » ، هكذا يقول . إنه سيفر غالباً إلى كندا أو الولايات المتحدة حاملاً خزانة ملأنة بالذهب (هنا نتذكر ما حدث لدالاديه أو لبول رينو الذى فر بعد هزيمة فرنسا عام ١٩٤٠ إلى أمريكا بعد أن شحن ذهب الخزانة الفرنسية . حتى غرق المانش يذكروننا بما كان فى دنكيرك) . وبالطبع نضحك لأن أمريكا وكندا لم يكن لهما وجود أيام دنكان وما كبث وبانكو .

* * *

ولا يخرج دنكان من هذا القلق على مصير المعركة إلا بأن يقول

١٧٣

لياوره : « ابق أنت إلى جوارى لتدافع عني إذا اقتضى الأمر (مخاطباً ليدى دنكان) أما أنت فهيا بسرعة . خذى جواداً وامضى إلى الجبهة وعودى إلى بالأخبار ، ومع ذلك لا تقتربى أكثر من اللازم . أما أنا فسأحاول أن أرى ما يجرى بالمنظار المعظم » . إن هذا الدنكان يختلف كثيراً عن « معبد الله المقدس » الذى حدثنا عنه شكسبير ! ملك جبان لا يستحى أن يعرض زوجته للخطر لينجو من المهالك .

وبعد لحظات تسمع صيحات الانتصار . لقد انتصر ماكبث وبانكو على كودور وجلاميس . لقد وقع كودور فى الأسر أما جلاميس فهو محاصر بعد أن تمزق جيشه . ويخطب دنكان خطبة عصماء يشكر فيها قواده وجنوده البواسل الأحياء منهم والأموات الذين أنقذوا العرش والوطن ، ويتحدث عن مقبرتهم ، مقبرة الحلود ، فى أبينال (وهنا نحس أن دنكان يتحدث عن مقبرة الجيش الأمريكى الرهيبة فى بلدة أبينال بفرنسا التى تضم عشرات الآلاف من قتلى الحرب العالمية الثانية) فكأنما هو يريد أن يقول إن كودور وجلاميس هما هتار وموسولينى . وإن ماكبث هو أمريكا وبانكو هو روسيا أما الملك دنكان والليدى دنكان فهما بريطانیا وفرنسا) .

* * *

وفى حفلة رسمية يتم إعدام كودور وأتباعه فى حضور الملك والملكة . .
آلاف مؤلفة يموتون على المتصلة فى حين أن الليدى دنكان يأزونها بفوطة
وطست وقطعة صابون وماء الكولونيا وهى جالسة مع وصيفتها إلى جوار

ماكبث القائد المنتصر تعد الرؤوس الهاوية بلذة عظيمة ، وتغسل يديها كأنما تريد أن تزيل بقعة الدماء التي لحقت بيدها كما كانت تفعل الليلى ماكبث فى شكسبير . أما كودور فقبل أن يفصم رأسه نسمعه يقول : « على الأقل فليكن مصرى عبرة للجميع والأجيال القادمة . لا تتبعوا إلا الأقوى . ولكن المشكلة هى : كيف نعرف من الأقوى قبل المعركة ؟ فليقف أكثركم موقف المتفرج من المعارك ، أما الباقون فليتبعوا الأقوياء ، فمنطق الأحداث هو المنطق الوحيد الصحيح » .. ويشغل بانكو مهمة بفصم الرؤوس عن الأجساد . كل هذا والليلى دنكان الجالسة بجوار ماكبث تلتصق به فى نشوة حسية وتعاكسه بقدمها وتغمز له بعينها فتلهب فيه غلمة الاشتها . ويعلن الملك دنكان أنه بعد موت كودور يمنح لقبه ونصف أملاكه المصادرة لماكبث ، وحين يموت جلاميس سوف يكون لقبه ونصف أملاكه المصادرة من نصيب بانكو ويؤول النصف الباقى من الأملاك إلى العرش . غير أن رسولا يأتى بنياً فرار جلاميس المحاصر ويصاب بانكو بخيبة أمل شديدة . إن المعركة لم تنته ، ويجب أن يبدأ كل شىء من جديد .

* * *

غير أن ماكبث على الأقل خرج بشىء من كل هذا ، وهو اقترابه من الليلى دنكان الفاتنة اقتراباً شديداً ، وعلى البطاح نرى ماكبث يستعد من جديد لمطاردة جلاميس ، ومن بعده نرى بانكو . وتهب عاصفة هوجاء تظهر فيها الساحرات كما فى شكسبير ، ولكنهن ساحرتان .

لا ثلاث ، كما فى شكسبير ، وتعلن الساحرتان لماكبث أن الملك دنكان قد أنعم عليه بلقب جلاميس بعد لقب كودور لأنه غاضب على بانكو الذى يعده الملك مسئولا عن قرار جلاميس . ثم تفضيان لماكبث المشدوه بأن القدر قد كتب له أن يجلس على عرش دنكان ويتوج ملكاً على أسكتلندا . ويحاول لماكبث أن يطرد الساحرتين اللعيتين لأنهما توحيان إليه بخيانة ملكه ، ولأن لدنكان ورثين هما مالكولم ولى العهد الذى يتم علاومه فى قرطاجة وأخوه دونالين الذى يدرس فى راجوز (وهى الاسكندرية قبل الاسكندر) للحصول على دبلوم فى الاقتصاد والعلوم البحرية ! غير أن الساحرتين الشمطاوين لا تلبثان أن تتحدثا إلى لماكبث بصوت رخيم يذكره بصوت الملكة . ليدى دنكان ، ووصيفتها . فتشتد حيرته . وبرغم مقاومته هذا السحر الرجيم نحس بأن لونا من السم اللذيذ ، سم الغواية ، قد بدأ يسرى فى أوصاله .

نفس المشهد يتجلى أمام بانكو . تتجلى له الساحرتان تالقنانه بأن منافسه الخطر هو لماكبث الذى أختصه الملك بلقب جلاميس بعد أن أنعم عليه بلقب كودور ، ولكن الملك الجشع قد قرر أن ينعم بالألقاب من دون الأملاك . الأملاك له والألقاب لماكبث . ومع ذلك فالقدر قد كتب لبانكو أن يكون أباً لسلسلة طويلة من الملوك يجلسون ألف عام على عرش البلاد .

* * *

وهكذا تبذر الساحرتان بذور الفتنة فى قلب لماكبث وقلب بانكو

فتؤلبان كلا منهما على الآخر ، وتؤلبان كلا منهما على ملكه . أما منطقهما فبسيط ، لأنه مستمد من الواقع . إن الملك دنكان لا يستحق كل هذا الوفاء ، لأنه ملك جبان وجشع وغدار . هو لا يقاتل أبداً وإنما يجعل الغير يقاتل له معاركه . هو لا يخدم أحداً ولكنه يجعل الكل يخدمونه . كل الناس أدوات في يديه ، وهو يكره الأقوياء ويغار منهم . إنه سخر ماكبث وبانكو للفتك بكودور وجلاميس لأنهما كانا من الشجعان . وهو يضمم لقائديه المنتصرين الموت لأنه يخشى ارتفاع نجمهما . إن دورهما آت لا محالة . إن كل ما يفكر فيه دنكان هو المحافظة على عرشه وامتلاء خزائنه . إنه ملك ظالم . والقدر قد كتب لماكبث أن يجلس على عرش دنكان لأن ماكبث رجل عادل ، لأن ماكبث سوف ينشر السلام وينصف الفقراء في هذا البلد الشقي الممزق الذي لم يعرف السكينة ولا العدل قط . كذلك كتب القدر لبانكو أن يكون أباً لأسرة عظيمة من الملوك .

وماكبث لا يصدق أذنيه .. لقد كان في الماضي يخشى أن تظهر له الساحرتان ، أما الآن فهو يدعوهما للظهور ، ويستمع إلى حديثهما العجيب في مزيج من الوجمل والارتياح ، ويناجيهما . وحين سأل ماكبث الساحرتين عن سر حرصهما على سعادته يأتيه الجواب بصوت رخيم متمم : « لأننا نحبك يا ماكبث ، « لأننا نحبك يا ماكبث » ، هكذا تقول الساحرة الثانية عن الساحرة الأولى . ويخيل لماكبث أنه يعرف هذه الأصوات الرخيمة ، فهي ليست غريبة عنه ويناشد ماكبث الساحرتين

أن تكشفها له حقيقتهم، بل يسلم سيفه مهدداً أن يمزقهما إذا لم تعلمنا له ماذا تكونان .

وهنا تبدوا الساحرتان الشمطاوان في مشهد من السحر الأسود ترددان فيه عبارات باللاتينية من سجع الكهان ، عبارات مؤداها « اظهر وبان عليك الأمان » ، ثم تستويان وتتحركان في خفة ورشاقة . ثم تنزع كل منهما قناعها فإذا بهما الملكة الفاتنة الليدى دنكان ووصيفتها الجميلة . ثم تجذب الوصيفة رداء الملكة الفاتنة فإذا به يسقط تماماً عن جسدها الفاتن ، وتقف الليدى دنكان عارية لا يسترها على المسرح إلا بيكيني . ويسقط ماكبث على ركبتيه صائحاً . « يا صاحبة الجلالة !! » ثم يضيف : « إني أرى معجزة ! » فتجيبه الوصيفة : « بل أنت ترى على الطبيعة » . وعلى كتفى الملكة العارية رداء الملك الأرجواني وفي يدها خنجر تقدمه لماكبث قائلة : « هيا اقتله . اقتل الملك واجلس على عرشه أكن لك وتكن لى ! هيا بنا نبني معاً مجتمعاً أفضل ، عالماً سعيداً جديداً » وبعد تردد حائر يتقدم ماكبث ويتناول من يدها الخنجر ، والوصيفة تصبح « الحب قهار ! الحب قهار ! » ، ثم يلف الظلام كل شيء .

* * *

وهكذا جعل يونسكو من الساحرة الملكة ، ليلى دنكان ، ومن الملكة ليلى ماكبث ، وجعل من الثلاث شخصية واحدة هي شخصية « المرأة » أو « حواء » رسول الشيطان ، بالسحر والفتنة تستدرج أنبل الرجال إلى الخيانة والجريمة والموت . وهذا هو الحديد في يونسكو ،

أو ما أضافه إلى شكسبير : إن ليدى ماكبث الشهيرة التي دفعت زوجها العظيم إلى اغتيال مليكه واغتصاب عرشه والحوض في بحار من الدماء هي نفس الساحرة التي تجلت له في البراري لتقنعه بأن القدر هو الذي رسم طريقه إلى الخيانة والجريمة ، وهي نفس الملكة التي استدرجت هذا القائد المغوار لتتخلص من زوجها الملك . ومع ذلك فنحن مع يونسكو لا ندين المرأة وحدها ، لأننا نتحرك معه بين رجال أوغاد مهما بدت عليهم سمات الشجاعة والرجولة . ملك فاسق وقواد جشعون وكل امرئ يكد لأخيه ، والمرض في قلب « الإنسان » لا فرق في ذلك بين النساء والرجال .

* * *

وينطلق بانكو إلى الملك دنكان ليجادله في وعوده التي حنث بها . إنه وعده بلقب جلاميس يوم يؤتى به حياً أو ميتاً ، والآن وقد مات جلاميس غرقاً ها هو ذا يمنح لقبه لماكبث . ويحيب دنكان بأنه لا يملك دليل وفاة جلاميس . « جئني بالحثّة » . ولكن الحثّة طفت على البحر . « خذ زورقاً وابحث عنها » . ولكن سملك القرش أكلها . « خذ سكيناً وابقر به بطن القرش » . إن الملك يسخر منه . وهو الذي فتك بأعداء الملك . ويحيب دنكان : « لقد وجدت متعة في الفتك بهم » لقد كدت أفقد حياتي من أجلك . « ولكنك لم تفقدها » . باختصار أن الملك لا يقدم حساباً لرعاياه عن تصرفاته . وعند خروج بانكو يهتمهم دنكان في أذن ياوره : « كان ينبغي أن أعطيه اللقب ، ولكنه يريد الأملاك أيضاً ،

وهى حق يؤول للتاج . ومع ذلك قال غدا بانكو خطراً يجب الحذر منه .
 منتهى الحذر . ثم يضيف فى إيجاء . « ألا ترغب فى لقبه ونصف أملاكه ؟
 أقصد لو غدا خطراً ؟ » إن الياور يفهم الإيجاء وتلمع عيناه فرحاً ،
 وهنا يضيف الملك : « ما كبت أيضاً قد غدا خطراً . ربما كان يطمع
 فى الجاوس على عرشى . يجب الحذر من كل هؤلاء الناس . إنهم
 من رجال العصابات . كلهم . كلهم لا يفكرون إلا فى المال ،
 فى السلطة ، فى الترف . وما كبت بالذات ، لا يدهشنى أنه يطمع
 فى زوجتى أيضاً وفى محظياتى بطبيعة الحال » .

* * *

هذه إذن كانت أسس الملك فى بلاط الملك دنكان . حتى زوجته
 الملكة قد تألبت عليه . وهكذا تفرخ المؤامرة الثانية على عرش اسكتلندا .
 منتهى الحذر يتكاشف ما كبت ودنكان . ويبدأ بينهما حوار يذكرنا
 بحوار كودور وجاليس . إن الملك طاغية . إنه يجبى من كل نبيل
 فى بلاطه كل سنة عشرة آلاف دجاجة ببيضها وعشرة آلاف جواد وعشرة
 آلاف مقاتل وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف خنزير ، وألف بنت عذراء
 لفراشه . إنه طاغية وينبغى سحقه . وتكون المفاجأة عندما يعلن ما كبت
 لبانكو أن الملكة ، الليدى دنكان ، طرف ثالث فى المؤامرة . ويتعاهد
 الثلاثة على الفتك بالملك ، وتقدم الملكة هذا الشعار : « نعيش معاً أو
 نموت معاً » .

ويحل يوم التنفيذ ، وهو يوم شفاء المرضى ، فالملك بقوته الإلهية أو بحق

الملاوك الإلهى ، يحجج إليه كل عام موكب المصايين بالكساح وبالجذام وبالصرع وبكل وبيل من الأمراض عجز الطب عن شفائه ، وهو يشفيهم بلمسة من يده . وتم المراسم كالعادة فى حضور الكاهن ، وما إن ينصرف المرضى إلا اثنين ، حتى ينزع الكاهن غطاء رأسه فإذا هو بانكو مستخفياً فى زى راهب . كذلك ينزع آخر مريضين أسماهما فإذا بهما ماكبث والملكة ، ويتجمهر القتلة الثلاثة على الملك ويصرعونه بخناجرهم . وتلقى الملكة نظرة التأمل على جثة الملك المسجاة عند قدميها وتقول : « برغم هذا فقد كان زوجى . والآن أراه ميتاً فأحسبه يشبه والدى ، لقد كنت أكره والدى » .

* * *

وفى الخارج تهتف الجماهير : « عاش ماكبث ! عاشت الليدى ماكبث ! » إن كل شئ قد أعد لتتويج ماكبث وزفافه إلى الملكة . نعم . اليوم تصبح الليدى دنكان الليدى ماكبث . وتأكل الغيرة قلب بانكو . فهكذا آل كل شئ إلى ماكبث : التاج وألقاب النبلاء وأملاكهم ، وأخيراً يد الملكة الفاتنة . أما هو فقد خرج من هذه الصفقة بخفى حنين . إنه حزين ينهشه تأنيب الضمير . ومع ذلك فعزائه الباقي هو نبوء الساحرات بأنه سيكون أباً لأسرة عظيمة من الملاوك يحكمون البلاد ألف عام . فليكن . ولكن لكى يكون بانكو أباً لا بد له أولاً أن يتزوج . وهل هناك أنسب له فى الجمال والمقام من وصيفة الملكة ؟

ويسمع ماكبث بانكو التعس وهو يناجى نفسه على هذا النحو

ففيحتاج اهتياجاً عظيماً . أمن أجل اخلاف بانكو قتل ماكبث مولاه ،
ونخان عهد الولاء للعرش ؟ إن بانكو سادر في أحلام لن تتحقق ولو
أرادت ذلك الساحرات . لسوف يموت ، فتموت معه ذريته إلى أبد الآبدين .
ويطعن ماكبث بانكو طعنة ترديه قتيلا .

* * *

لم يبق إلا أن تزف الملكة إلى ماكبث ملكاً لتصبح الليدى ماكبث
وهنا نرى مشهداً عجيباً . نرى الليدى ماكبث ووصيفتها وقد عادت إلى
القصر الملكي بعد مراسم الزفاف تعدان في عجلة حقائب السفر . إن
ماكبث قد شرب في حفل الزواج حتى ثمل ، وهو الآن يغط في
نومه . وتقذف الليدى ماكبث بالتاج على الأرض وهي تصرخ :
فليذهب هذا التاج المقدس إلى الجحيم ، ثم تقذف بعقدتها المتدلى حول
عنقها وبه صليب يحرق صدرها . ثم تخلع ثوب الزفاف الأبيض وتقذف
به لأنه يذكرها بالطهارة والنقاء . وتلبس ليدي ماكبث جلباب الساحرة
القذر البغيض المنظر . ثم تنزع عنها شعرها الفاتن وتلبس مكانه شعر
الساحرة الأشيب المنفوش ، ثم يتغير وجهها وينحني ظهرها فإذا الملكة
الليدى ماكبث تتخذ من جديد صورة الساحرة الشمطاء . وهذا بالضبط
ما يحدث لوصيفتها ، إنهما لم يعد لهما عمل في هذا المكان . لقد رتبنا
كل شيء وأفسدنا كل شيء . ويجب أن ترحلا على وجه السرعة . إن
سيدهما (الشيطان) لا شك سعيد بما جلبتا من دمار ودماء في القصر
الملكي ، وهو بحاجة إليهما ليوفدهما في مهمة جديدة . وهكذا تحمل

كل عكازها وتمتطى حقيبتها وتطير فى الهواء وكأنها تمتطى موتوسيكلًا تكون له قعقعة مزعجة ، أو تبسط ذراعيها فى الهواء وتطير وكأنها النسر الطائر .

* * *

وفى قاعة العرش ينتظر الملك ماكبث الملكة ليدى ماكبث وحوله ضيوفه الذين أقبلوا لمأدبة الزفاف فى قاعة العرش . ويكون انتظاره طويلا ، ويبدو ماكبث فى حالة اضطراب عظيم ، فيخيل إليه أن الصورة الملكية المعلقة فى القاعة ليست صورته ولكن صورة الملك القتيل دنكان ، ويتجلى له شبح بانكو فيشتد هياج ماكبث . وأخيراً يتجلى شبح الملك القتيل دنكان ويسير فى تودة إلى عرشه ويجلس عليه . فيفزع الحاضرون ويحثون أمامه . ويقول شبح دنكان لماكبث : نعم ، أنت قتلتنى لأنى كنت طاغية أقتل الآلاف وأبىد القرى وأظالم الرعية . كل هذا صريح وأعترف به ولكن هناك شيئاً واحداً كاذباً فى كل ما تقواه عنى . لقد أخذت تاجى ومملكى ومالى وسلطانى ، ولكنك لم تأخذ زوجتى كما تظن ويبدو هذا مثل كلام المجانين . ولكن سرعان ما يتبين أنه الحقيقة نفسها . لأن شبح دنكان يختفى وتدخل من بعده الملكة . تدخل بلا تاج ولا جواهر ولا ثياب من ثياب الملك ، بل تبدو فى ثوب بسيط تتبعها وصيفتها . وينهض الحاضرون لاستقبالها ويهتفون بحياتها . بحياة ملكتهم المحبوبة الليدى ماكبث . فتقول الملكة فى تودة : صمتاً .. محبوبة أو غير محبوبة ، أنا لا أزال ملكتكم . ولكنى لست الليدى ماكبث كما تتوهمون

بل أنا الليدى دنكان أرملة ، ملككم الشرعى القتل .

* * *

ويظن ماكبث والحضور أن المرأة مسّاً من الجنون ، لأنهم حضروا حفل زفافها إلى ماكبث ، ولكنها تفسر لحم كل شيء ، لقد جاءتها الساحرتان وسجنتاهما في قبو القصر الملكى مع بصيفتها ورمتها في الأغلال ، وأخذتا من كل هيئتها وصوتها ، وإن من رآه الناس في الكنيسة يزف إلى ماكبث لم يكن الملكة بل كان الساحرة تتبعها صاحبتهما الشمطاء ، إنها تعلم كل شيء عن مقتل زوجها ومقتل بانكو وكل ما كان من اغتصاب عرش البلاد .

ويضطرب الحاضرون فيمتفون أنا بحياة ماكبث ويمتفون أنا بحياة ملكهم الحزينة ، ويشتد هياج ماكبث فيطردهم من قصره ليبقى وحده في مواجهة الليدى دنكان التى تقول له هازئة : « لن تخرج من هنا . لن تحكم البلاد . لأن الفتى مالكولم ولى العهد الشرعى قد جاء من قرطاجة على رأس جيش عظيم ليسترد عرش أبيه . إن البلاد كلها قد تألبت عليك وتخلى عنك أصدقاؤك » .

ويدخل الفتى مالكولم شاهراً حسامه ، ويكون نزال بينه وبين ماكبث يسفر عن مصرع ماكبث وانطواء صفحته ، هذا الذى تنبأت له الأقدار بأنه لن يهزمه رجل ولدته امرأة . وقد كان الفتى مالكولم حقاً هذا الرجل الذى لم تلده امرأة ، فحين يروى علينا قصته نعلم أنه ليس ولد دنكان من صلبه بل ولده بالتبني ، لأن الليدى دنكان كانت

عقيماً لا تنجب . إنه ولد بانكو من غزالة مسحورة في صورة امرأة ،
وقد ارتدت أمه غزالة قبل ولادته . وحملته الليدي دنكان إلى القصر
الملكي وزعمت أنه وليدها ليرث العرش . إنه قد جاء ليثأر لأبيه الحقيقي
(بانكو) ولأبيه بالتبني (دنكان) وليجلس على عرش البلاد . إنه بانكو
الثاني ، وسوف يكون هناك بانكو الثالث وبانكو الرابع وبانكو الخامس
وبانكو السادس وعشرات غيرهم . وهكذا تحققت النبوءة .

وعندما يجلس بانكو الثاني على العرش تحسب الرعية أن عهد الطغاة قد
انتهى ، ولكن الملك الحديد يبذل أحلامهم . إنه لم يأت ليحقق أوهامهم في
العدالة والرخاء ، في الفضيلة والسلام . إنه جاء ليحكم رعاياه الحمقى
الأوغاد الجبناء بالنار والحديد . لسوف يصادر كل أملاكهم . لسوف
يضاجع كل نساءهم . لسوف يسترق كل رقابهم . لسوف يبدو ما كبث
الأسود اللعين ملاكاً نوارنياً بالقياس إليه . لسوف يجعلهم يترحمون على
أيام ما كبث !



الفصل الثانى عشر

فى النساء والرجال

بعد أن شاهدت فى باريس تجربة يونسكو الجديدة ، حول موضوع « ماكبث » ، شاهدت مسرحية جديدة للكاتب الأمريكى إدوارد ألبى أسمها : « كل ما فى الحديقة » ، وهى مقتبسة عن مسرحية لكاتب مسرحى توفى حديثاً ، اسمه جايلز كوبر ، وقد أعاد ألبى صياغتها . والعنوان نفسه مقتبس من عبارة معروفة هى : « كل ما فى الحديقة ورود » . والذى شاهدته طبعاً فى مسرح ماتوران هو الترجمة الفرنسية لمسرحية ألبى الجديدة ، وليس نصها الإنجليزى .

وقد وصلت إلى مسرح ماتوران ، وهو مسرح تديره أرملة هارى بور الممثل العظيم ، قبل ارتفاع الستار بنصف ساعة ، فذهبت ألتسكع أمام واجهته ، وفى بهو مدخله أقرأ الإعلانات الجسيمة المعلقة على جدرانه ، وهى تعلن عما سبق لهذا المسرح أن قدمه من مسرحيات وما سوف يقدمه فى المستقبل القريب ، فوجدتها قوائم ممتازة من مسرحيات الطليعة كأعمال أداموف وأرابال ومرجريت دورا إلى الكلاسيكيات اليونانية مثل « أليكترا » سوفوكليس إلى الروائع التقليدية مثل بعض أعمال شكسبير وجوجول وتشيكوف وبيرانديلو وكونجرريف إلخ .. ولكنى وجدت بينها مسرحية أسمها « الرجل الذى فقد ظله » : « مسرحية من ثلاثة فصول تأليف

بول جياسون ، مستوحاة من قصة شاميسو ، فضحككت لأنى تذكرت الصديق فتحنى غانم وروايته . المعروفة . ولما كنت لا أعرف من شاميسو هذا ، رأيت أن أذكر هذه الواقعة لأنها قد تمهم الصديق فتحنى غانم أو تسرى عنه .

وقد وجدت مسرحية « كل ما فى الحديقة ورود » وردة سوداء من ورود الشر ، برغم أنها نموذج ممتاز من المسرح الواقعى الحديث ، بلا شعر ولا رمز ولا أسطورة ولا خيال . أو فلنقل على الأصح إنها نبات جميل مسموم من تلك النباتات الحميلة المسمومة الكثيرة التى أينعت فى الوجدان المعاصر لأنها تصور كل النساء وكأنهن بغايا وكل الرجال وكأنهم قوادون . والذى يخنف قليلا من ظلامها أنها لا تدعى أنها تتحدث عن الطبيعة البشرية وتنسب إليها هذه الخصاص ، وإنما تتحدث عن الناس فى المجتمع المدنى المعقد فى القرن العشرين ، أو بتحديد أدق فى الحضارة البورجوازية المعاصرة . متمثلة فى الحضارة الأمريكية . فالمسرحية إذن فى حقيقتها هجاء فظيع للحضارة الرأسمالية الغربية التى تنتج مثل هذه النباتات السامة المسمومة .

ومسرحية « كل ما فى الحديقة ورود » تدور حول موضوع مألوف ، وهو تصوير حياة أسرة أمريكية من الطبقة المتوسطة الصغيرة فى بلدة أمريكية صغيرة . وأعضاء هذه الأسرة ثلاثة هم الأب (ريتشارد) ، وهو موظف دؤوب مستقيم تجاوز الأربعين مؤمن بكل الفضائل التقليدية ، وزوجته الحميلة الفاضلة المحبة له المتفانية فى الإخلاص له (جينى) ، وهى فى نحو الخامسة

والثلاثين ، ثم ابنهما الغلام الذى يدرس فى المدرسة الثانوية وقد اقترب فى دراسته من إتمام شهادة البكالوريا .

غير أن هذه الأسرة الصغيرة النموذجية ، لأنها نموذجية ، وقعت فى حبال النظام الاقتصادى الاجتماعى الأمريكى كغيرها من ملايين الأسر ، فهى قد أقامت عمادها على أساس الاقتناء بالتقسيط المريح الذى بغيره ينهار الاقتصاد الأمريكى والصناعة الأمريكية . فالزوج قد اشترى فيلا جميلة مريحة لها حديقة جميلة مريحة ، واشترى أثاثاً جميلاً مريحاً وسيارتين جميلتين مريحتين : إحداهما لشخصه ، والأخرى لزوجته ، كما اشترى كل الأدوات الكهربائية اللازمة من ثلاجة ، وغسالة ، وتكييف .. إلخ ، مما تقدمه الصناعة الحديثة . كل ذلك اشتراه الزوج بالاتفاق مع زوجته على أساس التقسيط المريح . وبالتالي فأكثر دخله ، وهو دخل متوسط ، ينفق شهرياً فى سداد أقساط البيت والسيارة والثلاجة والغسالة .. إلخ ، فى اليوم الأول من كل شهر ، ثم يعيش الزوجان فى ضنك شديد بقية الشهر . وقد دامت هذه الحالة سنوات وسنوات لأن كل ما يسدد ثمنه يبلى ولا بد من تجديده ، والفلسفة التى تقود هذه الأسرة الأمريكية المتوسطة ، كما تقود ملايين الأسر الأمريكية المتوسطة ، هى المحافظة على ما يسمونه « المركز الاجتماعى » ، وعلى « المظهر المحترم » بين الأقران والجيران والمعارف ، ولذا فهى تحتل هذا الضنك فى صمت نبيل سنوات طويلاً يبدو أنها بلا نهاية فى سبيل المظهر والمركز . ولكن الغلام الوحيد يكبر ويصبح فتى ويقترب من دخول الجامعة

وتكثر نفقات تعليمه ونفقاته الشخصية ، والأسرة حائرة في الأمر ، لأنها مهددة بسبب حياة الشظف التي تعيشها أن تقطع تعليمه وتدفع به إلى العمل في سن باكر ، وهو مصدر شقاء عظيم للأب والأم . ثم إن حشائش الحديقة المائثة ، كان الأب يشذبها ويسويها بالمقص سنوات وسنوات وهو الآن يتقدم في العمر ويحلم بما كينة كهربائية تسوى له حشائش حديقته الجميلة وتوفر له عناء العمل اليدوى ، وهو لا يجد ثمن هذه الماكينة .

وفي لحظة من لحظات التشاكي المنزلى بين الزوج والزوجة من ضيق الحال والجزع على مستقبل ابنهما يتفقان على أنه لا حل لكل هذه المشاكل إلا أن تخرج الزوجة للعمل لتكسب بعض المال الذى يمكن الابن من الاستمرار فى كليته ويأتيهما بقصافة الحشيش الكهربائية ويدخل بعض الراحة على حياتهما اليومية . غير أن هذا يثير مشكلة من نوع جديد ، فالزوجة الجميلة الفاضلة الأنيقة ، كأتى بنت من بنات الطبقة المتوسطة لا تتقن أى عمل من الأعمال لأن أسرته نشأتها على أن تكون « ست بيت » وأما للأطفال وكفى . وأخيراً يستقر رأيهما على أن العمل الوحيد الذى تستطيع الزوجة القيام به هو أن تعمل كمضييفة حيث لا تطلب من المرأة أية خبرات خاصة إلا حسن المظهر وحسن الاستقبال وآداب الساوك ، وهذه كلها متوافرة فى هذه الزوجة .

ولا يحس بمتعاب هذه الأسرة الداخلية إلا شاب صديق للأسرة اسمه جاك ، وهو مليونير بالوراثة ، ولكنه سكير متلاف لا يفيق من

الشراب ، ويقضى حياته بين النوادي والنوادي الليلية ، وهو لكثرة ماله لا يعرف للحياة طعماً ولا معنى ، فحياته كلها يوم بلا غد ، يغلفها يأس يائس ، وهو يحاول أن يبدد هذا الصراع الكامل بالانغماس في الملذات وكثرة الترحال والسير سيرة العاطلين بالوراثة ، وهو أعزب بلا عمل ولا أمل . وربما كانت فيه بعض ملامح من الشذوذ الجنسي . وهو يقتنى العشيقات ويهملهن كما يقتنى الكرافات ويهملها . ومع ذلك لم يحاول أبداً أن يغوى الزوجة جيني لأنه كان يحترمها ويحبها حباً بريئاً لا يريد أن يفسده ، فهي عنده كل ما بقي في مجتمعه الصاحب من ملامح الفضيلة الفطرية والبساطة الطبيعية . وكان لا يخفى عنها عواطفه الحقيقية بدون مبالغة ، ويقول لها دائماً إنه عندما يموت سوف يترك لها في وصيته ثلاثة ملايين دولار ، فتكون دعاية لطيفة تسر بها جيني ويسر بها الزوج ريتشارد لأنهما يصرفانها على أنها من مزاح الكلام . وما إن ينصرف حتى يعود ريتشارد وجيني إلى التشاكي حول ضنك الحياة وضرورة خروجها للعمل حتى تستقيم الأمور .

وفيما هما في هذه الورطة تأتي زائرة غريبة في نحو الخمسين لتزور جيني في أثناء غياب زوجها في عمله ، وتقدم نفسها لها على أنها مسز كريكييت . وتبدأ مسز كريكييت كلامها بقولها إنها عرفت أن جيني تبحث عن عمل ، وإنها قد جاءت لتساعدنا في ذلك . وتذهل جيني لأنها لم تفض لأحد بمتاعها أو نواياها . فتطمئنها مسز كريكييت بقولها إنها تعرف كل شيء عن كل الناس فهذه مهنتها . إنها تعرف أن جيني

لا تتقن عملاً بالذات ، ولذا فهي تستطيع أن ترتب لها أن تعمل كمضيفة وسوف تجد أنه عمل مجز . ومسز كريكييت امرأة عمالية باردة الصوت حاسمة العبارات والنبرات ، ودائماً تدخل مباشرة في الموضوع . وتخرج من حقيبة يدها رزمة من البنكوت ، ألف دولار ، قائلة : خذى هذه دفعة أولى تحت الحساب . وتجار جيني فيما تسمع وما ترى ، وتحملن في رزمة الدولارات . ما هذا ؟ ما كل هذا ؟ أى عمل هذا الذى يدر كل هذا المال ؟ إنها تشبهه في مقاصد هذه المرأة الغريبة الصارمة الملامح والعبارات . وترفض طبعاً أن تأخذ الدولارات . لا بد أن هذه المرأة تنصب لها فخاً . ولكن المرأة تلح وتضع الدولارات في يد جيني المذهولة قائلة :

خذى هذا . سوف تحل كل مشاكلك . العمل بسيط . سوف تعملين كمضيفة عندي . أربع مرات في الأسبوع . كل مرة سيكون أجرك مائتى دولار . يعنى ثمانمائة دولار في الأسبوع ، يعنى أكثر من ثلاثة آلاف دولار في الشهر . وقد تصل بالبقشيش إلى خمسة آلاف دولار إذا سر الزبائن من خدمتك . ما هى مواعيد عمل زوجك ؟ وتجيب جيني ذاهلة : كل يوم ويخرج في الثامنة صباحاً ويعود في السابعة مساء . فتقول مسز كريكييت : عظيم . عظيم . عملك من الثالثة للسادسة أربعة أيام في الأسبوع . وتسأل جيني في حدة : برغم ذهولها أى عمل هذا ؟ فتجيبها مسز كريكييت : أنت لست وحدك . عندي مضيفات كثيرات . تأتين إلى بيتى في المواعيد المحددة . أنت جميلة

١٩١

وشابة ومظهرك ممتاز . تستقبلين زبائن من الرجال . أنت تفهمين . رجال
سثموا زوجاتهم . رجال أعمال على سفر . رجال يشكون من الوحدة .
ولكنهم جميعاً ظرفاء .. مهذبون . أنا لا يدخل بيتي إلا صفوة الرجال ،
وبعضهم كرماء للغاية . إذا ارتاحوا إليك غمروك بالهدايا . يمكنك
أن تبدئي العمل فوراً .

وتفهم جيني المطلوب منها : أن تعمل في بيت دعارة . وتثور
ثورة عارئة وتقذف بالدولارات في وجه مسز كريكييت فتتبعثر على
الأرض . وتطردها شر طردة : خذى دولاراتك القذرة واخرجى فوراً
فوراً . وإلا استدعيت البوليس ولكن المرأة تنهض في هدوء وتقول في
صوت بارد : سأضى . على كل حال فكرى في الأمر . هذه بطاقتي
تحمل عنواني . إذا قررت .. وتقذف جيني بالبطاقة في سلة المهملات
وتصرخ في هيسستيريا : اخرجى فوراً أيتها القذرة . اخرجى . وتنصرف
مسز كريكييت . وترنح جيني لحول ما سمعت . ثم تسترد هدوءها
درجة درجة . ثم تنحنى على الأرض وتجمع الدولارات المبعثرة في كل مكان
وترتبها ثم تضعها في درج كودوينو مجاور . وهنا يدخل ابنها لحظة ثم
ينصرف وهي تتأمله ساهمة ينتهبها الحب والجزع . ثم يرق جرس الباب
فيذا به ساع يقدم كميالة من الكمبيوترات التقليدية التي تأكل دخل
الأسرة في كل شهر . وبعد أن ينصرف نرى جيني تمشي جيئة وذهاباً
وهي في حالة من الاضطراب الشديد . ثم تميل على سلة المهملات
وتلتقط منها بطاقة مسز كريكييت وتخفيها في حقيبة يدها .

وتمر شهور ، وتبدو الأسرة أكثر رخاء وأقل توتراً ، بل تبدو أعظم سعادة : الزوج مقبل على زوجته يغمرها بالحب والحنان والزوجة مقبلة على زوجها تغمره بالحب والحنان . لقد اختفت متاعب الأسرة منذ أن بدأت جيني تعمل « كمضيفة » والابن (روجر) دخل الكلية في القسم الداخلي وهو الآن يقضى العطلة مع والديه . ويأتي ساعي البريد ليسلم للزوج ريتشارد ظرفاً مسجلاً ما إن يفتحه حتى يجد بداخله رزمة بخمسة آلاف دولار . ويدهش ريتشارد ، فليس هناك خطاب وليس هناك تفسير لهذه الرسالة ، بل ليس هناك عنوان من مرسل . وتقول جيني لاشك أنها هدية من صديق . إن ريتشارد لا يعرف صديقاً يمكن أن يهديه مثل هذا المبلغ الطائل . إذن لاشك أنها مكافأة من رجل أسدى إليه ريتشارد صنيعاً كبيراً ولكن ريتشارد لا يذكر أنه سدى لأحد صنيعاً كبيراً . لاشك أن هناك خطأ ما . لا ليس هناك خطأ ما فالظرف يحمل اسمه ومع اسمه عنوانه ، وهو ليس عنوان شخص آخر يحمل الاسم نفسه . إنه حائر ، إنه يكاد يجن من الحيرة ، لسوف يعيد المبلغ إلى مصلحة البريد أو يسلمه إلى البوليس ، وتقول جيني : هذه تكون حماقة . فالمال في يده ، وكل شيء يدل على أنه موجه له . أياً كان التفسير فالمال ملك له . لكم كانا يثنيان أن يقيما حفلة كوكتيل يدعوان إليها جيرانهما الوجهاء مستر فلان وزوجته ، ومستر فلان وزوجته ومستر فلان وزوجته . ألم يكن يتمنى أن يرى أقرانه حديثته الحميلة والحازون الحميل الذي يتعب في تصفيفه كل يوم أحد بعد أن اشترى

قصافته الكهربائية ؟ ها هي ذى الفرصة قد سنحت وهو يريد إضاعتها .
 ودرجة درجة يقتنع ريتشارد وتغمره الفرحة . إن زوجته على حق .
 ماذا يهم من أين جاءت النقود أو لماذا ؟ إنها الآن في يده وهي ملك له .
 لسوف يقيم حفلة الكوكتيل التي طالما تمنى أن يقيمها ويدعو لها الجيران
 والأصدقاء . وهو اليوم يدعوهم بالفعل . فيلبون دعوته ، ويأمر
 بالويسكى والجن والفرموت وكل أنواع الشراب ، فتجيئه ، استعداداً
 لحفله المساء . ومع ذلك تعود إليه الحيرة القاتلة ، فيذهب يرهق زوجته
 بالأسئلة الحائرة ، وهي لا تعرف بماذا تجيب إلا أن تحاول صرف
 تفكيره عن الموضوع ، ويفتح ريتشارد درج الكوودينو مصادفة بحثاً
 عن شيء فيقع بصره على أكداش من آلاف الدولارات مرتبة ومخبأة فيه ؛
 ويخرج من الحيرة إلى الاضطراب . ما هذا ؟ من أين جاءت كل هذه
 الدولارات ؟ لاشك أن في الأمر سرّاً خطيراً تعرفه جيني وتخفيه عنه .
 وتقول "جيني إنها مكاسبها من عملها . غير معقول . أى عمل يمكن أن
 يعود عليها بكل هذه الآلاف . وتقول جيني في احتجاج وبراءة : ولكنى
 اشتغلت ستة أشهر ! ستة أشهر أو سنة أو ثلاثة . محال أن تكسب
 مضيقة كل هذا المال ؟ لا بد أن تكشف جيني له عن سر كل هذه
 الأموال . وأخيراً تعترف له جيني بالحقيقة . إن مسر كريكيت هي
 السبب . ولكنها تحبه . تعبده . لقد فعلت كل ذلك من أجله . ومن أجل
 ولدهما روجر ليتم تعليمه الجامعي .

ويصاب ريتشارد بهياج كهياج المجانين . ويصفع جيني ثم يصفعها

ثم يركلها ، ويسبها بأفحش السباب : مومس . قدرة . يا للعار ! وهى تتقبل كل ما ينزل بها صاغرة ، ولا تجد ما تقوله إلا أنها تحبه ، وأنها ظنت أنها بذلك تحل مشاكل الأسرة . وبعد أن يفرغ ريتشارد شحنة الغضب العارم ينهار على مقعد وينتحب كالأطفال . ووسط نحيبه يتحدث عن الطلاق . نعم . لابد من الطلاق . وفيما هما كذلك يدخل ابنيهما روجر لحظة ويشهد هذه العاصفة التى لا يفهم سببها . فينسحب . أو تأمره أمه بالانسحاب . ثم تستجمع جينى قواها وتقول : فليكن . ولكن ليتم كل شئ فى هدوء . غداً صباحاً نبدأ إجراءات الطلاق . أما هذا المساء فتمالك نفسك . إن الضيوف قد أوشكوا أن يصلوا . تمالك نفسك أمام روجر وإلا حطمته نهائياً .

ويهب ريتشارد من جديده عند ذكر الضيوف ويعود إليه هياجه . ولكنه لا يلبث أن يقتنع برأيها . سوف يتمالك نفسه جملة ساعات حتى يتصرف الضيوف . يا للعار ! بأى وجه يقابل الناس بعد ذلك . ولكن غداً صباحاً سوف ينتهى كل شئ .

وسرعان ما يقبل الضيوف : ثلاثة رجال من وجهاء البحيرة ومعهم زوجاتهم الثلاث كلهن جميلات ورشقات وأنيقات فى أغلى ثياب . ويكون استقبال غريب اختلط فيه المرح المصطنع والعصبية الواضحة ويخرج بهم ريتشارد ليريهم حديقتة الجميلة .

وفى أثناء غيابهم يدق جرس الباب ، وتكون مفاجأة ، إنها مسز كريكييت . وتضطرب جينى وتضرع إليها أن تنصرف لأن بالبيت

زواراً ، ثم إن زوجها موجود . ولكن مسز كريكييت لا تحفل بتوسلاتها بل تأخذ طريقها إلى مقعد وتجلس في استقرار . إنها جاءت في أمر هام : لقد اكتشف البوليس أنها تدير منزلها للدعارة ، وقد يكبسونه بين يوم وآخر ، ولا بد لها من أن تغير مقر عملياتها . وأنسب بيت وجدته لذلك بيت مجاور لمحطة السكة الحديد ، وزوجها بحكم عمله هو الذى يملك أن يؤجره لها . فيجب إقناعه بذلك .

ويدخل ريتشارد وضيوفه بعد أن تفقدوا الحديقة ليجدوا مسز كريكييت . وتحاول جينى أن تسيطر على اضطرابها فتبدأ في تعريف الضيوف بمسز كريكييت ، ثم تكون المفاجأة الجديدة . إذا بمسز كريكييت تقول في لهجة متهمكة : « كيف حالك يا بريل ؟ وأنت يا لويز ، أرجو أن يكون الصفاء فد عاد بينك وبين زوجك ؟ أما أنت يا سنثيا ، فسأخصم منك مائتى دولار لأنك تغيبت عن عملك يوم الأربعاء . وهكذا ندرك أن العقيلات الثلاث يعملان مثل جينى في مشغل مسز كريكييت . ويحملق ريتشارد ذاهلاً ، فقد كان يتوقع أن تثور في بيته العواصف الزوجية حين يكتشف الأزواج المخدوعون حقيقة زوجاتهم ، ولكنه يدرك أن الأزواج الثلاثة على علم بكل ما يدري . وتعود إليه نحوه الرجال ويعود إلى هياجه فيسب كل النساء العاهرات والأزواج القوادين ، ويتهمج على مسز كريكييت ، ولكن رفاقه يهدئون من روعه ، وأخيراً يقول له أحدهم : اهدأ يا ريتشارد . لا تحسب أننا نختلف عنك في شيء . لقد ثرنا مثلك حين اكتشفنا الحقيقة ، وكدنا

أن نقتل زوجاتنا ، ولكننا هداً بعد وقت ، وقبلنا الأمر الواقع ، ثم ألفناه . إن الحياة صعبة كما تعلم ، والغلاء يشتد . كان علينا أن نختار بين السعادة والشرف فاخترنا السعادة . غداً تألف هذا الموضوع وتعايش معه كما ألفناه وتعايشنا . أما الآن فلنفكر في حل مشكلة مسز كريكيث لا بد أن نساعدنا على تأجير المنزل الجديد ، وإلا تعرضنا جميعاً للفضيحة .

ويسمع ريتشارد هذا الكلام في ذهول ، ولكنه يجد نفسه درجة درجة ينساق مع ضيوفه الثلاثة والنسوة الخمس إلى بحث هذا الموقف الجديد في هدوء وإلى تدبير الحاول لمواجهة !

وفيما هم كذلك يدخل عليهم صديقهم الشاب المليونير السكير جاك ، وهو في حالة سكر بين لا يكاد يحفظ توازنه . وما إن يقع بصره على مسز كريكيث ، حتى يوسعهما تهكماً وهو ينظر نظرات العتاب إلى جينى . إنه لم يكن يتصور أن مسز كريكيث يمكن أن تمتد تخوم إمبراطوريتها بحيث تجعل امرأة فاضلة مثل جينى بين رعاياها . أما الأخريات فقد عرفهن في الفراش وهن يثرن تقززهن . لقد كانت صدمة لجاك أن يرى مسز كريكيث ملكة الماخير في لندن سابقاً ثم في عديد من مدن أمريكا ، في دار جينى . وينهض جاك . إنه عائد إلى ناديه حيث العاطلون بالوراثة سيئون للغاية ولكنهم أقل سوءاً من هذا العفن البورجوازي ، حيث المتطلعات والمتطلعون يضحون بأبسط معانى الشرف من أجل « المركز الاجتماعى » .

١٩٧

ويصاب الجميع بدعر عظيم ، إن الشاب السكير جاك شاب طيب ، ولكنه مخمور ، ولا يؤمن إن هو عاد إلى النادي أن يثرثر عما رآه : حفلة عائلية تجتمع فيها ملكة القوادة بالزوجات والأزواج

وتقول النسوة : امنعوه . ويتألب الرجال الأربعة على جاك المترنح ويمددونه على الكنبه ويجلسون عليه ليمنعوه من الحركة دقيقتين أو ثلاثا ، ثم يتركونه ، فإذا ذراعه تسقط في استرخاء م. ب. . متقدم مس. كريكيت وتجس نبضه برهة ثم تعلن : لقد مات ،

وفي خليط من التمزع والوجوم والحزن العميق من سوب جاك يهف الجميع كالبله لا يعرفون ماذا يفعلون . في البيت جثة رجل ميت ، ولا شك أن البوليس سيطرق الباب إذا لم يجدوا حلا لهذا الإشكال . ويقول ريتشارد رب البيت : إذا نحن ألقينا جثة جاك في الشارع فسيظنون أنه مخمور مات من فرط السكر ويتكفون به . لقد كانت حاته تادل على ذلك . ولا شك أن عشرات من الناس رأوه في النادي يترنح قبل محيئه . وتقول مسز كريكييت : هذه فكرة نيرة ستدفع بنا جميعاً إلى السجن . ألا تعلم أنهم سيشرحون الجثة لتحديد سبب الوفاة ويكشفون انفجاراً في أوعية الرئة نتيجة الاسفيكسيا ، فيعرفون أنه مات غرقاً ، ولم يمض من التسمم الكحول ؟ وتعود الحيرة والتمزع وتتردد عبارة واحدة : ما العمل ؟ ما العمل ؟ وهنا تقول مسز كريكييت بلهجة الأمر : ناك حفرة عميقة في الحديقة . احماوه إليها في الغلام وأدفنوه فيها ، ثم انسوا الموضوع وتعالوا نتدبر مسألة تأجير البيت الجديد . ويحمل

الأربعة جثة جاك المسكين ويخرجون إليها إلى الحديقة، ثم يرجعون بعد دقائق ويأخذ كل مكانه على المقعده . وبعد نصمت وجيز يقول ريتشارد :
 ليس هناك بيت آخر . غير البيت المجاور للمحطة ؟ هناك صعوبات .
 في تأجيرها وهي كذا وكذا وكذا ، وينغمس الجميع في مناقشة حول البيوت
 المناسبة والبيوت غير المناسبة

ويظهر بينهم شبح جاك وقد عاد من العالم الآخر ، ويقول مخاطباً
 الجمهور : مسكينة جيني . لقد كنت شديد الإعجاب بها .
 وقد تركت لها في وصيتي ثلاثة ملايين دولار ، ولكنها للأسف لن
 تستطيع أن تحصل عليها قبل سبع سنوات . فالقانون ينص على أنه لا بد
 من انقضاء سبع سنوات على اختفاء الجثة قبل أن يدرج صاحبها رسمياً
 في عداد الأموات ، أما ريتشارد المسكين فقد كنت دائماً أعطف عليه
 لطيبته الشديدة وسط هذا العالم القاسي ، أما الآن فأنا لم أعد أخاف
 عليه من شيء . لقد تعلم كيف يعتنى بنفسه .

وهكذا يعود كل شيء إلى مجراه في هذا البيت النموذجي في هذه البلدة
 النموذجية في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تؤدي مسز كريكيث
 وظيفتها الاجتماعية الخطيرة ، وهي حل مشاكل التطلع الطبقي في مجتمع
 البورجوازية الصغيرة . وقد أثبتت مسز كريكيث حقاً أنها جديرة باسمها
 المضحك لأن لعبتها في الحياة هي أن تدفع بكل الكرات لتستقر
 في كل الحفر !

الفصل الثالث عشر

الزهرة السوداء

قرأت وأنا في باريس . أن مسرح دى تيرتر . في أعلى مونمارتر . يقدم عرضاً من « أغاني مالدورور » .. للشاعر الفرنسى الرحيم لوتريامون ، ودفعنى الفضول أن أرى كيف يقدم لوتريامون على المسرح . وهو شاعر غير مسرحى ولم يكتب قط للمسرح . وعادت بي ذاكرتى إلى سنة ١٩٤١ . حين كنت أجلس مع المرحومين : ريسيس يونان ، وكامل التلمسانى . في أحد استديوهات الفنانين في درب اللبانة بالقاعة ونقرأ « أغاني مالدورور » للوتريامون ، ونتحدث عنها وعنه .. وكان لوتريامون قبلها ويومها وإلى يومنا هذا ، من شعراء الخاصة ، لا يقرؤ إلا المثقفون . ليس فقط في مصر وحدها ، ولكن في فرنسا نفسها . وكان أكبر ازدهار لشهرته بين حلقات الشعراء الرمزيين ، مثل ألفريد جارى ، وليون بول فارغ . وفاليرى لاربو ، ثم بين حلقات السيراليين . وكنا يومئذ نقرأ لوتريامون في الطبعة المشهورة التى صدرت عام ١٩٣٨ ، وقدم لها رسول السيرالية أندريه بريتون ، والمثال العظيم ماكس إرنست وغيرهما من قادة المثقفين في العالم .

وكان اليوم عصر يوم أحد ، وذهبت إلى مسرح تيرتر ، فوجدته

مسرحاً صغيراً ، كمسرح الجيب ، بجوار كاتدرائية الساكركير ولم يكن في القاعة إلا ثلاثة غيرى .. وكان العرض « سواو » . أى عرضاً منفرداً ، قدمه ممثل شاب فى نحو الثلاثين ، اسمه كازالاس ، ذو موهبة فريدة فى الإلقاء شغل خشبة المسرح بمفرده ساعة ونصف ساعة متصلة يؤدى أداءً درامياً ترتيبه الخاص واختياراته الخاصة من أغاني مالدورور ، لا يساعده فى ذلك إلا فقرات مسجلة من موسيقى غريبة وبعض الفقرات المسجلة بصوت آخر يرتفع كالهمس أو كالوحي أو كالفحيح فى الخلفية ، ولا يساعده فى ذلك إلا ما كياج لقناع الموت على وجهه شاحب البياض شاحب الخضرة تحت ضوء البروجكتور وسط ظلام المسرح . ساعة ونصف من الشعر المنثور تعلقت فيها أنفاسنا لهذا الفيض من عذاب الشعراء الذين رأوا الشيطان رؤية العين فنسجوا من همسه بركة سدااء كفنوا بها آلاء الرحمن .

وقد كان بودلير ، صاحب « أزهار الشر » ، أحدهم . كذلك كان ايزيدور دو كاس ، ذلك الفنى الغامض الغريب الأطوار الذى اختار أن يتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو الكونت لوتريامون ، استعاره من اسم شخصية فى إحدى روايات أوجين سو (الكونت لاتريرمون) . وفى حياته القصيرة التى لم تتجاوز ٢٤ عاماً ، (فقد ولد ايزيدور دو كاس بمونيتفيدو عاصمة أورجواى فى ٤ أبريل ١٨٤٦ وتوفى فى باريس فى ٢٤ نوفمبر ١٨٧٠) لحق بركب الخالدين . وقد كتب لوتريامون عن نفسه فى النشيد الأول من « أغاني مالدورور » : « سوف تشهد نهاية القرن التاسع عشر ظهور شاعرها »

(ومع ذلك فهذا الشاعر لن يبدأ بنظم رائعة ولكنه سيتبع قانون الطبيعة) .
وقد ولد هذا الشاعر على شاطئان أميركا في مصب نهر لابلاتا ، هناك
حيث يقيم شعبان ، كانا فيما مضى متنافسين ، وهما يجاهدان الآن ليز
كل منهما الآخر في التقدم المادى والمعنوى . فيونس أيريس ، ملكة
الجنوب ، ومونتفيدو اللعوب تتصافحان عبر المياه الأرجنتينية على
مصب نهر لابلاتا » .

* * *

وواضح من هذا الكلام أن لوتريامون حين تنبأ لنفسه أنه سيصبح
شاعر « نهاية القرن » إنما كان يتصور أن الأجل سيمتد به على الأقل
إلى منتصف العمر ، ولكن المنية عاجلته في شرح الشباب في ظروف
غامضة . فكل شيء كان غامضاً في حياة هذا الفتى الذى أتعبت سيرته
مؤرخى الأدب نخلوها من المعالم الواضحة ومن الدروب الواضحة
ومن الصداقات أو الزمالات الواضحة التى تعين عادة على تتبع سير
الشعراء . فكل ما نعرفه عن سيرة لوتريامون أنه كان ابن فرانسوا دو كاس
قنصل فرنسا بالنيابة فى مونتفيدو من زوجته الفرنسية جاكيت دافزاك ،
وكلاهما من بلدة تارب جنوب مدينة بوردو بالقرب من البرانس
الفرنسية . وقد كان الأب من قبل يعمل مدرساً فى فرنسا ثم انتقل إلى
لسلك السياسى فى ظروف غير واضحة ، ولكن عقد الزواج يدل على
أن الزواج تم قبل ولادة الطفل إيزيدور (لوتريامون) بشهرين ، مما يشير
إلى خطأ تورط فيه الأب فرانسوا دو كاس مع الأنسة جاكيت وهما

بعد في تارب ، خطأ جعل الزواج قهرياً . وربما كان هذا هو سبب لجوء الأب إلى تغيير مجرى حياته جملة والتحاقه بالسلك السياسى ورحيله عن فرنسا إلى أمريكا اللاتينية عسى أن يتعد من مكان الفضيحة . وقد كان الأب يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره ، أما الأم فكانت في الخامسة والعشرين .

أما سجل الأب في مونتيديو فليس فيه كثير معروف إلا أن رؤساءه شهدوا له بالكفاية وحسن معاشرته الناس ، وقيل عنه إنه كان يتتقى خليلاته من بين الممثلات ، وإنه كان ذواقاً للنساء وللأدب ، فقد كانت له مكتبة عامرة . وقد ماتت أم إيزيدور قبل أن يتم سنتين من عمره ، وهكذا نشأ شبه يتيم في كفالة بعض قريباته ، وشب في مونتيديو حتى سن الثالثة عشرة . ويبدو أن أسرة لوتريامون كانت أسرة من الشواذ لأن أحد الأطباء النفسيين كتب بحثاً في « مجاعة التحليل النفسى » التى تصدر في بيونس أيريس عاصمة الأرجنتين يقول فيه إنه استطاع أن يستقصى فى أسرة لوتريامون (دو كاس) أربع حالات من الاحتجاز فى مستشفى المجانين وحالتين من الانتحار وحالة واحدة من القتل .

وأول ما نسمع عنه بعد ذلك هو عودة الغلام إيزيدور إلى فرنسا ليتم تعليمه والتحاقه بمدرسة تيوفيل جوتييه فى تارب وهو فى سن الثالثة عشرة ، ثم بمدرسة بو بالقرب من بوردو وبياريتز . وليس هناك ما يدل على أنه حصل منها على البكالوريا فى ١٨٦٤ أو ١٨٦٥ شأن أقرانه (وقد كان منهم الماريشال فوش) . كذلك تعب الباحثون دون جدوى

٢٠٣

فى أن يجدوا لاسمه أثراً فى جامعة باريس مما يوحى بأنه لم يبدأ تعليمه الجامعى . وكل ما عرف عنه فى أثناء دراسته الثانوية أنه كان معتزلاً أخذانم منظوياً على نفسه غريب الأطوار شديد التعالى كثير الكتابة مستسلماً لأحلام اليقظة دائم الشكوى من الصداق الفظيع ، وكان يتحدث عن نفسه أحياناً على أنه « مريض بعقله » . ولم تبد عليه أية مواهب خاصة فى الدراسة ، بل على العكس من ذلك كان من أوساط التلاميذ ، وإن بدا عليه اهتمام خاص بأدب سوفوكليس وراسين وكورناى وإدجار بووتيوفيل جوتييه . وآخر ما نسمع به عن إقامته فى مدرسة بوكان عام ١٨٦٥ تم تنقطع أخباره ثلاث سنوات حتى ١٨٦٨ حين نراه يظهر فى باريس . ويبدو أنه قضى هذه السنوات الثلاث فى واتفيديو .

* * *

ظهر اوتر يامون (إيزيدور دو كاس) عام ١٨٦٧ أو ١٨٦٨ فى باريس أديباً ولم يظهر طالباً ، وكان عمره وقتئذ اثنتين وعشرين سنة . وفى هذا العام نشر النشيد الأول من « أغانى مالدورور » . ويبدو أن اوتر يامون حين هبط باريس كان قد اتفق مع والده على أن يخترف الشاعر الأدب ، ربما وهو يتم دراسته فى باريس . فمعروف أن أباه كان يجرى عليه معاشاً شهرياً عن طريق رجل يدعى داراس كان مديراً لأحد البنوك ، ومعروف أن اوتر يامون كان يطلب من داراس هذا أموالاً علاوة على معاشه لكى ينفقها على طبع النشيد الأول من « أغانى مالدورور » . وفى أواخر عام ١٨٦٨ اتفق اوتر يامون مع ناشر مشهور اسمه لاكروا مدير

« المكتبة الدولية » على نشر النشيد الثاني من « الأغاني » وهي دار نشر ذات فروع في باريس وبروكسل ولايبزيغ وليفورنو ، عرفت بنشر الكتب الثورية والمنبوذة والمصادرة ومن بينها بعض أعمال فكتور هيجو وأوجين سووبرودون وزولا. ثم أمد لوتريامون الناشر لاكروا في أوائل ١٨٦٩ بمخطوط الأناشيد الستة مجمعة ، وهي كل « أغاني مالدورور » ، على أن تطبع في أثناء الصيف في بروكسل على نفقة المؤلف الذي قدم ٤٠٠ فرنك بصفة عربون. ونعرف من أوصاف الناشر لاكروا صورة لوتريامون عنده ، فهو قد « كان شاباً طويلاً فاحم الشعر أجرد الذقن شديد العصبية دؤوباً على العمل » ، لا يكتب إلا في أثناء الليل جالساً إلى البانوه يلقى عباراته بصوت عال ، ويصوغ جملة صياغة الصائغ ، ويزن إيقاعها على إيقاع التواليف الموسيقية . وهكذا طبعت الطبعة الأولى من « أغاني مالدورور » في بروكسل ، ولكن الناشر حجبتها بعد طبعها فلم يوزعها على المكاتب لتعرض على الجمهور « لأن الحياة مصورة فيها بألوان مريرة ولأنه كان يخشى النائب العام » . وقد كان لهذه الصدمة أثر عميق في نفس لوتريامون حتى إنه بدأ يعد بألا يغنى في أشعاره القادمة إلا عن « الأمل » و « الصفاء » و « السعادة » و « الواجب » . ولكنه لم يعش ليحقق شيئاً مما وعد به .

« أيها القارئ ! لعلك تريد مني أن أبدأ فواتيح هذا الكتاب بالكلام عن الحقد وليس سواه ؛ ومن أدراك أنك لا تشمشم أثر الكراهية ، وأنت سابح في شهوات بلا عدد وبغير حدود إلا ما يقر به فؤادك ،

تشمشم بخياشيمك المتغطرسة . وهى واسعة ورقيقة ، وأنت تتقلب على بطنك فى الهواء الأسود الجميل شأن سمكة القرش ، كأنما أنت تدرك أهمية هذا الفعل ، بل أهمية شهواتك المشروعة ، تشمشم بعظمة وهدوء روائح الشر الحمراء ! أيها الوحش ! إن هذه الروائح لتطرب لاشك خياشيمك الممسوخة فى خشمك البشع أو أنك بادرت قبل ذلك وتنسنت ثلاثة آلاف مرة متعاقبة ضمير الكون الأزلى الرجيم . . . » .

وهكذا منذ البداية تعرف رأى لوتريامون فى الكون والإنسان . فضمير الكون ملعون رجيم . الحية فى قلب الشيطان والشيطان فى قلب الكون ، والبغض يحكم الوجود . أهو نوع من تنازع البقاء وبقاء الأفسد؟ إنه أكثر من ذلك . إنه شهوة للشر وتلذذ من القسوة يذكرنا بفلسفة الماركيز دى ساد .

من أجل هذا يتحدث لوتريامون عن صفحات كتابه قائلا : « هذه الصفحات المظلمة التى تقطر سمًا » . قال بانجاوس : « لم يعد للديانة المانوية أتباع » ، فأجاب مارتان : « أنا موجود » ! « إن لوتريامون مثل بودلير وفاويز ، يعتقد أن التعبير الفنى عن الشر يتضمن أرقى درجة من درجات الإحساس الأخلاقى » . هذا رأى ، ولعله رأى صائب ، لأن اكتشاف قوانين الكراهية التى تحكم الكون وعالم الأحياء ، وحياة الإنسان بدلا من أن تحكمها قوانين الحب ، هو مصدر عذاب للشاعر . وهو يجد لذة فى هذا العذاب كما يجد العاشق لذة فى سحر الحب .

وبهذا نقرب من بعض ألوان الصوفية التي تجد أن الطريق إلى الفضيلة هو التطهر بالزذيلة ، وتجد أن الشك طريق الإيمان والتجديف طريق العشق الإلهي . وفي الديانة المانوية الله لا يحكم الكون وحده وإنما يحكمه معه الشيطان ، والظلمة تلازم النور والليل النهار طالما الكون كائن في صورته المادية . ولن يكون الكون نوراً على نور إلا في نهاية الزمن أو في الآخرة كما نقول نحن المؤمنون .

« سوف أبين في سطور كيف كان مالدورور خيراً في طفولته حين كان يحيا سعيداً ، وقد بينت . ومن بعد ذلك أدرك أنه ولد شريراً وياه من قدر عجيب ! فأخفى طبعه ما استطاع إلى ذلك سبيلا لسنوات وسنوات ، ولكنه في النهاية بسبب هذا الجهد المضني المضاد لطبيعته الذي بذله لإخفاء حقيقته ، وجد أن الدم يصعد إلى رأسه ، حتى تجاوز ذلك قدرته على الاحتمال . فانغمس في إصرار في حياة الشر .. فوجد الراحة في جوه الناعم اللذيذ ! ومن ذا الذي يعقل هذا ! حين قبل مالدورور طفلاً صغيراً وردى الوجه . أحب لو أنه سلب منه خديه بحد موسى ، ولقد كان خليقاً بأن يفعل ذلك مراراً وتكراراً ، لولا أن العدالة وما في ركابها العظيم من رسل القصاص ، أوقفته في كل مرة . ولم يكن مالدورور بالكذاب ، لذا كان يعترف بالحقيقة ويعان أنه قاسى الفؤاد . أيها البشر ! هل سمعتم ؟ إنه يجسر على قولها المرة بعد المرة ، أن يسطرها بريشته الراحشة هذه ! فهي إذن قوة أقوى من الإرادة .. إنها لعنة ! وهل يستطيع الحجر أن يتحرر من قانون الجاذبية ! محال . محال أن

يحاول الشر الزواج من الخير . وهذا ما قلته لكم آنفاً .

« الإنسان خير بالطبع » . هذه هي القضية التي يناقشها الناس والأنبياء والفلاسفة منذ الأزل . ومع ذلك فالرأيان فيها متعارضان حتى اليوم وفيما بينهما ظلال ، ولوتر يامون يقول إن براءة الأطفال الملائكية تخفى تحتها جوهر الشر الملازم للوجود الإنساني . إن سقوط الإنسان قانون طبيعي كقانون سقوط الأجسام بفعل الجاذبية . ومقاومة السقوط هي مصدر شقاء الإنسان وجنونه . بل إن مجرد إخفاء السقوط هو مصدر شقاء الإنسان وجنونه . أليس هذا هو الكبت وآثاره التي نقرأ عنها كثيراً في علم النفس ؟ والحل إذن ؟ أن يطلق الإنسان العنان لغرائزه الشريرة ؟ هذا جمحيم ، لأن رسل القصاص تقف دائماً بالمرصاد . أن يكبت الإنسان غرائزه الشريرة ، هذا جمحيم ، لأنه بمثابة تحد لقانون الأجسام الساقطة . أن يسقط في الرذيلة وأن يلبس قناع الفضيلة ! هذا ما يفعله الناس . وزواج الشر من الخير رياء . ظاهره الطهارة وباطنه خداع الزناة .

« عقدت مع الدعارة حلفاً بقصد نشر الفوضى داخل الأسر . وإني لأذكر الليلة السالفة على ليلة هذا الحلف الخطر . رأيت أمامي قبراً وسمعت فراشة النور ، طائر النار ، جسيمة كما الدار ، تقول لي : (سوف أضيء لك الطريق' . اقرأ النقش . هذا الأمر السامي لم يصدر عني) وانتشر في الهواء إلى مدار الأفق ضوء عظيم باون الدم ، ما إن رأيته

حتى اصطكت أسناني وسقطت ذراعى هامدتين . فاعتمدت على سور
متهدم حتى لا أتهاقت وقرأت : (هنا يرقد فى مراهق مات بذات الرثة
أنتم تعرفون لماذا . لا تصابوا من أجله) . ربما غيرى كثيرون ما كانوا
ليجدوا شجاعة مثل شجاعتي . فى هذه الأثناء جاءت امرأة جميلة عارية
ونامت عند قدمي . قلت لها بوجه حزين : (يمكنك أن تنهضى) .
ومددت لها يدي ، يد الأخ ذابح أخته . وقالت لى فراشة النور :
« خذ حجراً واقتلها » . قلت لها ، (ولم أقتلها ؟) قالت ، خذ حذرك
أنت الأضعف لأنى أنا الأقوى . هذه المرأة العارية يسمونها الدعارة .
واغرورقت عيناى بالدموع واتقد فى قلبي الغضب ، وأحسست بقوة
مجهولة تولد فى نفسى . وتناولت حجراً كبيراً ، وبعد جهد جهيد رفعته
إلى مستوى صدرى ثم وضعته بساعدى على كتفى وصعدت جبلاً حتى
قمته ، ومن هناك سحقت فراشة النور ، فغاص فى الأرض رأسها
جسيماً بحجم رجل ، وارتد إلى الحجر على ارتفاع ست كنائس ، ثم هوى
من جديد فى بحيرة غارت مياهها لحظة ودارت فى دوامة حفرت مخروطاً
عظيماً مقابلاً . ثم عاد الهدوء إلى سطح المياه . ولم يعد الضوء الدامى
يلمع بعد ذاك . وصاحت المرأة الجميلة العارية : (ويحك ! ماذا فعلت ؟)
قلت لها : (أنت خير عندى من فراشة النور ، لأنى رحمة بالتعساء .
الذنب ليس ذنبك إذا كانت العدالة الأزلية قد خلقتك) . قالت لى :
(فى يوم من الأيام سوف ينصفنى الناس . لن أبوح لك بالمزيد ، والآر
دعنى أمضى ، لأنخفى فى قاع البحر أحزاني السرمدية . ليس فى العالم

سواك والوحوش الشائبة التي تن في قاع هذه الهاوية الظالماء ، ليس
سواكم من لا يهتقرني ، أنت طيب القلب . وداعاً يا من أحببتني) .
قلت لها : (الوداع ثم الوداع ! الوداع ! لسوف أحبك ما حييت ! منذ
اليوم سوف أهجر الفضيلة) . من أجل هذا أيتها الأم ، حين تسمعين
ريح الشتاء تن على سطح البحر أو قرب شطآنه ، أو فوق المدن الآهلة
التي لبست منذ زمان على الحداد ، أو عبر فلوات القطب ذات الزمهرير ،
قولي أيتها الأم : هذا الذي يمشي ليس روح الله . إنه ليس إلا زفرات
الفضيلة الذبيحة اختلطت بزفرات هذا القادم من مونتيفيديو ، (وهي
عميقة) . فيا أطفالى : أنا القائل لكم . هيا إذن ، اركعوا والرحمة تملأ
قلوبكم ، وليبتهل الناس وهم أكثر من القمل إحصاء ، بمديد الصلوات » .
نحن هنا وفي كل مكان في عالم الشاعر بليك ، في عالم الفيلسوف
نيتشه ، في عالم النبي زارادشت ، فلنقل إن فراشة النور طائر النار ،
هي الروح .. أو الروح القدس ، والشاعر حائر بين فراشة النور والجسد
العارى ، الذي يسمونه في بعض الآداب الدينية بالمرأة القرمزية ،
تجسيد الخطيئة . هو حائر بينهما لا يعرف أيهما يقتل . وأخيراً يتناول
حجراً ويحاول أن يقتل فراشة النور . ولماذا هذا الاختيار ؟ لأن البغى
الأبدية تعترف بذلتها فهي ترقد عند قدميه وتخفى وجهها من العار ،
أما الروح ، فراشة النور ، فتجبرة تريد أن تسحق . وطوبى للضعفاء
كما قيل في القديم ، فلنقل إنها المجدلية ، ومن كان منكم بلا خطيئة
فليرجعها بحجر . ولكن حين أراد الشاعر أن يقتل الروح ، الفراشة

المنيرة ، غاصت في الأرض كالأساس المتين وشمسخت وتعاليت حتى بلغت مقام الكاتدرائيات الباذخة ، أما الحجر فقد سقط في المياه التي ابتلعت دوايتها المرأة القرمزية ، وهكذا قتلت الروح الجسد . فوداعاً أيها الجسد الذبيح . صابوا عليه واستمطروا الرحمات .. ولكن السؤال الذى يطرحه اوتريامون في هذه المقطوعة : هل الله حقاً هو الذى أمر بذبح الجسد ؟

« أى أوقيانوس القديم ! أيها الأعزب العظيم ! عندما تجتاز وحدتك الجلية ، وحدة مملكتك المترفعة ، تزدهى بالحق كبرياء لروعتك الأصيلية ، ولمدائحى التي أنظمها في بهائك .. ليت أن جلال البشر لم يكن إلا تجسيداً لظل جلالك .. إني لا أطلب شيئاً عزيزاً ، وهذه الأمنية الصادقة تمجيد لك . فجلالك المعنوى ، وهو صورة الأبدية ، عظيم كتأمل الفيلسوف ، عظيم كغرام المرأة ، عظيم كالبهاء الإلهى في صورة الطير ، عظيم كخواطير الشعراء ، أنت أجمل من الليل ! أيها المحيط ، أجبنى ، أتريد أن تكون شقيتى ؟ إذن فتتحرك في جموح .. فى جموح أعظم وأعظم أو أردت أن أقارنك بالانتقام الإلهى ، امدد مخالبك الزرقاء واحفر بها على صدرك طريقاً . هذا جميل أبسط أمواجك الفظيعة أيها المحيط الفظيع الذى لا يفهمه أحد سوى . هأنذا أتهافت أمامك بأر كع على ركبتي .. « أى أوقيانوس القديم ذا الأمواج الباورية .. عيناى ابتلتا بالدمع المدرار ، منك أنا - ولم أعد أحتمل أن أتعقب خطاك ، فأنا أحس بأن أوان عودتى إلى البشر الأفظاظ قد جاء . ولكن

فلنتجمل بالشجاعة . فلنتحامل على أنفسنا ولنحقق قدرنا على الأرض يلهمنا الإحساس بالواجب ، وسلاماً أيها المحيط القديم » .

كانوا في قمة الحركة الرومانسية يسمون هذا مذهب الحلول ، ورثه الشعراء الأوروبيون عن الفيلسوف سبينوزا الهولندي وعن سنانكور في فرنسا ، أو ما يسمى بوحدة الوجود . الله حال في الكون ، وما في الحبة غير الله كما كان الحلاج يقول : اقرأ مقطوعة : « سألت العباب » في صوفيات النفرى ، ونظائرها في السهروردي المقتول ، وفي ابن عربي . تجد بذور الفكر الرومانسى قد أينعت من قبل في تراثنا العظيم ، وكان لها شهادتها . إنه ليس زواج الجنة والجحيم ، كما كان بليك يقول ، لأن الزواج يتضمن ازدواج السابق أو الانشطار السابق ، أما هذا الذى نواجهه فهو معادلة جديدة قديمة فيها الله مساو للكون وروح الله مساوية لروح الكون ، حيث لا جوامد ولا أشياء صماء ، حيث روح الجبل وروح المحيط وروح الغابة وكل هذه الأشياء أجزاء من الروح الأعظم . وفي مثل هذا الوجدان (أو لعلة الوجدان !) يناجى الإنسان الجبل والمحيط بقوله : يا أشقائى ويناجى الإنسان الغابة بقوله : يا أختاه ! هنا الروحانية والجسدانية بشىء واحد . أو كما كان سبينوزا يقول فى كتابه : « الأخلاق » « الله هو مجموع الذكاء الموزع فى أرجاء الكون » أو كما كان يقول : الله بالنسبة للكون هو مجموع زوايا المثلث بالنسبة للمثلث : لا مثلث موجود إلا ولازمه قانون ٢ ق . ولكن سبينوزا كان فيلسوفاً وليس شاعراً فهو يتكلم عن العقل الإلهى المبثوث فى أرجاء الكون ،

أما لوتريامون فهو شاعر ولذا يتحدثنا عن الروح الإلهية المبتوثة في أركان الكون . ترى أى الماردين أعظم ؟ الإنسان أم المحيط ؟

وعلى كل فما هذه إلا شذرات من إيمان لوتريامون ومن تجديدفه كلها جاءت من النشيد الأول من « أغاني مالدورور » ، وبقيت خمسة أناشيد . جلست ساعة ونصف ساعة أستمع لمختارات الممثل أندريه كازالاس معلق الأنفاس وكأنه ينشد لى وحدى . وبعد العرض زرتة فى الكواليس لأهنته . وبعد أن أزال أصباغه ومساحيقه خرجنا معاً وعدنا إلى الحى اللاتينى . قلت : « ينجيل إلى أنى سبق أن رأيتك على المسرح » فأجاب : « ربما . أنا مثلت من قبل فى (تيمون الأثينى) لشكسبير ، وفى (ميديا) لسنيكا على مسرح الأوديون ، وفى (انتصار العاطفة) لجوته فى أفينيون وفى الأوديون ، وفى (مجمع الحب) لأوسكو بانيتزا فى مسرح باريس ، وفى (لعبة المذبة) ليونسكو وفى (إسكوريال) بليلدرود ، وفى (مالك الحزين) لسترنديرج وغيرها وغيرها . وعرفت أين رأيت من قبل . قالها فى تواضع شديد ، بل فى خجل شديد ، فبدأ كذلك الشاعر الجزويتى جيرارد مانلى هو بكنز الذى كان وجهه يحمر خجلاً كلما رأى فى الحديقة الخوخة تحمر فى الربيع ، وكأنه يرى رمز الخطيئة . فلنقل إن الفن — كالحب — خطيئة ، وكلما عظم الفن عظمت الخطيئة . وأهدانى نسخته من « أغاني مالدورور » . قلت : « وداعاً ! ليتنا نلتقى فى القاهرة ، فنحن أيضاً مثلكم ، بيننا نفر يرتكبون معصية الفن العظيم » .

الفصل الرابع عشر

٥ أيام في روما

في عودتي من باريس إلى القاهرة نزلت بروما حيث قضيت خمسة أيام ، قضيتها بين الآثار وفي المسارح وفي الأكاديمية المصرية مع صلاح كامل مدير الأكاديمية ومستشارنا الثقافي بروما ومع أسرة أمريكية تحمل لي ودًا كبيراً .

وكانت هذه زيارتي الثانية لروما . وفي الأولى زرت الفاتيكان وفي الثانية كانت لي جولة كل صباح بين الحرائب المرمرية المبنوثة في كل مكان حيث يعيش الأحياء . باحثاً عن الموقع الذي قتل فيه يوليوس قيصر—أشهر اغتيال في التاريخ — يشيرون إلى الفورم — سوق روما القديمة — حيث تجاوزت آثار الإدارات الحكومية والمجالس النيابية والمحاكم ومعابد الآلهة والدكاكين وساحات الاجتماعات الشعبية الشهيرة وأقواس النصر ، هناك تحت الكابيتول حيث السناتو مجلس الشيوخ أو (البرلمان الروماني) وحيث جرت أقلام المؤرخين وكتاب المسرح أن مارك أنطونيوس هيج رعاع روما وهو يخطب على جثة قيصر ويشعل شرارة الحرب الأهلية . فأذهب إلى الفورم فيقال لي : لا ، ليس هنا . اذهب إلى كامبو دوليو . فأذهب إلى كامبو دوليو فلا أجد أوحة أو أثراً أو شاهداً أو أى شئ يدل على مقتل قيصر . ويؤكد لك الناس أن المكان القديم مطمور تحت البيوت والكنائس القائمة . ثم تفاجأ بمرشد ثالث يقول : بل اذهب إلى

الحفائر في لارجو أرجنتيننا . فهناك كان موقع السناتو القديم الذى قتل على درجه يوليوس قيصر . أما السناتو الذى رأيته فى الهرم فقد بناه يوليوس قيصر ولم يعمر حتى يتم بناؤه وتأممت الأطلال المرمرية طويلا ، ثم انصرفت أسفا لنقص اليقين . قلت : ربما فى زيارة قادمة أكون أكثر توفيقا فى مناجاة أحجار روما القديمة .

وفى الأكاديمية المصرية شاهدت عرضاً للفيلم التسجيلى « ينابيع الشمس »، الذى أخرجه المخرج فىنى (تصوير حسن التلمسانى) لحساب وزارة الثقافة المصرية ، وعرضاً آخر للفيلم التسجيلى « العجيبة الثامنة » الذى أخرجه حسين بيكار أيضاً لحساب وزارة الثقافة المصرية عن موضوع معبد « أبوسمبل » ، باعتبار أن « أبوسمبل » أضاف إلى عجائب الدنيا السبع عجيبة ثامنة . ومع العرضين فاصل تمثيلى قصير كان عبارة عن مجموعة مونولوجات ألقاها الفنان الإيطالى إيفانو ستاتشيولى إلقاء منفرداً ، مونولوج أن نكون أو لا نكون ، من « هاملت شكسبير » ومونولوج آخر من بيرانديا . ولو أننى انتظرت يومين آخرين لشاهدت عرضاً لفيلم « المومياء » الذى أخرجه شادى عبد السلام لحساب وزارة الثقافة المصرية . كذلك كان هناك معرض لاثنتين من الفنانين المصريين . وقد كان كل ما رأيته شرفاً لمصر فى بلاد الفرنجة . الأكاديمية ومن فيها وما فيها .

وتصورت كيف أن هذه الأكاديمية يمكن أن تتحول إلى واجهة مشرفة ومركز ثقافى لفنون مصر وآدابها فى العاصمة الإيطالية ، لو أن

صلاح كامل قدم كل مساء نشاطاً ثقافياً مصرياً من نفس المستوى في باب المسرح أو السينما أو الموسيقى والغناء أو المحاضرات العامة أو فيما يدخل في باب التبادل الثقافي . أما في النهار فقاعات العرض تتسع للوحات أربع فنانين تشكيلييين في وقت واحد يمكن تغييرهم على مدار السنة مرة كل شهر . ولكنى وجدته حزيناً يفيض بالإحساس بالإحباط لأن يده مغولة عن كل شيء . وبدأت لي الأكاديمية كدكان مجوهرات عظيم من أرقى طراز وقد صفت في واجهته العلب الأنيقة على خافيات من أثواب القطيفة الفاخرة ، ولكن العلب للأسف خالية من المجوهرات . وجدت مدير الأكاديمية حزيناً لأن همومه كانت من نوع آخر غير ثقافي . فقد عرفت منه أنه اضطر لعقد السلف شهرياً ولمدة أربعة أشهر من بنك إيطالي لدفع مرتبات الموظفين المحليين الذين لم ترد اعتماداتهم في « الباب الأول » من الميزانية بلغة المستخدمين والحسابات في الحكومة المصرية السعيدة . فخذ انتقلت الولاية على الأكاديمية من وزارة التعليم العالي إلى وزارة الثقافة خفضت ميزانية الأكاديمية السنوية خارج الباب الأول دون سبب معروف من نحو عشرة آلاف جنيه إلى نحو خمسة آلاف جنيه ، وهي ميزانية المشروعات والمطبوعات وأجور الخدم ومصاريف الإنارة والمياه والتليفون إلخ . ولولما يتمتع به صلاح كامل في روما من هيئة شخصية ومن صلات ممتازة لقطعت الكهرباء والمياه والتليفون عن الأكاديمية ولا تصرف البواب وخدم النظافة والطبخ والغسيل الذين يخدمون أبناءنا الفنانين العشرة المقيمين في الأكاديمية لعدم صرف أجورهم ولأغلقت

الأكاديمية أبوابها وجلس موظفوها المعينون على الباب الأول في القهوة انتظاراً لأول السنة المالية القادمة . وقد استصرخ صلاح كامل واستنفر المسؤولين بالرسائل وبالبرقيات وبالمكالمات التليفونية ، ولكن دون جدوى وكان آخر استصراخ أعرفه رسالة حملني إياها إلى الدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء للثقافة والإعلام ، وقد حملت إليه الرسالة عند عودتي إلى مصر فأمر بحل جميع مشاكل الأكاديمية . فأرجو أن يكون الناس إلى فوق والناس إلى تحت ممن يمسكون كيس الدولة قد صدعوا بأوامره أو وجدوا طريقاً لحل مشاكل الأكاديمية .

ووجدت مدير الأكاديمية قد حدد لمهرجان افتتاحها شهر أبريل أو مايو ١٩٧٢ ، فنصحته بأن يؤجل الافتتاح إلى أكتوبر أو نوفمبر حتى يرتب أموره ، .. واقترحت عليه وعلى وزارة الثقافة أن يستغرق مهرجان الافتتاح أسبوعاً كاملاً بحيث تعرض في النهار صفوة لوحات فناني التشكيليين وتماثيلهم ، ويخصص المساء الأول لتقديم مسرحية لسنيكا أو لجلودوني أو لبيرانديلاو على مسرح الأكاديمية تحية من مصر للفن الإيطالي ، والمساء الثاني لتقديم عمل من أعمال توفيق الحكيم بالإيطالية ، تحية من إيطاليا للفن المصري ، والمساء الثالث لتقديم نماذج مصرية من أوبرا « عابدة » لفيردي وغيرها وريستيال على البيانو لهرى يسي وعلى الفيولونسيل لناجي الحبشي وغيرها . والمساء الرابع لتقديم الفيلم المصري . والمساء الخامس لندوة ثقافية عن العلاقات الحضارية بين مصر وإيطاليا . والمساء السادس لندوة عن العلاقات

السياسية والاقتصادية بين مصر وإيطاليا . ولما عرفت من مدير الأكاديمية أن من الممكن دعوة رئيس الجمهورية الإيطالية في حفل الافتتاح اقترحت أن يرأس وفد مصر الرسمي الدكتور محمود فوزى الذى يعرف الإيطالية فيما سمعت ، وأن يرأس وفدنا الثقافى توفيق الحكيم . وحين عرضت مقترحاتى على الدكتور حاتم أبدي اهتماماً شديداً بها ، ولم يبق إلا أن نأمل أن تترجم هذه الأفكار إلى واقع . أليست هذه طريقة لتغيير صورة مصر فى الخارج ؟

وبرغم الآثار وبرغم الأكاديمية وجدت الوقت لمشاهدة مسرحيتين بالإيطالية ، وأجريت لقاءين مع المخرجين دى سيكا ومونتالدو . وسعيت للقاء أنطونيو وفللى وفيسكونتى وباسولينى وروسالينى لأنقل لقراء « الأهرام » صورة عن مدارس الفن السينمائى ، ولكنى وجدتهم إما خارج إيطاليا وإما خارج روما . وكانت تجربتى مع دى سيكا غريبة فقد التقيت به فى الاستوديو فى أثناء التصوير بين لقطتين ، وعبرت معه البلاتو تحت الكاميرات والبروجيكتورات التى تعشى البصر وهرج الاستوديو إلى غرفته المأدبة ، فوجدته يسير فى اختيال كأحد القياصرة وقد تجمهرت من حوله نسوة جميلات فى حالة من الهستيريا ، هذه تقبله على خده وهذه تتعاقى برقبتة والثالثة تقول « مبروك » والرابعة تقول « رائع » .. ثم رأيت سيدة بارعة الجمال ملاحمها أنجاء سكسونية تجر طفلة فى نحو الخامسة تقطع الطريق على دى سيكا وتقول إنها من أستراليا وإن ابنتها موهوبة وإنها مستعدة للامتحان فى التمثيل . وقد حدد لها دى سيكا

صباح اليوم التالى للنظر فى هذه الموهبة الجديدة .
 وكان دى سيكا مرهقاً فى أثناء لقائى معه فلم أجالسه إلا نصف ساعة
 وعرفت منه أنه عديم الخبرة الشخصية بالفيلم المصرى ، ولكنه سمع
 ببعض ما يجرى عندنا من زميله روسيائى . وحين ناقشته فى تجارب
 زملائه بالحدد أنطونيونى وفلينى والباقيين من أتباع ما يسمى بالموجة الجديدة
 كان شديد الأدب شديد الإطراء على الطريقة الإيطالية ففهمت أنه
 لا يقر منهمجهم فى الإخراج . فهذا ممتاز فى كذا وذاك ممتاز فى
 كذا .. أما الجوهر فقد كان يتجنب الإشارة إليه فى حرص شديد . قلت :
 باختصار أنت لاتزال مطمئناً إلى مدرستك الواقعية ؟ فضحك لأنه أدرك أنى
 أدركت ، وأخذ يدافع عن المدرسة الواقعية دفاعاً حاراً . وكنت دائماً أشكو
 من البطء وتفتيت الزمن فى أفلام الموجة الجديدة دون تعويض تشكيلى
 فشكا دى سيكا مما يسميه « الغموض » فى عمل زملائه ، وهو ما يسميه
 زملاؤه المبرر النفسى .

أما مونتالدو صاحب الفيلم العظيم « ساكو وفنيزيتى » ، فقد بهرنى
 ببساطته وثقافته وبإيمانه بأن فى الحياة قضايا تستحق أن يدافع عنها
 الفنان من خلال الفن . وقد عرفت منه أنه يعدّ فيلماً عن حياة « جيوردانو
 برونو » ، الفيلسوف والعالم الإيطالى (١٥٤٨ - ١٦٠٠) الذى أحرقته
 محاكم التفتيش لقوله بأن الأرض ليست فى مركز الكون ولكنها فى ركن
 مهمل من الفضاء . تأسيساً على نظرية كوبرنيك فى الفلك ، ولأنه قال
 بضرورة الانسجام بين الروح والجسد وهاجم نظرية سحق الروح للجسد

التي تنادى بها بعض التفسيرات الدينية المحافظة ، كما قال بلا نهائية الكون وهو ما يشكك في أنه مخاوق ، وقد عاش حياته مطارداً بين جامعات إيطاليا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا حتى استدرج أخيراً إلى روما ، وهناك حوكم بتهمة الزندقة وأحرق على الخازوق في كامبودى فيورى (ميدان الأزهار) بعد سبع سنوات من السجن .

أما فيلم « ساكو وفنزيتي » فموضوعه القضية الفظيعة التي هزت ضمير العالم في العشرينات من هذا القرن كما هزت قضية دريفوس ضمير العالم في القرن التاسع عشر . ففي ١٩٢٠ ارتكبت في بلدة صغيرة بالقرب من مدينة بوسطون في أمريكا جريمة سرقة بالإكراه قتل فيها رجلان . وبعدها بأسابيع قبض البوليس على رجلين أحدهما اسمه ساكو وهو صانع أحذية والآخر اسمه فنزيتي وهو بائع سمك ، وكلاهما من المهاجرين الإيطاليين ، وكان الاشتباه مؤسساً على أن سيارتهما تطابق أوصاف السيارة التي ارتكبت بها الجريمة وقد وجدوا معهما مسدساً من نفس العيار . وبرغم اضطراب شهادة شهود الإثبات وعدم كفاية أدلة الطب الشرعى تمت المحاكمة في جو من التوتر والإرهاب زادهما أن محامى المتهمين كان معروفاً بميوله الاشتراكية ، وربما كانت على ساكو وفنزيتي أيضاً شبهة يسار ، وأن سكان ولاية ماساشوستس بصفة خاصة عرفوا بعدائهم المتعصب ضد « الأجانب » ، وكان القاضى ، واسمه تاير ، من غلاة المحافظين . ولهذا كانت محاكمة ساكو وفنزيتي محاكمة سياسية قبل أن تكون أى شيء آخر . وانتهت بإدانتهم والحكم عليهما بالإعدام . وقد جرت محاولة

لإعادة النظر في القضية استغرقت سنوات ، وثار الرأي العام في كل مكان في أمريكا وخارج أمريكا ضد هذا الحكم بإعدام الأبرياء وعمت المظاهرات في كل عواصم العالم تندد بالعدالة الأمريكية العرجاء وبالتعصب العنصرى والعقائدى ولكن بدون جدوى . بل إن أحد الشركاء في الجريمة عذبه وخز الضمير فسلم نفسه للبوليس معلناً أنه كان أحد من شاركوا في عملية السطو ، ومع ذلك لم يعتد باعترافه لأنه رفض أن يبوح باسم شركائه الحقيقيين . وقد قدم ساكو وفنزيتى التماساً إلى محافظ ولاية ماساشوستس واسمه فولر بتخفيف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد . وزارهما المحافظ في السجن وخرج من لقائه معهما في اضطراب شديد لأنه أحس باحتمال براءتهما ، ولكنه برغم ذلك لم يخفف الحكم خوفاً على مستقبله السياسى . وفي ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ عند منتصف الليل تم إعدام ساكو وفنزيتى ، على الكرسي الكهربائى . ويروى أنهما قابلا المنية إلى آخر لحظة بكرامة الرجال . قال فرانكاين روزفلت معقباً : « إن هذه أكبر جريمة وحشية ارتكبتها العدالة الإنسانية في القرن الذى نعيش فيه » وكتب الروائى الكبير جون دوس باسوس « نعم ، لقد انتصرتتم ، ولكنكم شطرتتم أمريكا إلى معسكرين » .

وكانت حكاية ساكو وفنزيتى مشهورة في ذاكرتى منذ أن كنت في الثانية عشرة من عمرى . ومازلت أذكر والدى جالساً ونحن بعد في مدينة المنيا يقرأ في الجرائد المصرية وصف تنفيذ حكم الإعدام في ساكو وفنزيتى الذى طيرته وكالات الأنباء ودموعه تنهمر على خديه . ولم نكن

نفهم سر انفعاله الشديد ونحن صبية ، فكان يشرح لنا كل ما قد جرى . ولعل هذه كانت أول صورة رسخت في ذهني عن « أمريكا » .

وفي لقائي مع مونتالدو لم يكن لنا حديث إلا عن الالتزام في الفن وكيف يمكن للفن أن يلتزم بقضايا الإنسان بدون أن يتنازل عن مقاييس الفن أو يجعل من فنه دعوة مباشرة صليبا لأية عقيدة من العقائد السياسية أو الاجتماعية . وكان واضحاً أن مونتالدو اشتراكى النزعة ومشرب بروح الديموقراطية في وقت واحد . وكان يتمنى أن يزور مصر . قلت : ولماذا لا تجرب الإنتاج المشترك مع وزارة الثقافة المصرية ؟ هناك أرض مشتركة عريضة بيننا وبينك ، فأنت معاد للاستعمار ونحن معادون للاستعمار . قال : أى موضوع تقترح ؟ قلت : خذ مثلاً ملحمة قنال السويس منذ حفرها حتى تأميمها ، فقد كانت نقطة احتكاك مباشر بين مصر والاستعمار . قال : هذا موضوع ممتاز لسينما ، وذهب يتحدث عما لقيه المصريون على يد أجانب مصر من الاستغلال الشنيع ، يتحدث وكأنه مصرى يعرف كل شئ ويحس بكل شئ مما كان . وتحدث عن ثورة ١٩٥٢ حديث المتفهم لأسبابها ونتائجها . قال فى عمق : لقد بالغتم فى عدائكم لنا لأننا بالغنا فى إذلالنا إياكم . كل هذا كان منطقياً . قلت : « فى هذه الحالة تستطيع أن تتناول قصة قناة السويس من خلال أسرة أجنبية عاشت فى مصر ثلاثة أجيال : جيل عاصر إسماعيل وجيل عاصر ثورة ١٩١٩ وجيل عاصر عبد الناصر » . قال : « غريب . إن هذا بالنص ما نصحنى به باباؤى نيرودا عندما كنا نبحث موضوع فيلم عن

تاريخ شيلي وقناة بنما مع الاستعمار الأجنبي .

و كنت أسمع عن مسرح إدواردو دى فيليبو فقررت أن أشاهد عرضاً من عروضه برغم أن معرفتي بالإيطالية طشاش بعد مضي ثلاثين سنة على تعلمي إياها من دون استخدامها بأى معنى حقيقى . (ونفس الأمر بالنسبة للألمانية) . وكان الغرض الأول من هذه التجربة امتحان ذاكرتي لأعرف إن كان فى استطاعتي متابعة نص مسرحى يلتقى أمانى بسرعة الكلام فى الحياة ، وإلى أى مدى تكون المتابعة . أما الغرض الثانى فكان امتحان المسرح نفسه : إلى أى مدى يستطيع الأداء التمثيلى والحركة المسرحية والإخراج .. إلخ أن يحمل معنى النص إلى المشاهد الذى لا يعرف لغته . وقد كانت تجربة فريدة لأن ذاكرتي نجحت بنسبة ٢٥ فى المائة أما المسرح فنجح بنسبة ٥٠ فى المائة ومعنى هذا أنى لو تابعت اللغة بنسبة نصفها لأمكننى متابعة النص كله بنسبة ١٠٠ فى المائة اعتماداً على دلالات التمثيل والحركة والإخراج .

وسمعتهم يهتفون فى روما لا تقل إدوارد ودى فيليبو . قل إدواردو فقط فليس فى إيطاليا غير إدواردو واحد . هكذا كان إدواردو عظيماً فى نظر الناس ، عظيماً فى نظر النقاد ، وهو الآن واستنوت مضت سيد المسرح الإيطالى بغير منازع منذ بيرانديلاو . وهو مؤلف وممثل معاً ، وقد أتهم فى مرحلة من مراحل إنتاجه بالنسج على نول بيرانديلاو ولكنه فى الحقيقة مؤلف تقليدى ينتمى إلى مدرسة الكوميديا ديللارتى .

ومن أشهر مسرحياته « السحر الكبير » و « الرعب رقم واحد » و « هذه

٢٢٣

الأشباح» و « الأصوات الداخلية » و « نابولي صاحبة الملايين » و « عيد الميلاد مع آل كوبييلو » ، و « فيلومينا مارتورانو » . (وهى أساس « الزواج على الطريقة الإيطالية ») ، و « الكذب ذو الأرجل الطويلة » (وهى المسرحية التى شاهدها) .

انظر إلى مسرحيته « السحر الكبير » موضوعها حاجة الإنسان إلى الوهم : كاليجيرو دى سبلتا رجل شديد الغيرة على زوجته مارتا ، فهو لا يتركها تغيب عن بصره لحظة واحدة . لهذا فإن ماريانو ، عشيق زوجته ياجأ إلى الحيلة لينفرد بمارتا . فهو يتفق مع الساحر أوتو أن يجعل مارتا تختفى من بيت الزوجية بالسحر أو بالخللا جلا ، ويقودها إلى ماريانو على أن تعود إلى زوجها بعد ربع ساعة ولكنها بدلا من أن تعود إلى زوجها بعد ربع ساعة نجدها ترحل مع ماريانو إلى فنيسيا حيث يقيمان معاً أربع سنوات . ويخرج الساحر مع الزوج كاليجيرو لاختفاء الزوجة ، ويؤكد له أن فى استطاعته أن يستردها أو تخلص عن غيرته العدياء ووثق منها ثقة طالقة . عندئذ سوف يرى زوجته تخرج أمامه من صندوق صغير . وتكون مشكلة الساحر الحقيقية هى إقناع الزوج بأن الوقت ثابت لا يمر ، وأن السنوات الأربع لم تنقضى على اختفاء زوجته . وينجح الساحر فى إقناع كاليجيرو بأن الزمن توقف عن الحركة ، ويكاد ينجح أيضاً فى إقناعه بأن مارتا لا تخونه . وفى اقتناع كاليجيرو بتوقف الزمن يحاول أن يتوقف أيضاً عن الأكل والشرب فيرثى الساحر أوتو لحاله ويقرر أن يعترف له بالحقيقة ، ويأمره أن يفتح الصندوق إذا كان قد تخلص تماماً من شكوكه .

وهنا تحدث المعجزة : تعود مارتا وتظهر أمامه في الوقت الذي يتأهب فيه كاليجيرو لفتح الصندوق ، ولكن كاليجيرو يعدل عن فتح الصندوق لأنه يعلم أنه لم يتخلص من شكوكه تماماً . ولهذا يرفض قبول زوجته مارتا لأنها ظهرت أمامه قبل أن يفتح الصندوق ، بمعنى أنها ظهرت أمامه قبل أن يتخلص من شكوكه نهائياً . إنه يؤثر أن يحتفظ بالصندوق وهو مغلق .

وقد لاحظ الناقد الكبير أريك بنتلي في كتابه عن « المسرح الإيطالي » ، أن ما يقال عن تأثير إدوارد وبيرانديلو في تصوير تداخل الوهم بالحقيقة قول غير صحيح . وعنده أن موضوع « السحر الكبير » ليس طبيعة الحقيقة ، على غرار ما نجد في بيرانديلو ، ولكن مجرد ثقة الأزواج في زوجاتهم .

أما « الرعب رقم واحد » الذي يعيش فيه الناس فهو الحرب العالمية الثالثة . وهذه حالة أسرة من أب هو ماتيو وابنته ، والأب يعيش في رعب من نشوب الحرب العالمية الثالثة إلى حد أنه لا يفتأ يؤجل كل عمل وكل مشروع وكل قرار في حياته ، بما في ذلك زواج ابنته . وحين تيأس البنت وخطيبها من الأب وأحواله يتفقان على افتعال إذاعة كاذبة تعلن في الراديو أن الحرب العالمية الثالثة قد نشبت فعلاً . وهنا نجد أم العريس تتدخل لتؤجل الزواج . لقد فقدت في الحرب العالمية الثانية زوجها وابنها الآخر وهي لا تريد أن تفقد ابنها الأخير في الحرب العالمية الثالثة ، ولذا فهي تحبس ابنها في غرفة صغيرة تطعمه فيها ما لذ وطاب

ولكنها طبعاً تحول دون خروجه لإتمام الزواج خشية أن ينتهى خروجه أيضاً بدخوله الجيش . ولكن هذه الكوميديا تنتهى نهاية سعيدة بظهور الحقيقة وهى أن الحرب العالمية الثالثة لم تنشب ويتم زفاف الخطيبين بعد ثلاثة فصول من الأوهام التى يعيش فيها الأب والأم . فكل منهما يعانى من عاهة نفسية أو من جرح عميق يجعاه يختبئ فى الأوهام ويتمسك بأسخف الآراء . وفى « الأصوات الداخلية » هناك رجل يستمع دائماً إلى إلهامه الباطنى فقلبه دليله ، وكل شىء يدرك عنده بالحدس . هذا الرجل يتهم أسرة من الأسر بأنها اشتركت فى قتل أحد أصدقائه . ولكنه يكتشف فيما بعد أن هذا كان حلماً أو وهماً ، لأن صديقه مازال على قيد الحياة . أما الأسرة فلا تنفى التهمة لأن كل فرد فيها يعتقد أن أى فرد آخر فى الأسرة كان يمكن أن يقتل ذلك الرجل .

وأوسع مسرحيات إدواردو شعبية هى مسرحية « فيلومينا مارتورانو » (١٩٤٦) وهى تدور حول موضوع رجل يهذى بغياً إلى طريق الفضيلة . والبغى فياومينا جاءت من حثالة نابولى ، وقد أنقذها من الفقر المدقع سرى من سراة نابولى يدعى دومينيكو سوريانو ، فقد عاشت معه سنوات عديدة . وعندما تجاوز دومينيكو الخمسين رأى أن يؤسس أسرة حقيقية ، وأن يتزوج بنتاً جميلة ، محترمة تصغره سنّاً . وحين عرفت فياومينا ذلك ادعت المرض وتماوتت وطلبت أن تزف إلى صاحبها دومينيكو وهى على فراش الموت ، فلم ير دومينيكو بأساً من ذلك . ولكن ما إن تمت مراسم الزفاف حتى نهضت فياومينا من فراشها وهى فى سعادة

غامرة ، وهنا أدرك دومينيكو أنه خدع . ولكننا نعلم أن فيلومينا لم ترتكب هذه الخديعة بدافع أناني وإنما لتعطى وضعاً شرعياً لأولادها الثلاثة الشبان . ويبدأ دومينيكو الغاضب باتخاذ الإجراءات القانونية لإبطال هذا الزواج الذي تم بالتحايل ، ولكن فيلومينا تخبره أن أحد هؤلاء الأبناء الثلاثة ابن منه ، دون أن تحدد أيهم ، لأنها ترفض التمييز في المعاملة بين أولادها . وهنا يقتنع دومينيكو بأن زواجه من فيلومينا هو الأمر الطبيعي ، وينبذ فكرة البحث عن زوجة جديدة . ويكون قد نجح في إبطال الزواج بالتدليس ، ولكنه يعقد قرانه على فيلومينا من جديد بإرادته ويتبنى أولادها الثلاثة .

هذه نبذة عن إدواردو دى فيليبو الممثل الكاتب صاحب فرقة إدواردو الشهيرة ، وهو الآن في الثانية والسبعين من عمره ، فقد ولد عام ١٩٠٠ ومع ذلك تراه على المسرح وتلقاه في الحياة فتجده في حيوية ابن الثلاثين . رأيت إدواردو على المسرح ، فرأيت معجزة . وأنا لا أعرف من اللغة الإيطالية ما يمكنني من الحكم على قيمة أعماله من الناحية الأدبية ، ولكن إذا أردت أن تعرف ماذا يفعل إدواردو على المسرح ، فتذكر الريحاني بوجهه الحشن الملامح وجسمه الحشن البنيان ، لا تعرف أتسخر منه أم ترثى له ، لأنه حتى في وسط التهريج يهز وترّاً في قلب الإنسان لأنه يمثل الإنسان الطيب المسحوق . ولكن إدواردو هو الريحاني مضروباً في ثلاثة ، الريحاني بغير جمهور ، الريحاني الغليظ الذي يفرض غلظته على النص والأداء . وأنا شخصياً لا أميل كثيراً لهذا النوع من الفن

المسرحى ، من كوميديا المواقف ، بل لا أميل إلى الكوميديا ديلالارنى التى يقال بمبالغة شديدة إنها تؤلف فى أثناء التمثيل ، أى أن الممثل فيها مؤلف يكسو هيكلها العظمى بنسيج الحوار تبعاً للموقف ، لأننى أفضل المسرح الأدبى دائماً القيمة على المسرح الفنى ، حيث المؤلف الممثل بمثابة أسطى أو صنايعى ماهر فى فن المسرح ، ولا سيما فى الحركة والحوار اللاذع . وحين جلست نحو ساعة مع إدواردو العظيم أناقشه فى أصول فنه ، وجدته دائماً الرجوع إلى اسم موليير ، كأنما موليير كان قبسه وهداه . وحررت ماذا أقول له : أى موليير يقصد ؟ موليير « سكابان » أم موليير « البخيل » و« النساء العالمات » و« البورجوازي النبيل » ؟



سلسلة (اقرأ)

الكتب التي نشرت فيها منذ
صدورها في يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

- ١ أحلام شهر زاد (د. طه حسين) ٥٨ خاتمة المطاف (على الجارم)
- ٦ شاعر ملك (على الجارم) ٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)
- ١٢ سنوحى (د. محمد عوض محمد) ٦٢ مرح الوليد (على الجارم)
- ١٤ من يوميات فتاة عصرية ٦٣ رقيق الأرض (نظمى أوقا)
- (حسين شوقي) ٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الطناحي)
- ١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حتى) ٨٧ غادة رشيد (على الجارم)
- ١٩ سيادة القصور (على الجارم) ٩٢ الجامعة (أمينة السعيد)
- ٢٢ جحا في جانبولاد ١٠٥ الحب الضائع (د. طه حسين)
- (محمد فريد أبو حديد) ١٠٦ سجل التوبة (أمين الريحاني)
- ٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان) ١٠٨ سارة (عباس محمود العقاد)
- ٣٢ الشيخ قرير العين ١١٦ اللحن الشرود (كرم ملحم كرم)
- (كرم ملحم كرم) ١٢١ عذراء الأندلس
- ٣٤ فارس بنى حمدان: أبو فراس (أحمد الصاوي محمد)
- الحمداني (على الجارم) ١٢٢ أشر من إبليس (محمود تيمور)
- ٤٣ عنتر بن شداد ١٢٩ زامر الحى (محمود تيمور)
- (محمد فريد أبو حديد) ١٣٠ في بطون الليالي (رشاد دارغوث)
- ٥١ الشاعر الطموح: المتنبي ١٣٥ ليلى العفيفة (عادل الغضبان)
- (على الجارم) ١٣٦ أبو على الفنان (محمود تيمور)

- ١٤١ بنت قسطنطين (سعيد العريان) ٢٨١ خالدون في الوطن (إبراهيم المصري)
 ١٤٥ عيون معصوبة (محمود كامل) ٢٨٣ دماء في الفجر (فاروق حلمي)
 ١٥٢ قلوب معذبة (قدري قلنجي) ٢٨٤ عروسة على الرف (صوفي عبد الله)
 ١٥٣ دماء وطين (يحيى حقي) ٢٨٧ قصص من جوته
 ١٥٥ بنت يزيد (سامي الكيال) (عبد الغفار مكاوي)
 ١٥٩ أجواء (حسن محمود) ٢٨٨ قصص الحب العربية
 ١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد) (عبد الحميد إبراهيم محمد)
 ١٦٧ أنات الساقية ٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
 (عبد الله القرشي) ٢٩٢ شئ من الخوف (ثروت أباطة)
 ١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد) ٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوي)
 ١٨٣ الثريا (كمال بسيوني) ٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحي)
 ١٨٦ عاشقة نفسها (حسن رشاد) ٣١٣ عفراء : قصة الحب الخالد
 ١٩٥ محكمة الضمير (حسن رشاد) (فايد العمرسي)
 ١٩٩ عرس وماتم (البدوي الملم) ٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
 ٢٠٠ مواطن أمام القضاء ٣٣٩ مؤسس تؤلف كتاباً وقصص
 (فاضل السباعي) أخرى (فتحى رضوان)
 ٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد) ٣٤٣ إني صاعدة (حلمي سلام)
 ٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر) ٣٤٤ الوادي السعيد (لويس عوض)
 ٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العناني) ٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
 ٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصري) ٣٥٠ دهوع في عيون ضاحكة
 ٢٤٠ نفوس تتكلم (وداد سكاكيني) (يوسف جوهر)
 ٢٧٣ مذكرات طيبيية (نوال السعداوي) ٣٥١ من أخطاء القضاء
 ٢٧٦ صنيعه الشيطان (حسن رشاد) (حسن صالح الجداوي)
 ٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبه رزق) ٣٥٢ عندما تحب المرأة (حلمي مراد)

الأدب

- ٢ شاعر الغزل : عمر بن أبي ربيعة ٩٦ شيخ التكية (محمد عبده عزام)
(عباس محمود العقاد) ١٠٢ من نافذة العقل
- ٤ عود على بدء (د. نقولا فياض)
- ٨ مذكرات دجاجة (إبراهيم عبد القادر المازني) ١٠٩ نديم الخلفاء : الحسين بن
الضحك (عبد الستار أحمد فرج)
- (د. إسحق موسى الحسيني) ١١٨ المعذبون في الأرض
- ١٣ جميل بثينة (عباس محمود العقاد) (د. طه حسين)
- ٢١ أبو نواس (عبد الحليم عباس) ١٢٠ شاعر الشعب : حافظ إبراهيم
- ٢٣ صوت أبي العلاء (د. طه حسين) (د. محمد سامي الدهان)
- ٢٦ العشاق الثلاثة : كثير وجميل ١٢٦ من ذكريات الفن والقضاء
وابن الأحنف (د. زكي مبارك) (توفيق الحكيم)
- ٣٣ في بيتي (عباس محمود العقاد) ١٢٨ الجدة الصغيرة (حسن محمود)
- ٤٧ أبو زيد الحلال (أمين الريحاني) ١٣١ (فاروق عبود)
- (محمد فهمي عبد اللطيف) ١٤٧ مارس يحرق معداته
- ٤٩ بين البحر والصحراء (عيسى الناعوري)
- (شفيق جبري) ١٥٧ غرام الأدباء : طه والحكيم والعقاد
- ٥٩ الجواري (د. جاور عبد النور) وتيه وروايات وأبو حديد والعريان
- ٧٤ قصر الرشيد (د. طه الحاجري) والشناوي (عباس خضر)
- ٧٦ ثم غربت الشمس ١٨٢ لمحات من الأدب الروسي
- (د. سنهاير القلماوي) (ماهر نسيم)
- ٨٣ من نافذة (دون جوان) (لطفى عبد البديع) ١٩٣
- (إبراهيم عبد القادر المازني)

٢٣١

- ٢٠٣ القومية العربية في الأدب ٢٦٧ آخر كلمات العقاد (عباس العقاد)
الحديث (د. محمد زغول سلام) ٢٩٨ ٤ كتب و ٤ كتاب
٢٢٠ الحب المثالي عند العرب (محمد بدر الدين خليل)
(د. يوسف خليف) ٣٣١ البطولة في الشعر العربي
٢٢٦ النفس الإنسانية في أدب (د. شوقي ضيف)
الناظر (سامي الكيالي) ٣٣٢ يوم بيوم (أنيس منصور)
٢٣٣ المرأة في شعر البحري ٣٣٧ في اللغة والأدب
(د. نعمات أحمد فؤاد) (د. إبراهيم بيومي مدكور)
٢٤٤ التماثيل المكسورة (رجاء النقاش) ٣٤٢ صراع الأجيال في أدبنا المعاصر
٢٤٨ من الأدب الإفريقي (غالي شكري)
٢٥٩ مع العقاد (د. شوقي ضيف) ٣٤٦ ذكريات عارية
٢٦٠ دعاء (علي أمين) (د. السيد أبو النجاة)

السيرة والتراجم

- ٥ ديستوفسكي (حسن محمود) ٣١ الغزالي (طه عبد الباقي سرور)
٧ الشاعر الرجيم بودلير ٣٥ جوته (صديق شيبوب)
(عبد الرحمن صدقي) ٤٢ قصة عبقرى: الخليل بن أحمد
١٥ بايرون (أمينة السعيد) (يوسف العشي)
١٧ شكسبير (م. ف. أبو حديد، ٤٦ الشيخ الرئيس ابن سينا
ز. ن. محمود، أ. خاكي) (عباس محمود العقاد)
٢٤ لا فوازيه (عبد الحميد يونس) ٥٠ تشيخوف (نجاتي صدقي)
وعبد العزيز أمين) ٥٤ تولستوي (حسن محمود)
٢٨ بوشكين (نجاتي صدقي)

- ٦٥ عمر بن عبد العزيز ١٢٧ شلى (أحمد الصاوى محمد)
 (أحمد زكى صفوت) ١٣٩ تيمورلنك (محمد محمد فياض)
 ٦٨ جمال الدين الأفغانى ١٤٠ عائشة بنت طلحة
 (عبد القادر المغربى) (كمال بسيونى)
 ٧٠ الجبرقى (خايل شيبوب) ١٤٢ بطل السند ومحمد بن القاسم
 ٧٢ فولتير (سليم سعدى) (محمد عبد الغنى حسن)
 ٧٧ المغنى المجنون : كاروزو ١٤٣ ابن عمار (ثروت أباطة)
 (أحمد الصاوى محمد) ١٥١ العاشقة المتصوفة : رابعة
 ٧٨ سقراط (على حافظ بهنسى) العدوية (وداد السكاكى)
 ٧٩ بيرانديلور (محمد أمين حسونة) ١٦٢ مكسيم غوركى (نجاة صدقى)
 ٨٢ فرانزليست (خايل هندوى) ١٦٤ دانتي (مصطفى آل عيال)
 ٨٥ بيتهوفن (محمد فهمى أبو النصر) ١٧٢ المخترون (أحمد طه السنوى)
 وهدى حبيشة ١٨٧ طاغور (د. جميل جبر)
 ٨٩ برناردشو (عباس محمود العقاد) ١٩٢ أدباء من الجزائر
 ٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه (د. إبراهيم الكيلانى)
 (محمد محمد فياض) ١٩٧ جان جاك روسو
 ٩٩ نساء محاربات (صوفى عبد الله) (د. محمد سامى الدهان)
 ١١٢ مع طه حسين (سامى الكيال) ٢٠٤ فيكتور هوغو (د. جورج زايد)
 ١١٣ عبقرية الإمام ٢٠٧ الناصر صلاح الدين
 (عباس محمود العقاد) (د. محمد سامى الدهان)
 ١١٥ الإمام المراغى (أنور الجندى) ٢٢٣ الشاعر الشهيد هاشم الرفاعى
 ١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم) (محمد كامل حته)
 ١٢٥ الصديقة بنت الصديق ٢٣٢ أبو القاسم الشابى
 (عباس محمود العقاد) (رجاء النقاش)

- ٢٥٠ ابن حمد يس الصقلي ٣٠١ مع طه حسين . الجزء الثاني
(على مصطفى المصراقي) (سامي الكيالي)
- ٢٥٤ من أعلام الحرية في العالم العربي ٣٠٦ سندباد في رحلة الحياة
الحديث (أنور الجندى) (د . حسين فوزي)
- ٢٥٦ عشرة من الخالدين ٣٢٤ هوثي منه (جورج عزبز)
(إبراهيم المصري) ٣٣٦ م . أيام خالدة في حياة عبدالناصر
- ٢٦٩ قابو الخالدين (إبراهيم المصري) (د . جمال الدين العطفي)
- ٢٧٧ عبد المطلب جد الرسول ٣٤٠ محمد عبد الوهاب (محمود عوض)
(د . على حسني الحروبوطي) ٣٤٩ هؤلاء علموني (سلامة موسى)

سياسة وعلمهم سياسية

- ٩ المذاهب السياسية المعاصرة ٢٦١ عروبتنا (محمود كامل)
(على أدهم) ٢٧٤ المزايم الصهيونية في فلسطين
- ٥٧ قضية فلسطين (محمد رفعت) (فتحى فوزى عبد المعطى)
- ١٠٧ تحرير وادى النيل ٢٧٥ الوحدة الإفريقية
(محمود كامل الميمى) (محمد أبو الفتوح الخياط)
- ١٤٥ أخى المواطن (فتحى رضوان) ٢٩٥ فلسطين قلب العروبة
(محمد فيصل عبد المنعم)
- ١٧ هذا الشرق العربى (فتحى رضوان) ٢٩٦ البترول العربى فى المعركة
(د . محمود أمين)
- ٢١٢ العرب ورسالتهم الإنسانية (د . على حسنى الحروبوطى) ٣١٠ حوار مع برتراند راسل وسارتر
(لطفي الخولي)
- ٢١٦ وحدة العرب (إبراهيم الدسوقي البساطى)

- ٣١١ حرب الأفيون (د . محمد مظهر سعيد)
 (محمد العزب موسى) ٣١٩ في مواجهة إسرائيل
 ٣١٦ سجين ثورة ١٩١٩ (إسماعيل صبرى عبد الله)

علم النفس

- ١٠ شفاء النفس (د . يوسف مراد) ٢٠٢ الإرهاق العصبي (نظمي خليل)
 ٨٠ الحب والكراهية ٢١٧ لكى تكون سعيداً
 (د . أحمد فؤاد الأهواني) (عبد العزيز جادو)
 ٩٨ الخوف (د . أحمد فؤاد الأهواني) ٢٢٩ الطريق إلى النجاح
 ١٣٣ النسيان (د . أحمد فؤاد الأهواني) (عبد العزيز جادو)
 ١٣٧ سيكولوجية الجنس ٢٣٦ عالم نفسك (د . كمال دسوقي)
 (د . يوسف مراد) ٢٥٧ أمراض نفسية (د . كمال دسوقي)
 ١٥٦ النوم والأرق ٢٦٦ النقائص والنجاح
 (د . أحمد فؤاد الأهواني) (ضياء الدين أبو الحب)
 ١٥٨ الغيرة (إبراهيم المصرى) ٢٩٠ شخصيتك فى الميزان
 ١٦٦ الأحلام والرؤى (د . عبد الكريم دهينة)
 (عبد العزيز جادو) ٣٠٧ قالت له
 ١٧٠ القلق (د . أبو مدين الشافعى) (محمد زكى عبد القادر)

علوم

- ١١ الكون العجيب ٣٦ مع الحيات
 (قدرى حافظ طوقان) (د . حسين فرج زين الدين)
 ٢٩ النار والنور (أمين إبراهيم كحيل)

٣٨	العلم والحياة	١٣٢	البساط السحري
	(د . علي مصطفى مشرفة)		(عبد السلام فنهجي)
٤٨	غرائب الحيوانات	١٤٩	بين البقاء والبقاء
	(محمد محمد فياض)		(قدرى حافظ طوقان)
٥٢	النار الخالدة (فؤاد صروف)	١٥٤	أينشتاين والعالم
٥٥	مع الأسماك		(محمد عاطف البرقوقي)
	(د . حسين فرج زين الدين)	١٧١	حرب الحمامات
	وهوى باسيلوس)		(د . عبد الحليم منتصر)
٦١	الموج الساحر	١٧٨	الصعود إلى المريخ
	(محمد عاطف البرقوقي)		(د . محمد جمال الدين الفندى)
٦٦	مملكة العناري	١٨١	هجرة الحواص
	(د . أحمد زكي أبو شادي)		(د . أحمد حماد الحسيني)
٧٣	أسرار الحياة	١٨٥	الغبار الذري
	(د . مصطفى عبد العزيز)		(د . محمد جمال الدين الفندى)
	و د . عبد العزيز أمين)	١٨٩	عصر الالكترونيات
٧٥	العيون في العلم		(د . جورج وهبه العني)
	(قدرى حافظ طوقان)	١٩١	الزلازل الزلزالية
٨٤	الوراثة والجنس		(محمد علي المغربي)
	(د . عبد الحليم منتصر)	١٩٦	قوى الطبيعة في خدمتك
٩٠	قصة البترول		(محمد جمال الدين الفندى)
	(يوسف مصطفى الحاروني)	١٩٨	الكلف الشمسي
٩٣	العالم سنة ٢٠٠٠		(محمد علي المغربي)
	(علي عبد الجليل راضي)	٢١٤	عصر التليفزيون
١٠٠	قصة العناصر (امبابي أحمد)		(د . جورج وهبه العني)

- ٢٤٩ عصر الطاقة الشمسية (د . جورج وهبه العنق)
 ٣٠٨ البحر والناس (د . سيد حسن شرف الدين)
 ٢٥٥ العالم الأخرى (د . محمد جمال الدين الفندي)
 ٣٣٤ ماذا نستخرج من البترول (د . جورج وهبه العنق)
 ٢٦٣ عجائب الأرض والسماء (د . محمد جمال الدين الفندي)
 ٣٤٥ مذكرات ذرة (عبد المحسن صالح)
 ٣٠٣ من عجائب الحياة (فوزى الشوى)

جغرافيا ورحلات

- ١٦ دمشق مدينة السحر والشعر ١٧٣ الجزر الخضراء: أندونيسيا
 (محمد كرد على) (حبيب جاماتى)
 ٢٧ بغداد مدينة السلام (طه الراوى) ١٧٧ صور من إفريقيا
 ٤٠ مهدي العرب (د . عبد الوهاب عزام) (د . محمد محمود الصياد)
 ٤٥ مشاهدات في الهند (أمينة السعيد) ٢٠٦ جولة في الإقليم الشمالى :
 ٦٩ رحلة الربيع (د . طه حسين) سوريا (د . يوسف سماره)
 ٨١ في بلاد النجاشى ٢١٨ الشفق القطبى (محمد على المغربى)
 (د . مراد كامل) ٢٢٥ المجتمع العربى (محمود الشرقاوى)
 ٢٣٠ الجغرافيون العرب
 ١٠٤ أرض المعجزات (د . بنت الشاطى) (مصطفى الشهابى)
 ١٦٣ غرائب من الرحلات ٣١٧ صور باريسية
 (محمد عبد الغنى حسن) (يوسف فرنسيس)
 ١٦٨ القارة العذراء ٣٢١ الإنسان الأوروبى فى الحدود واللعب
 (محمود العزب موسى) (عبد الستار الطويلة)

طبيب وصحة

- ٢٥ قصة البنسليين ٢٢٧ الإنسان والمرض (د. أحمد مختار)
- (د . مصطفى عبد العزيز) ٢٣٧ باقة طبية (محمد كامل سند)
- ٤١ الفيتامينات ٢٣٩ أخطاء الأطباء (د. فائق الجوهري)
- (د . مصطفى عبد العزيز ٢٧٢ الجسد والميكروب
- و د . محمد رشاد الطوبى) (د . مصطفى عبد العزيز)
- ٤٤ قصة العدوى ٢٨٢ الصيدلة علم وفن وإنسانية
- (د . محمد عبد الحميد جوهري) (د . جورج وهبه العفى)
- ٦٤ الأغذية الشعبية ٢٨٥ فيتامينات وهرمونات
- (حسن عبد السلام) (د . محمد صدقي عبده
- ٧١ الهرمونات (د . فؤاد خليل و د . محسن الدناصوري)
- و د . محمد رشاد الطوبى) و د . نجيب الأبراشي)
- ١١٠ نحن المعمرون (حسن عبد السلام) ٢٨٦ الغذاء الكامل أساس الصحة
- ١٢٤ قصة العقاقير (د . محمود محمد سلامة) (أسامة أمين العطار)
- ١٤٦ هذا الإنسان (د. حبيب صادق) (د . أسامة أمين العطار)
- ١٨٠ ضعاف العقول (مترى أمين) ٣١٨ أسنانك وكيف تحافظ عليها
- ٢١٠ أمراض الصيف (د. أنيس فهمي) (د . فاروق مرشد)
- ٢٢٤ الأسنان : أمراضها وعلاجها ٣٣٦ النفس والبدن (د. إبراهيم فهمي)
- (د . حليم الكدوانى)

تاريخ

- ٣٧ العناصر النفسية في سياسة العرب ١٩٠ المساجد والقصور بالأندلس
(شفيق جبرى) (د. السيد محمود عبد العزيز)
- ٥٣ قصة الكتابة العربية ٢١١ الفروسية العربية في العصر
(د. إبراهيم جمعة) الجاهلي
- ٨٦ الوعد الحق (د. طه حسين) (سيد حنى)
- ٩٤ طرائف من التاريخ ٢١٣ الألعاب الأولمبية
(مصطفى الشهابي) (مصطفى الشهابي)
- ٩٥ من أضواء الماضي (سامي الكيالي) ٢١٥ قصة ملكة سبأ
(زاهر رياض)
- ١٠٣ المهدي والمهدوية (د. أحمد أمين) (زاهر رياض)
- ١١١ المملكة والفتوة في الإسلام ٢٣١ صور من كفاح الشعب العربي
(د. أحمد أمين) (د. جمال الدين الرمادي)
- ١١٧ تيجان تهاوت ٢٤٧ البحر المتوسط بحيرة عربية
(محمد عبد الغنى حسن) (د. علي حسنى الخربوطلى)
- ١٣٤ أساطير مصرية ٢٥٣ الصين والعرب عبر التاريخ
(د. عبد المنعم أبو بكر) (محمد محمود زيتون)
- ١٣٨ الجمعيات السرية (علي أدهم) ٢٩١ الكعبة على مر العصور
(د. علي حسنى الخربوطلى)
- ١٤٤ ابن بطوطة (د. إبراهيم أحمد العدوى) ٢٩٣ معركة العلمين (السيد فرج)
- ١٧٩ السفارات الإسلامية إلى أوروبا ٣٢٢ قناة السويس في مائة عام
(د. محمد عبد الرحمن برج)
- (د. إبراهيم أحمد العدوى) ٣٣٠ أروى بنت اليمن (عارف تامر)
- ١٨٨ الثورة العرابية ٣٣٣ رسائل وأسرار (محمد التابعى)
(محمد عصام المرشدى)

اجتماع

- ٨٨ الهنود الحمر ٢٤٢ تعدد الزوجات لدى الشعوب
(د . علي عبد الواحد وافي) الإفريقية (د. محمود سلام زناتي)
١٠١ ملامح من المجتمع العربي ٢٦٢ بقايا كل شيء (أنيس منصور)
(محمد عبد الغنى حسن) ٢٦٤ ٥٥ مشكلة حب
١٥٠ وعى الشباب (واصف البارودى) (د . مصطفى محمود)
١٦٠ حبات المسبحة (يحيى حتى) ٢٧١ نماذج من النساء
١٦٩ عادات الزواج وشعائره (محمد زكي عبد القادر)
(أحمد الشنتناوى) ٢٧٩ مع الآخرين (أنيس منصور)
٢٢١ التصنيع طريقنا إلى القوة ٢٩٤ كوكب الإنسانية
والرخاء (د. حسن الأشمونى) (أحمد حسين)
٢٢٢ الحياة المثالية وكيف نحققها ٣٢٠ مذكريات زوج (أحمد بهجت)
(م . أحمد حماد) ٣٢٩ رسائل إلى والدى خالد
٢٢٨ التعبئة الروحية في بناء المجتمع (البادوى المثلث)
(د . حسن الأشمونى) ٢٤٨ نحو النور
٢٤١ نحو حياة مشرقة (محمد زكي عبد القادر)
(عبد العزيز جادو)

محتويات الكتاب

٥	الباب الأول : رحلتي الروسية
٧	الفصل الأول : ١٠ أيام في يوجسلافيا . . .
٢٣	الفصل الثاني : التجربة اليوجسلافية . . .
٣٩	الفصل الثالث : مأساة يوجسلافية ، وما لها روسية .
٥٤	الفصل الرابع : موسكو ، مدينة القباب والأخلاق الفاضلة
٦٩	الفصل الخامس : رحلة في عقل « ساشاسخاروف » .
٨٥	الباب الثاني : رحلتي الأمريكية
٨٧	الفصل السادس : أمريكا : كيف تراها ولا تراها . .
١٠٧	الفصل السابع : إمكانيات الحوار في المجتمع المصري .
١٢٢	الفصل الثامن : مصر وما وراء البحار . . .
١٣٩	الفصل التاسع : المسألة المصرية . . .
١٥١	الباب الثالث : رحلتي الأوروبية
١٥٣	الفصل العاشر : مداولات ثقافية . . .
١٦٦	الفصل الحادي عشر : ما كبث الحديد . . .
١٨٥	الفصل الثاني عشر : في النساء والرجال . . .
١٩٩	الفصل الثالث عشر : الزهرة السوداء . . .
٢١٣	الفصل الرابع عشر : ٥ أيام في روما . . .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٢٧٨١ / ١٩٧٢
مطابع دار المعارف ، بمصر سنة ١٩٧٢



Bibliotheca Alexandrina



0399733